



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر - 2 - أبو القاسم سعد الله

معهد الآثار



العمارة والعمران بمنطقة سوف

(10 - 13 هـ / 16 - 19 م)

- دراسة أثرية وعمرانية -

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

إشراف:

أ.د. طيان شريفة

إعداد الطالب:

حسونه عبد العزيز

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



جامعة الجزائر - 2 - أبو القاسم سعد الله

معهد الآثار

العمارة والعمران بمنطقة سوف

(10 - 13 هـ / 16 - 19 م)

- دراسة أثرية وعمرانية -

أطروحة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في الآثار الإسلامية

لجنة المناقشة

- أ.د. زكية راجعي.....رئيسا (جامعة الجزائر 2)
أ.د. شريفة طيان.....مقررا (جامعة الجزائر 2)
أ.د. لطيفة بورابة.....عضوا (جامعة الجزائر 2)
د. محمد موشموش.....عضوا (جامعة المسيلة)
د. سامية بن قويدر.....عضوا (جامعة الجزائر 2)
د. صفية ديب.....عضوا (المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة)

السنة الجامعية: 2018 – 2019

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي^{٢٥}

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي^{٢٦}

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي^{٢٧}

يَقْقَهُوا قَوْلِي^{٢٨}

سورة طه

الإهداء...

إذا كان الإهداء يعبر ولو بجزء من الوفاء فالإهداء إلى
مُعلم البشرية ومنبع العلم ، الرحمة المهداة نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)
إلى الذين اصطفاهم الله بحمل اللواء وشرف الأمة من علماء ومجاهدين .
إلى الوالدين الكريمين . . . فلولاهما لما وُجدتُ في هذه الحياة ، ومنهما تعلّمت الصمود ، مهما كانت
الصعوبات . طيب الله ذكرهما أبد الآبدين .
إلى نصفي الآخر زوجتي الغالية .
إلى مهجة فؤادي أبنائي الأعزاء .
إلى الأخوة والأخوات .
إلى كل الأصدقاء الأفاضل .
إلى كل من علمني الحرف يوم كنت له من الجاهلين .
إلى هؤلاء الكل . . .
أهدي هذا العمل ، الذي أرجو فيه المثوبة من رب العالمين .

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

الشكر مع الابتداء والانتهاء لله تعالى على فضله ومنّه وإحسانه، لما أجزله لنا من توفيق وإعانة لإنجاز هذا العمل على هيئته هذه.

ومن باب أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله الذي حثنا على عدم نسيان ما لبعضنا على بعض من فضل، فالشكر الجزيل للأستاذة المشرفة، الأستاذة الدكتورة طيّان شريفة المحترمة، على ما أمدتني من وافر عطاياها من النصح والتوجيه والإرشاد، وعلى صبرها وتحملها لي، وكانت أشد حرصا على أن يظهر هذا العمل على أحسن ما يجب أن يكون عليه، فلها كل الفضل والشكر مع التمني لها بموفور الصحة والعافية.

والشكر موصول للسادة الأساتذة والدكاترة الأجلاء أعضاء اللجنة العلمية وأعضاء لجنة المناقشة، بما منحوه إياي من أعز أوقاتهم وكبير جهدهم، في قراءة هذا العمل وإفادته من خبرتهم بالتصويب والتعديل ليرفعوا به لمصاف الأعمال الأكاديمية، فلهم خالص الشكر وأرفع آيات التقدير والتوقير والاحترام.

كما لا يفوتني إسداء الشكر لكل هيئة التدريس والإدارة بمعهد الآثار الذين أفدت منهم بوافر ما قدموه من جهود في عملية التأطير خلال سنوات الدراسة، ولرفقاء الدرب من جملة الأسباط الذين أنسنا معهم وازددنا شرفا بالتعرف إليهم.

والشكر ممدود لكل من كان جهده سبيلا لإنجاز العمل سواء بمعلومة أو توجيه ونصح وإرشاد وأخص بالذكر مربّي الأجيال أطال الله في عمره أستاذنا الكبير هيمه السعيد وكذلك ربغي أحمد من الزقم وسالمني عز الدين من زاوية سيدي سالم.

الشكر إلى كل من زرع التفاؤل في دربنا و كان لنا محفزا ومعينا ولو بالدعاء والرجاء والصبر علينا، خاصة من الأهل الذين فُرض عليهم تحمّل جانب من الأعباء. ... لهؤلاء جميعا كل التقدير والعرفان مع أسمى آي الشكر وأخلص الدعاء.

الطالب الباحث: حسونه عبد العزيز

بيان المُختصرات:

A.N.R.H : Agence Nationale des Ressources Hydrauliques

الوكالة الوطنية للموارد المائية (و.و.م.م)

D.U.C.H : Direction d'urbanisme et de construction et de l'habitat.

مديرية التعمير والبناء والسكان.

O.N.M : Office national de la météorologie

الديوان الوطني للأرصاد الجوية .

B. Ac. Hip : Bulletin de l'académie d'Hippone

B. S. Préh. F. : Bulletin de la société préhistorique de France

B.S.G.A : Bulletin de la société de géographie d'Alger

B.U.F : Presses universitaires de France

I.R.S : Institut de recherche saharienne

Rev. Af. : Revue Africaine

Rev. Gé.Mi. : Revue du génie militaire

Rev. Or. A. C. : Revue de l'orient de l'Algérie et des colonies.

المُقدِّمة

تعد متلازمة العمارة والعمران نتاج تفاعل الإنسان مع ظروفه المحيطة به، فكلما تطورت أفكاره وارتقى ذوقه في إطار بيئته ووسطه الاجتماعي، كلما طور إنتاجه الفني باختلاف الزمان والمكان، ورغم الاختلاف الحاصل فأوجه الشبه تظل قائمة، لأن التأثيرات الفنية تمتد حتما بين البلدان والشعوب في إطار الاحتكاك الدائم وتبادل الخبرات .

من هنا يمكن أن نميز لكل موضوع معماري مجموعة من العناصر، أهمها المنفعة على اعتبار أن الإنسان هو محور العملية العمرانية، لذا وجب أن تصمم المباني من أجله بما يوفر له احتياجاته الجسدية والنفسية.

كان الهدف الأسمى للعمارة دوما هو محاولة إيجاد مأوى يحتوي جميع نشاطات الإنسان ويحميه من المخاطر التي قد تتهدده، فكان لابد لهذا المأوى أن يكون مؤمنا للنشاط الإنساني الذي يحتويه وذلك من حيث انسجامة فراغيا مع نوع هذا النشاط و أن يؤدي لمستعمله كل راحة نفسية وجسدية ممكنة .

لقد شكلت قضية المأوى الشغل الشاغل للإنسان منذ القدم واستطاع بمرور السنين أن يراكم خبراته ويطو قدراته العقلية في سبيل تحقيق ذلك، ونجح في اكتساب المبادئ العامة للعمران ما مهد لظهور المدن والحضارات القديمة، وغدا التعمير والإنشاء من أهم مظاهر رقي الأمم وأصبح الطابع المعماري دليلا على التطور.

فالمُستقرى للعمارة الإسلامية يجدها مليئة بالمعاني الحقيقية لعمارة الأرض التي حث عليها الشارع الحكيم و تحقق مقاصد الشريعة بالمحافظة على الكليات الأساسية، فقد حثت تعاليم الدين الإسلامي من خلال القرآن والسنة على عمارة تخدم البشرية دون إضرار بالطبيعة وذلك بمراعاة خصوصية المكان والزمان.

إنَّ ذكر خصوصية المكان والزمان تجرنا للحديث عن البيئة العمرانية لمنطقة وادي سوف وعلاقتها بالتطورات الاجتماعية المحلية والإقليمية والتطورات السياسية

على الصعيد الخارجي في مجال زمني أوسع بالتحويلات على مختلف الجبهات وما واكب ذلك من تغير موازين القوى.

الإشكالية المستهدفة:

محاولة استجلاء ظروف العمران في منطقة وادي سوف ومجالاته و عوامل تطوره بالانتقال من حياة البداوة إلى التحضر مع ظهور التجمعات السكانية الأولى وعمارة القرى، وطبيعة ونمط العمارة الأولى للمنطقة باعتبارها ضمن الإقليم الصحراوي ومدى تأثيرها وتأثيرها بالأقاليم المجاورة كونها منطقة انتقال وعبور.

و لمعالجة ذلك سنحاول طرح تساؤلات عن:

العوامل المتحكممة والأسباب المانعة لعدم ظهور العمران البشري بمنطقة سوف مبكرا وما علاقة الجغرافيا (الموقع، المناخ) بذلك، ثم العوامل الاجتماعية والاقتصادية و الجيوسياسية التي ساعدت على نشأة التجمعات السكانية وظهور المنطقة مع بداية التاريخ الحديث ؟

ما مدى تجاوب العمارة المحلية في سوف مع الحاجة للاستقرار والأمن لدى سكانها الأوائل وما تأثير الموقع الجغرافي والتضاريس على هذه العمارة و كذلك استجابة عمران الحواضر لنمط وشروط المدينة الإسلامية؟

هل يمكن تصنيف العمارة التقليدية لمنطقة وادي سوف ضمن نطاق العمارة الصحراوية التي سادت في عموم الجنوب الجزائري؟

ومن دواعي اختيار هذا الموضوع الغياب شبه الكلي للدراسات الأكاديمية المتعلقة بالعمران في منطقة سوف وكل ما هو موجود عبارة تقارير أعدت خلال الحقبة الاستعمارية تفتقر إلى الدقة يغلب عليها طابع الوصف والنقل دون تمحيص.

كما أن منطقة سوف تتوفر على الكثير من المعالم التاريخية والشواهد الأثرية يمكن أن تشكل مادة خصبة لدارسي الآثار والعمران الصحراوي من خلال دراسة علمية تبحث في أوجه التشابه و الاختلاف ويمكن أن تساعد في إظهار قيمتها كعمارة تقليدية محلية بالمقارنة

- حاجة العمارة التقليدية لمنطقة سوف لدراسة علمية تبحث في أوجه التشابه و الاختلاف مع باقي المناطق الصحراوية الأخرى. قد تمثل

- إن سرعة اندثار الكثير من المعالم في ظل الحركية و التطور الحاصلين في مجتمعنا يجعلنا أمام مسؤولية أخلاقية للقيام بجهد علمي يهدف لتبليغ الأجيال منجزات الأسلاف.

- تمثل غيطان النخيل جزءا من عمارة سوف وكانت عامل صمود واستقرار السكان في بيئة صحراوية قاسية، لذلك كان لزاما إبراز هذا الإنجاز الحضاري وإعطائه مكانته ضمن الموروث الثقافي للمنطقة.

من خلال المصادر والمراجع في مقدمها:

- كتاب: تاريخ العدوانى، لصاحبه محمد بن عمر العدوانى، عاش خلال القرن 11هـ/17م وحققه الدكتور أبو القاسم سعد الله، من إصدار دار الغرب الإسلامى ببيروت، 1996

الذي يُعد مصدراً مهما يؤرخ لمنطقة سوف والجنوب الجزائري و بلاد إفريقية خلال القرن 11هـ/17م، على الرغم من أن الأخبار التي يوردها الكتاب عبارة عن قصاصات الكثير منها غير مكتمل كما أن بعضها لم يصلنا فإنه يوفر مادة تاريخية غنية بالمعلومات خاصة ما تعلق ببلد سوف أوشك الكثير منها على الضياع والاندثار خاصة مع اختفاء الأدلة والشواهد المادية التي تدعمها.

- كتاب الصروف في تاريخ الصحراء ووادي سوف لصاحبه إبراهيم بن محمد الساسي العوامر، وعلق عليه أبنة الجيلاني العوامر و الذي ألفه مطلع القرن 20م، طبع الدار التونسية للنشر سنة1977. يعتبر هذا المؤلف صورة أحدث ومنقحة من تاريخ العدواني فقد جاء شارحا ومفسرا له أعتمد صاحبه فيه على بعض الكُتّاشات المكتوبة وعلى الرواية الشفهية و غلب عليه طابع السرد التاريخي فكان أكثر وضوحا من سابقه .
ومن الدراسات والأبحاث الفرنسية الجادة نجد :

Bataillon Cl. LE SOUF: Etude de Géographie Humaine, Université d'Alger, Institut de Recherches Sahariennes, mémoire n° 2, Alger 1955

دراسة أكاديمية اعتمدت المنهجية في البحث والتحليل وركزت على دراسة العمران البشري ودوره في ظهور التجمعات السكانية وكيفية تطورها إلى قرى ومدن بسوف والعوامل الجغرافية والمجتمعية المتحركة فيها.

Henri Duveyrier, Sahara Algérien et Tunisien, Journal de route, Augustin Challamel Editeur, Paris 1905

دراسة يغلب عليها طابع المغامرة، احتوت على الكثير من الأخبار والمعلومات القيمة التي أفادت في علاقات طريقة عيش سكان الصحراء ومنهم أهل سوف وعلاقاتهم الخارجية التي كبير الأثر في تطور حياة السكان.

و العديد من المؤلفات الأخرى المتخصصة في عمران المدينة والعمارة الصحراوية كما اعتمدنا على المصادر الشفهية ومجموعة من الكتب والدراسات الأجنبية منها وقد استفدنا من الكتب والمقالات بصيغة (PDF) التي توفرت من خلال المكتبتين الالكترونيتين:

المكتبة الإلكترونية في ليون لمجلات العلوم الإنسانية والاجتماعية

www.persee.fr

فقد كان لهذه المؤلفات الكثير من المساعدة والإفادة في بحثنا هذا الذي حاولنا من خلاله تسليط الضوء على ظروف العمران في المنطقة وكيفية تشكل القرى والمدن وعوامل تطورها ومن ثمّ التوصل إلى معرفة خصوصية نمط العمارة والعمران الذي تميزت به من خلال دراسة أثرية لثلاث مراكز حضرية وهي: الزّقم القرية الأولى الواد الحاضرة الأم وقمار البلدة القديمة، كون هذه المدن تمثل الحواضر الأولى والتجمعات السكانية الأقدم في منطقة سوف، وظلت إلى حد ما محافظة على نمط عمارتها القديم كما اشتملت على العديد من المعالم العمرانية.

وقد أُعتمد في هذه الدراسة على:

- الجانب النظري من خلال أسلوب المقاربة التاريخية والتحليل الأثري، تحليل الأحداث التاريخية والوقائع الواردة في المصادر الكتابية والمقارنة بينها والرواية الشفهية.

- العمل الميداني على الأرض والقيام بأعمال تقصي المواقع المندثرة وعمليات الرفع الأثري وأخذ الصور للمعالم القائمة.

وقد قُسمت الدراسة إلى ستة فصول و مقدمة وخاتمة:

تضمن الفصل الأول دراسة جغرافية للتعريف بمنطقة وادي سوف من حيث الموقع و الخصائص الطبيعية كالظاهرة المناخية ومكونات السطح والبنية الجيولوجية للتربة ومصادر المياه...الخ. وفي الجانب التاريخي تم البحث في أصل ودلالات تسمية وادي

سوف من أجل فهم الظروف الدافعة والمساعدة على الاستقرار البشري بهذه المنطقة الصحراوية وظهور حركة العمران فيها.

تم التطرق في الفصل الثاني إلى التجمعات السكانية المبكرة التي ظهرت بمنطقة سوف وهل يمكن أن يُصطلح عليها قصورا كمدن الصحراء الأخرى أم قرى كالقرى في الجبال والأرياف، و محاولة معرفة مواقع هذه القرى الأولى وتحديد فترات ظهورها بالاعتماد على ما ورد من معلومات عنها في المصادر المكتوبة أو الشفهية رغم صعوبة ذلك لأن جميعها اندثرت ولم يعد لها أثر.

تضمن الفصل الثالث دراسة لثلاث حواضر الأقدم نشأة في المنطقة والتي يُعتقد أنها حلت محل القرى المندثرة، في محاولة لمعرفة ظروف تأسيس كل منها وعوامل تطور عمارتها ونمط عمرانها كمدن صحراوية و خصوصية كل منها التي تميزها عن الآخرين ومظاهر الشبه والاختلاف بينها..

كان الفصل الرابع عبارة عن دراسة وصفية لنماذج من العماائر الدينية التي ظلت إلى وقت قريب شاهدا على الخصوصية المعمارية التي ميزت المنطقة خاصة الجوامع و الزوايا، فالمساجد الجامعة عادة ما تمثل مركز المدينة أو القرية ومراة تعكس نمط الحياة الاجتماعية لسكانها أما الزوايا فكانت تمثل التأثير الروحي والمعنوي لتلك البلاد.

تضمن الفصل الخامس دراسة لأشكال العمارة المدنية في عموم منطقة سوف، وأهمها عمارة المساكن كمحاولة لفهم مراحل التمدن لإنسان المنطقة ومعرفة تطور نمط المعيشة من خلال دراسة تحليلية و وصفية لعناصر المسكن التقليدي أو الحُوش السُوفي من أجل وضع تصور لكيفية تعامل سكان المنطقة مع الطبيعة الصحراوية. كما تشكل الأسواق مظهرا من مظاهر التمدن و نظرا لدور المنطقة في حركة التجارة الإقليمية كان لزاما الإشارة إلى أسواقها التي اكتسبت أهمية خاصة باعتبارها ضرورية لحياة السكان للتواصل مع العالم الخارجي.

ونظرا لغلبة النشاط الفلاحي على حياة السكان، برزت ظاهرة الغوط كنموذج فريد للعمارة المدنية اقتصر على بلاد سوف دون سواها من الإقليم الصحراوي. فقد شغل الغوط القسط الأكبر من حياة السكان وما يتطلب إنجازَه من أعمال حفر وغرسة النخيل لتصير منتجة ثم أعمال الصيانة الدورية ومقاومة الرمال حتى كان انتشار الغيطان أكثر من انتشار المساكن وعُدَّ ذلك من أهم منجزات إنسان المنطقة

كما حذيت العمارة الدفاعية بجزء من الدراسة فهي لم تكن ذات شأن في بلاد سوف فكانت الإشارة إلى المثال الوحيد الذي ذكرته بعض المصادر الكتابية والشفهية سور حاضرة الوادي من أجل إعطاء فكرة عن ظروف تأسيسه ومخططه وشكل عمارته.

أما في الفصل السادس وبما أن موضوع الدراسة يتعلق بالعمارة والعمران، فكان من الضروري تخصيصه للحديث عن مواد البناء وتقنياتها لمعرفة الخبرات التي أمتلكها إنسان المنطقة في هذا المجال وكيف استطاع أن يستغل ما أُتيح له من مواد محلية خام ويوظفها في عملية العمارة والتعمير وكيف تمكن من توسيع معارفه وتطوير تقنياته حتى بلغ درجة الرفاهية ودخل في مجال الزخرفة وتقنياتها، وكيف أستطاع أن يحقق كل ذلك بشكل يتلائم مع البيئة و يتوافق مع المشرع ويُخرج لنا نموذجا متميزا من العمارة التقليدية الصحراوية .

وفي خاتمة هذا البحث تم حوصلة أهم النتائج المتوصل إليها والتي يمكن أن تكون فيها بعض الإجابة عن إشكالية الدراسة خاصة ظروف عمران منطقة سوف وشكل عمارتها كإقليم من الجنوب الجزائري

هذا والله أعلم والى التوفيق وهو خير الساعدين

الفصل الأول: المُعطيات الجغرافية والتاريخية

أولاً: المُعطيات الجغرافية.

1. الموقع .
2. الخصائص الطبيعية .

ثانياً: المُعطيات التاريخية

1. أصل التسمية ودلالاتها.
2. ظروف التعمير.

أولاً: المُعطيات الجغرافية:

1. موقع وادي سوف:

تقع منطقة وادي سوف في الجنوب الشرقي من القطر الجزائري، ما بين خطي عرض 31° و 34° شمالاً على امتداد نحو 620 كلم، وما بين خطي طول 6° و 8° شرق خط غرينيتش على مسافة 160 كلم تقريباً¹. وتحدها جغرافياً من الشمال جبال الأوراس (النمامشة) الممتدة على خط نقرين² و الزّاب الشرقي³، ومن الغرب واحات وادي ريغ، ومن الجنوب كثبان العرق الشرقي الكبير الممتدة إلى هضاب الطاسيلي، ومن الشرق بلاد الجريد التونسية⁴، مما جعلها منطقة منعزلة على شكل مثلث بين الأقطار الثلاث: الجزائر - تونس - ليبيا.

كانت المنطقة مع بداية الاستقلال تتبع عمّالة الواحات وعاصمتها ورقلة منذ 1963 ثم ضُمَّت إلى ولاية بسكرة سنة 1974، وصارت ولاية منذ التقسيم الإداري لسنة 1984⁵، تحدها من الشمال ولايات تبسة، خنشلة وبسكرة، و من الغرب ولايات

¹ PAUL P., La position géographique d'El Oued (Souf), La géographie, B.S.G.A, Tome XII, Paris 1905, p.29

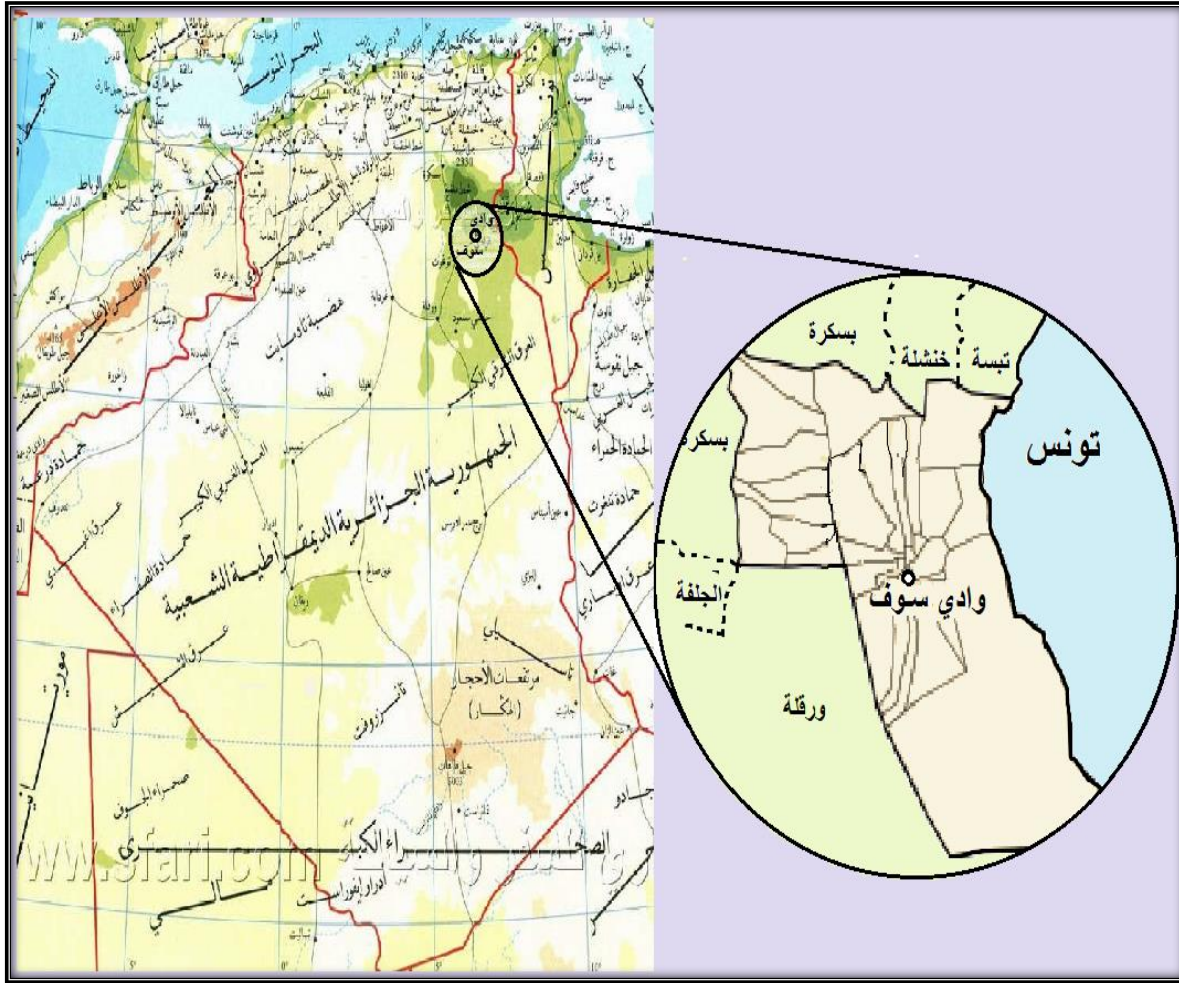
² نقرين بلدية تقع جنوب ولاية تبسة و تبعد عنها بحوالي 150 كلم واسمها من النقر أي بئر الماء جمعها نقرين بالامازيغية، يحدها من الشمال دائرة بئر العاتر و تلمجان و من الشرق الحدود التونسية و من الجنوب بلدية بن قشة ولاية الوادي ومن الغرب فركان ولاية خنشلة، مشهورة بآثارها هنشير البشرياني على خط الليمس الروماني.

³ الزاب الشرقي هو جزء من إقليم الزيبان وقاعدته بسكرة ويتكون من قرى سدي عقبة، خنقة سيدي ناجي، الدروع وسيدي خليل. أنظر: إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، م.و.ك. الجزائر 1983، ص. 143.

⁴ تمتد بلاد الجريد من تخوم بسكرة إلى جزيرة جربة ومنها مدينتا توزر وقفصه وهي بلاد شديدة الحرارة وقلما ينزل فيها المطر، تنتج كميات كبيرة من التمر الجيد ولهذا يسمّى الإقليم كله بالجريد أي بلاد التمر. أنظر: مارمول كربخال، إفريقيا، تر. محمد حجي و محمد الأخضر وغيرهما، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط 1984، ج3، ص. 170.

⁵ صارت وادي سوف ولاية منذ التقسيم الإداري لسنة 1984 وفق القانون رقم 84-09 المؤرخ في 2 جمادى الأولى 1404هـ/4 فبراير سنة 1984، الجريدة الرسمية للجمهورية الجزائرية العدد 6.

بسكرة، الجلفة و ورقلة ومن الجنوب ولاية ورقلة، ومن الشرق الحدود الدولية المشتركة مع الجمهورية التونسية، وتبعد ولاية الوادي عن مدينة الجزائر العاصمة بنحو 600 كلم. (الشكل:01)



(الشكل رقم: 01) موقع ولاية الوادي (39) من الجمهورية الجزائرية

عن موقع : سوف نت بتصرف

ظهرت منطقة سوف قديما موعلة في عمق العرق الشرقي الكبير وعند تقاطع محاور طرق القوافل القادمة من بلاد الجريد التونسية في الشرق إلى منطقة وارجلان¹ وإقليم توات² في الغرب، والقادمة من إقليم الزاب³ في الشمال باتجاه غدامس⁴ وبلاد السودان في الجنوب ، وبذلك فهي تمتد بين بلاد الزَّيْبَان (م. الزَّاب) و النمامشة⁵ شمالا، وعلى طول الحدود التونسية من نفطة ونفزاوة ، مروراً بالبئر الجديد شرقاً⁶، و واحات غدامس جنوباً، إلى إقليم وادي ريغ و وارجلان غرباً⁷.

¹ وارجلان: كورة بين إفريقية وبلاد الجريد ضاربة في البر كثيرة النخل يسكنها قوم من البربر أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت 1977، ح.5، ص.371 كما سماها الوزان " وركلة " وقال أنها مدينة أزلية بناها النوميديون في الصحراء، لها سور من الأجر النقي و يوجد في ضواحيها قصور وعدد لا يحصى من القرى، أنظر : الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر. محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت ط.2. 1983، ص.136.

² إقليم توات مجموعة من الواحات الجزائرية في الجنوب الغربي تنقسم إلى ثلاث مناطق متميزة هي: تنجورارين وتديكلت وتوات، هذه الأخيرة تمثل مقاطعة توات الأصلية وتتكون من أهم قصورها : بودة، تيمي، تمنطيط، زاوية كنته ورقان. أنظر: محمد الصالح حوتية، توات و الأزواد، دار الكتاب العربي الجزائر 2007، ج.1، ص.28.

³ الزَّاب لغة من زاب الشيء إذا جرى ويقال عامٌّ أَرَبُ أي مُخَصَّبٌ أنظر: الفيروزأبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، تح.محمد نعيم العرقسوسي، ط.6، دمشق، 1998، ص.92. وأصطلاحاً هو مدن كثيرة وعماير متصلة فيها المياه السائحة والأنهار والعيون، ومن مدنها المسيلة ونقاوس وطبنة وبسكرة... وبين الزاب والقيروان عشر مراحل. أنظر: محمد الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح. إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت، ط.2- 1984، ص.281.

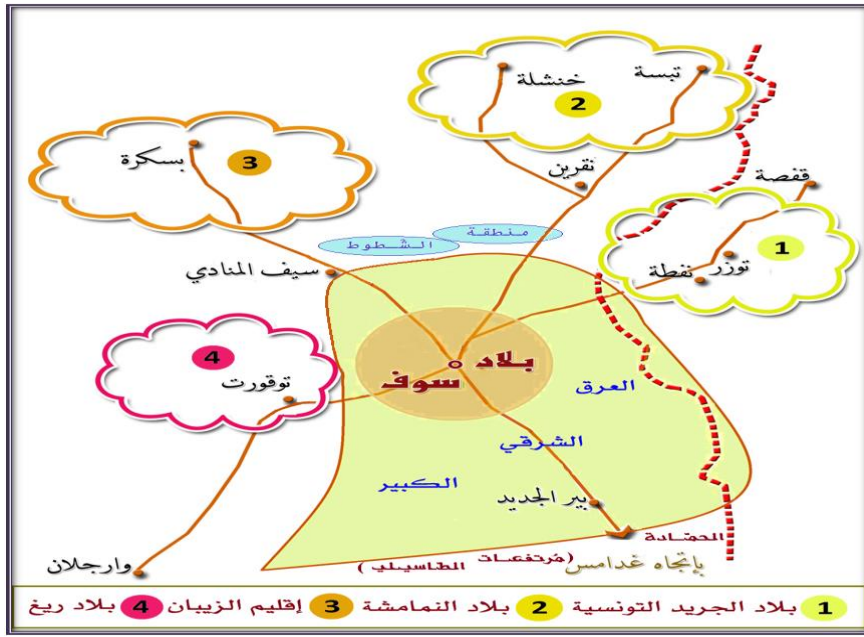
⁴ غدامس مدينة لطيفة قديمة في الصحراء على سبعة أيام من جبل نفوسة ، تبعد جنوباً عن البحر المتوسط بنحو مائة فرسخ، وتشكل ثروات الأهالي من التمر والأموال لأنهم يتجرون مع بلاد السودان. أنظر: محمد الحميري، نفس المصدر، ص.427. وأنظر: مارمول كربخال، نفس المصدر، ج.3، ص.173.

⁵ بلاد النمامشة تشكل القسم الشرقي من جبال الأوراس وهم بطن عظيم من الشاوية من قبيلة هواره البربرية يتمركزون خاصة ما بين تبسة و خنشلة يُطلق عليهم أيضا اللّمامشة (م.لموشي).

⁶ Tomas Marc-Ropert, Sahara et communaut é presses universitaires de France, 1ed, Paris 1960, p.37 .

⁷ إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية للنشر، تونس 1977، ص.37، أنظر كذلك: إبراهيم مياشي، "من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة" مجلة الثقافة، عدد 13، الجزائر 1996، ص.194.

نلاحظ من خلال المخطط أن منطقة وادي سوف تبدو محصنة طبيعياً فهي عبارة عن مسطح شبه دائري يتمركز على التخوم الشمالية للعرق الشرقي و تحيطه الكثبان من كل جانب والتي تزداد ارتفاعاً ناحية الجنوب حيث نجد الغرود العالية¹ و تحدها السبخا² والشطوط² من الشمال على هيئة هلال، وهي شط وادي ريغ من الغرب و شط مروان و شط ملغيغ و شطّي الغرسة من الشمال و شط الجريد من الشرق بالجنوب التونسي. (الشكل: 02)



(الشكل رقم: 02) مخطط لموقع وادي سوف وسط العرق الشرقي الكبير

من عمل الطالب

¹ الغرود (م. غُرد) مصطلح عربي محلي يطلق على الكثبان الرملية المنعزلة أو الهرمية قد يفوق علو بعضها الـ100متر أنظر: بيار جورج، معجم المصطلحات الجغرافية، تر. حمد الطفيلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان، ط.2- 2002، ص.667.

² سبخا (م. سبخة) Sebka مصطلح في علم المياه يدل على قاع حفرة مغلقة خالية من النبات، تتميز بظهور تكونات ملحية على السطح خلال فترة الجفاف، تكون أطرافها مغطاة بأعشاب قصيرة مُشكّلة منطقة مراعي وتعرف بالشطوط Chotts. أنظر: بيار جورج، المرجع السابق، ص.446.

2. الخصائص الطبيعية:

1.2. التضاريس :

تلعب التضاريس دورا هاما في توجيه و تجانس النسيج العمراني و مد المنشآت التحتية إذ تعد المتحكم الرئيسي في تحديده . وتُعدُّ أراضي منطقة سوف مسطحة عموما يغلب عليها الانبساط وقلّة الانحدار، ومكسوة غالبا بطبقة رخوة من الكثبان الرملية يُقدَّر متوسط ارتفاعها بنحو 80 مترا فوق سطح البحر¹، لكون المنطقة تقع في الطرف الشمالي من العرق الشرقي الكبير كما سبق ذكره آنفاً.

تتميز منطقة وادي سوف بمظاهر طبيعية ناتجة عن عملية الترسيب الريحي ممثلة في سلاسل من الكثبان الرملية التي يفوق ارتفاع بعضها 100 متر فوق سطح البحر، في حين نجد مناطق أخرى تتميز بالانبساط تسمى محليا بالصحن والتي تنتشر بكثرة في الجهة الشمالية من وادي سوف، خاصة في جهات الرّقيبة، قمار و حاسي خليفة، و يقدر ارتفاعها بنحو 60 متراً فوق سطح البحر.

عموما يمكن أن نميز في وادي سوف ثلاثة أنواع من التُّرب وهي:

- النوع الأول: تربة الصُّحون (مفرد الصحن) هي المساحة الشاسعة المستوية من الأرض تكون طبيعة تربتها خشنة متفاوتة بين حبيبات الرمل الدقيقة والحصى و الحجارة الصغيرة، غالبا ما تتواجد تحتها طبقات من اللّوس أو الحجارة الكلسية لذلك فهي قليلة الإنبات تُعرف في جهات أخرى بالبطحاء².

¹ Voisin Andr éRoger, Le Souf monographie, imprimerie El-walid éditions, EL-OUED 2004, p.24.

² البطحاء (ج.بطاح) وهو المتسع من الأرض المغطى بالحصى أنظر: أبن منظور، لسان العرب ، دار المعارف القاهرة

- النوع الثاني: الأرض الحُرَّة و هي مناطق ذات تربة رملية ناعمة متوازنة الحبيبات، رَخْوَة تكاد تنعدم بها الطبقات الصلبة من اللُّوس أو الحجارة الكلسية، وإن وُجدت تكون على مستويات بعيدة عن السطح، وقريبة من الطبقة المائية العذبة (نسبياً) وذلك ما يدفع للاعتقاد أنها من بقايا المجرى القديم لوادي سوف والذي طمرته الرمال لذلك كان يفضل أهل سوف الأوائل حفر الغيطان و غراسة نخيلهم في هذه المناطق المحيطة بالحواضر القديمة .

- النوع الثالث: تربة السِّبَاخ وهي أراضي ذات تربة مالحة بسبب صعود المياه الجوفية المالحة خلال الفترة المطيرة لذلك فهي غير صالحة للزراعة و إن صَلَحَتْ فمردودها الإنتاجي من التمور أو الخضراوات ضعيف ورديء، والسبخة تكون بين الصحن والحُرَّة.

و يغلب على المنطقة مظهرين للتضاريس هما:

أ- مظهر الرمال: الذي يغلب على معظم سطح وادي سوف لأن المنطقة تنتمي للعرق الشرقي الكبير حيث يترسب الرمل بفعل الرياح في شكل كثبان تحتل ثلاثة أرباع $\frac{3}{4}$ مساحة منطقة سوف و نادرا ما تكون كثبان العرق متراسة حيث تتخللها في غالب الأحيان أروقة مستوية تعرف محليا بالقاسي.

تحيط الكثبان الرملية بكل مدن و قرى وادي سُوف وتأخذ في الارتفاع ناحية الجنوب، فنجد المنطقة محصورة بين خطين من الكثبان الرملية اتجاهاهما شرق غرب.

- الخط الأول: يوجد في الشمال و هو خط ارتفاع الخمسين (50 متر).

- الخط الثاني : يوجد في الجنوب و هو خط المائة (100متر)، حيث يزيد ارتفاع الكثبان كلما توغلنا جنوبا في العرق حتى يصل علو إحداها 127 متر فوق سطح

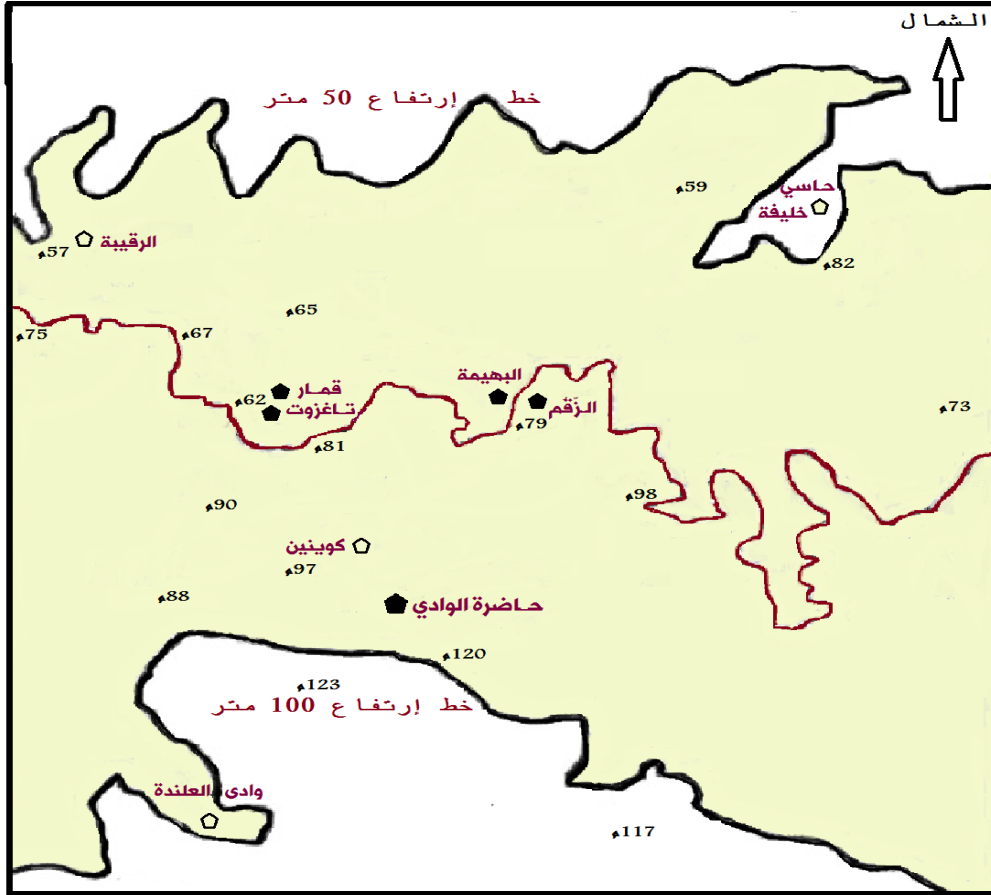
البحر و يعرف بخط الغرود و يبعد بنحو 2 كلم عن قرية أعميش¹ جنوب الربّاح² على طريق القوافل المؤدي إلى غدامس الليبية. ويتوسط الخطين الشمالي والجنوبي خط ثالث يجمع نقاط 75 متر. (الشكل: 03)

ب- مظهر الشطوط والمنخفضات الذي يمتد إلى الشمال من منطقة سوف حتى السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي (الأوراس)، أهمها شطوط عسلوج، مَلْغِغ و مَرَوَان، يُعد هذا الأخير أخفض منطقة في الجزائر بنحو 36 م دون مستوى سطح البحر. و يمكن أن نشاهد في هذه الجهة خاصة على الطريق نحو بلاد النّمامشة والزيّبان بعض الهضاب الصحراوية (الحّمّادات)³.

¹ قرية أعميش تقع على مسافة يوم من حاضرة الوادي وكانت أول قرى سوف على طريق القوافل القادم من غدامس و تعتبر الحد الجنوبي لمنطقة سوف. أنظر: أبو القاسم يعد الله ، مجموع رحلات " رحلة الأغواطي " المعرفة الدولية للنشر والتوزيع الجزائر 2011 ، ص. 96

² الربّاح إحدى بلديات وادي سوف تبعد عن مقر الولاية جنوبا بـ 10 كم ، كانت قديما من ضمن قرى أعميش ونظرا لكونها أرضا منبسطة كثيرة المرعى فقد عرفت خلال القرن 20م توافد أعراش من طرود والشعانية . وذكر العياشي أنها تبعد عن بلد الوادي بنصف مرحلة. أنظر: عبد الله العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، تح. سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، دار السويدي للنشر أبوظبي، ط. 1- 2006 ، مج. 1، ص. 123.

³ الحّمّادات مفرد حمّادة مصطلح جغرافي يطلق على التّوء الصخري وسط الرمال وهو نوع من الهضاب الصحراوية.



(الشكل رقم: 03) مخطط طبوغرافي يمثل مستوى ارتفاع أرض سوف عن سطح

البحر

عن Voisin A.: بتصريف

2.2. الجيولوجيا:

يُثبت التحليل الجيوتقني للتكوينات الجيولوجية السطحية لأرض منطقة وادي سُوف أنها طمرت بالكثبان الرملية خلال الزمن الجيولوجي الرابع¹ القاري .

و من خلال تصفح الخريطة الجيولوجية لمنطقة سُوف يُلاحظ ما يلي:

- غالبا ما نجد في الأعلى طبقة لينة من الترسبة، تظهر في شكل من بلورات دقيقة تعطي مظهرا صلصاليا(خزيا)، تُستغل عادة في صناعة الجبس و تكون أقل عُمقا، و تربتها تكون مُعرّضة للسحق في الصحون كونها على السطح .
- يوجد أسفل الترسبة طبقة من الرمل الدقيق تُغطّي طبقة حجارة اللّوس(الحزام) التي تشكّلت من تراكم بلورات الحديد ذات رؤوس، ويمكن أن يكون الحزام على شكل طبقات متراسة(ترسبات) قد يصل سُمكها إلى 8 أمتار تقريبا، أو في شكل أقنية (خطوط) مختلطة مع الرمل، أو طبقات منعزلة أو أعمدة تشكلت حول جذور جبسيه قديمة. تُعد حجارة اللّوس أساسية في البناء فكل عمائر وادي سوف أنجزت بها.
- نجد في المستوى الثالث الحوض المائي الذي عادةً ما تعلوه طبقة الصلصلة² أو السّميدة³ على شكل صفائح متراسة في شكل طبقات صلبة مشكلة من بلورات الحديد أكثر دقةً من اللّوس¹.

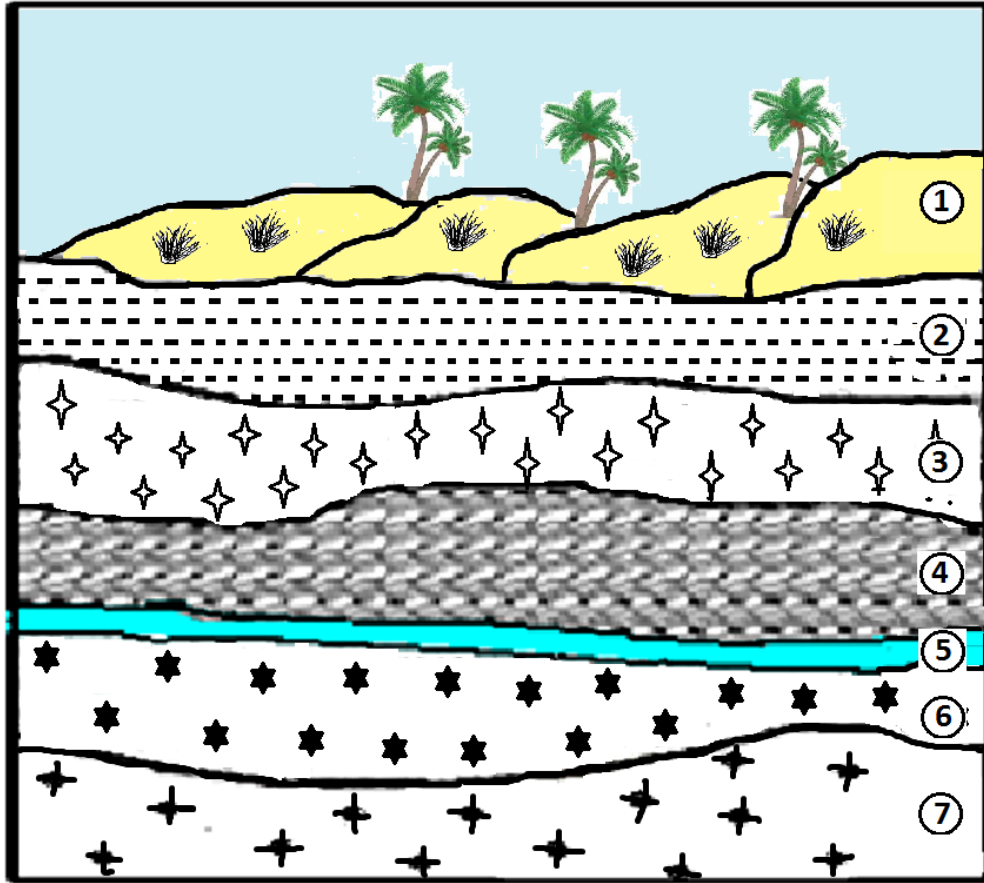
¹ قسم علماء التاريخ الطبيعي عمر الأرض إلى أربعة أحقاب زمنية رئيسية كبرى تبدأ من نحو 4600 مليون سنة، تمتد كل حقبة لمئات الملايين من السنين، وتتميز كل منها بظواهر طبيعية ومناخية وتضاريسية وآخرها الزمن الجيولوجي الرابع الذي بدأ منذ 1.8 مليون سنة. أنظر: عبد الجليل هويدي، أساسيات الجيولوجيا التاريخية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 2003، ص.235.

² طبقة الصلصلة، هي طبقة صخرية ذات مكونات معدنية تكون في شكل صفائح تشكلت من تصلب الطين لدرجة أن تكون غير قابلة لامتصاص الماء. أنظر: بيار جوّج، نفس المرجع، ص.505.

³ السّميدة: كناية عن الجزء المتصلب من سطح الأرض بفعل الجفاف والضغط .

- نجد أخيرا طبقة التآفة أو حجر الجبس، و هو حجر مترسب أبيض كلسي، صلب نوعا ما، و بعد قلعه يُحرق للحصول على جبس البناء.

الملاحظ أن هذه التشكيلات الجيولوجية لها تأثير مباشر على هيدرولوجية المياه في المنطقة (الشكل: 04)



1- كتبان رملية 2- رمال وترشة 3- طبقة حجارة اللوس 4- طبقة حجارة التآفة
5- طبقة الصلصلة 6- رمل ذو مكونات معدنية 7- الحوض المائي

(الشكل رقم: 04) طبقات التربة والصخور في منطقة وادي سوف

عن: مديرية المناجم والطاقة لولاية الوادي

¹ Bataillon, cl. Le Souf, Etude de géographie humaine, I.R.S.E, Abert Imprimeur, Alger 1955, p.20.

3.2. الهيدروغرافيا¹ :

تظهر الدراسات الهيدروغرافية² التي قامت بها منظمة اليونسكو سنة 1972م للمنطقة بالإضافة إلى عمليات التنقيب التي تمت بأشراف الوكالة الوطنية للموارد المائية، أن منطقة وادي سوف تقع ضمن جغرافية الصحراء المنخفضة التي تتشكل من حوض هيدرو- جيولوجي شاسع تقدر مساحته بـ 780.000 كلم² والذي يستوعب أكبر احتياطي للمياه الجوفية في العالم مُشكّل من ثلاثة طبقات مائية متناوبة بأعماق مختلفة وهي :

- الطبقة الجوفية السطحية:

هي طبقة مياه حُرّة غير ارتوازية³ كان استخراجها يتم عضليا بواسطة الوسائل التقليدية كالخُطّارة و الدّلو ثم صارت تستخرج بعمليات الضخ بواسطة المحركات الحديثة، يبلغ عمقها ما بين (10 - 60 م)، تربتها مُشكّلة من الملح و الرمل و بعض الجبس، مياهها ذات نوعية متباينة من منطقة لأخرى. كانت هذه الطبقة إلى وقت قريب تمثل المصدر الأساسي لري غيطان النخيل التقليدية (البعلي)⁴ قبل تعرضها للتلوث مؤخرا بفعل اختلاطها بالمياه القذرة الصاعدة إلى سطح التربة في المنطقة والتي نتجت بسبب لجوء السكان إلى استغلال الآبار المهمة أو حفر أخرى لتصريف المياه

¹ الهيدروغرافيا (Hydrographie) علم وصف المياه يهتم بجغرافية المياه من حيث توزيعها وحدودها وأعماقها يقوم على التحليل العلمي للظروف الفيزيائية والحدود وكمية التدفق للمياه السطحية أو الباطنية.

² كل المعلومات الواردة مستقاة من تقرير للوكالة الوطنية للموارد المائية (ANRH) 1993. فرع ورقلة.

³ بئر ارتوازية أي أن مياهها تخرج تلقائيا بسبب الضغط الداخلي الناتج عن العمق و الحرارة.

⁴ البعلي: البعل من النخل ما شرب بعروقه من غير سقي ولا ماء سماء، وهي طريقة تقليدية لسقي النخيل تقوم على غرس الفسائل في مستوى قريب من الحوض المائي (السماط السطحي) حتى تصل الجذور إليها دون الحاجة لسقيها. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مج. 1، ص. 315.

القدرة فيها نظرا لعدم توفر مدن وقرى وادي سوف على شبكة لقنوات الصرف الصحي الحضري، ما تسبب في كارثة إيكولوجية ظهرت آثارها في ثمانينات القرن الماضي متمثلة في ارتفاع منسوب تلك المياه خاصة في غيطان النخيل ما أدى إلى إتلاف الآلاف من النخيل المنتجة .

- الطبقة الجوفية الداخلية:

هي طبقة مائية محبوسة على عمق ما بين (250 - 500م) مشكلة من رمل متوسط خشن و حصى وطين جبسي، مياهها أقل ملوحة من الأولى وهي الأكثر استغلالا اليوم سواء للشرب أو لغرض السقي.

- الطبقة الألبية:

هي الطبقة القارية التي تشكل الاحتياطي الأضخم للمياه في شمال الصحراء يتراوح عمقها ما بين (1800 - 2000م)¹، وهي طبقة ارتوازية حيث يصل ضغط تدفق مياهها بـ 23 بار² أي ما يعادل 250 ل/ ثا لذلك تكون مياهها حارة بدرجة ما بين 40-60°م . (الشكل: 05)

¹ مديرية التعمير لبلدية الوادي: المخطط الرئيسي للتهيئة والتعمير 2006

² بار Bar: وحدة قياس للضغط، وتساوي تقريبا مقدار 1 ضغط جوي عادي عند سطح البحر، واحد بار = 1.097 كجم/سم

المقطع	المكونات الهيدروجينية	المكونات الصخرية	الطبقة / العصر	الزمن الجيولوجي
0 م	الطبقة المائية السطحية	رمل		الزمن الرابع
السماط السطحي		طين		
	طبقة غير نفوذة			
	طبقة رمليّة نفوذة	رمل	ميو بليوسان	
470 م	طبقة نصف نفوذة	طين جبسي		
السماط الميو-بليوساني	طبقة رمليّة نفوذة ثانية	رمل ، جبس حجر رملي	علوي	
	طبقة غير نفوذة	طين	أوسط	
800 م	الطبقة الكلسية النفوذة	دولميت و كلس	أسفل	
	طبقة نصف نفوذة	متبخرات وطين بحيري	سينونيان	
	طبقة غير نفوذة	طين ومارن	سينو-مائيان	
السماط الألبّي	الطبقة الألبية النفوذة	رمل، حجر رملي	الألبان	

(الشكل رقم: 05) مخطط يوضح الطبقات الجيو. هيدروغرافية لمنطقة وادي سوف

حسب مراحل تشكلها

المصدر: الوكالة الوطنية للموارد المائية (ANRH) 1993.

4.2. المناخ:

يؤثر المناخ على المنطقة سواء من الجانب الاقتصادي، العمراني أو فيما يخص الغطاء النباتي. فمن المعروف أن درجات الحرارة المرتفعة تؤثر على مردود النشاط الإنساني فكثيرا ما تعاني الدول ذات المناخ الحار من ضعف مردود العمالة لديها فنجد الغالبية منها مصنفة من ضمن الدول المتخلفة خاصة في إفريقيا. كما يؤثر المناخ على النمط العمراني للمنطقة، فغالبا ما تلجأ المجتمعات التقليدية إلى ابتكار تقنيات واستعمال مواد بناء تتلائم وطبيعة المناخ، ويؤثر المناخ أيضا على طبيعة الغطاء النباتي لذلك تتميز البيئات الجافة بقلة الإنبات لذلك عادة ما تنمو النباتات الإبرية والأشجار طويلة الجذور.

تتنسب منطقة سوف إلى إقليم الواحات¹، فهي تقع في وسط العرق الشرقي الكبير، وتبعد عن سواحل البحر المتوسط من الشمال بـ 390 كلم (سكيكدة) ومن الشرق بـ 305 كلم (خليج قابس/ج. التونسية) ومعدل ارتفاعها يقدر بـ 75 م عن مستوى سطح البحر ما جعلها تتميز بطابع المناخ الصحراوي ولهذا فإنه يجدر بنا أن ندرس عناصر المناخ كل على حدة، بناءً على معطيات محطة الرصد الجوي بمطار قمار.

أ- الحرارة: ²

تُمثل الشمس المصدر الأول لحرارة الأرض، التي تصلها في شكل حزم إشعاعية وموجات مختلفة الأطوال يمتص بعضها الغلاف الجوي وتصل البقية إلى سطحها، وتُعد الحرارة أهم عناصر المناخ لأنها تؤثر في باقي العناصر و تتحكم في توزيع الحياة على

¹ سبق وأن ذكرنا في المدخل الجغرافي أن منطقة وادي سوف في العهد الاستعماري وبعد الاستقلال كانت تتبع إداريا عمالة الواحات ومقرها تقرت ، والواحة هي منطقة خصبة ذات نبت حي في الصحراء، حيث تكون المياه الجوفية على مسافة قريبة بشكل كافٍ من السطح.

² صلاح الدين بحيري، مبادئ الجغرافيا الطبيعية، دار الفكر دمشق، ط.2- 1996، ص.207.

سطح الأرض، نظرا لطبيعة المنطقة الصحراوية فإن الحرارة دورا بارزا في النشاط الفلاحي للمنطقة خاصة في مجال غراسة النخيل وإنتاج التمور.

نلاحظ من خلال الجدول الموالي أن أقصى درجة حرارة سجلت في شهر أوت بـ 40.54°م وأدنى درجة سُجلت في شهر جانفي بـ 5.15°م حيث نلاحظ أن الفارق الحراري بينهما كبير تجاوز 35°م ، ويقدر المتوسط السنوي بـ 22°م .

كما نلاحظ أيضا تباين واضح في درجات الحرارة بين الليل والنهار والذي يعود بالأساس إلى الطبيعة المسامية للتربة الرملية، فمهما ارتفعت درجة حرارتها في النهار صيفاً فإنها سرعان ما تتبرد ليلاً، كما أن درجات الحرارة في فصل الشتاء قد تنخفض إلى ما دون درجة التجمد خاصة في الليالي البيض¹ حيث تكسو طبقة من الجليد الشفاف وجه الأرض².

(الجدول: 01)

¹ الليالي البيض مصطلح يستعمل في التقويم الفلاحي للدلالة على فترة تبدأ يوم 25 ديسمبر وتنتهي في 13 جانفي، يكون الطقس فيها شديد البرودة في الليل و دافئا في النهار، سميت بذلك لقلة وجود السحب والغيوم فيها، وتليها الليالي السود و تبدأ من 14 جانفي وتنتهي في 02 فبراير من كل سنة، يكون فيها الطقس شديد البرودة في النهار و دافئا في الليل، سميت بذلك لكثرة وجود السحب والغيوم فيها. و يقال عند دخولها « في الليالي السود ايفتَح كل عود » كناية عن بداية الموسم الفلاحي.

² Lutaud CH . Exposé de la situation générale de territoire du sud .typographie Adolphe ,Jordan 1908, p.158.

الأشهر	الحرارة القصوى	الحرارة الوسطى	الحرارة الدنيا
جانفي	16,78	10,96	5,15
فيفري	19,48	13,22	6,96
مارس	22,69	16,39	10,1
أفريل	27,09	20,55	14,01
ماي	32,12	25,33	18,54
جوان	37,76	30,54	23,33
جويلية	40,46	33,02	25,59
أوت	40,54	33,37	26,21
سبتمبر	35,44	29,03	22,62
أكتوبر	29,08	22,94	16,86
نوفمبر	22,35	16,56	10,77
ديسمبر	17,46	11,83	6,21

(الجدول رقم: 01) التغيرات الشهرية لدرجات الحرارة ما بين 1995-2011

المصدر: O.N.M. قمار 2011.

ب- التساقط¹:

التساقط هو نزول بخار الماء المُتكاثف في الغيوم إلى سطح الأرض بأشكال مختلفة كالمطر أو الثلج أو البرَد..إلخ .

تتميز منطقة وادي سوف بصفة عامة بنقص كبير في كمية التساقط، حيث عادة ما تسقط الأمطار ما بين شهري أكتوبر و مارس في شكل أمطار دقيقة و خفيفة وكثيرا ما تكون فجائية في شكل أمطار رعدية غزيرة قد تؤدي إلى كوارث طبيعية مثل ما حصل في خريف 1969 وعرفت تلك الكارثة بعام الخُمُوري لأن الأمطار تسببت في تعفن التمر وتلف المحصول قبل جَنِّهِ كما لحقت أضرارا كبيرة بمنازل السكان والمحاصيل الزراعية الأخرى. (الجدول: 02)

يمكن أن نتبين من خلال الجدول أن أكبر كمية تساقط سجلت في شهر جانفي 13.03 ملم، وأقل قيمة في شهر جويلية 0.26 ملم. و ما يمكن ملاحظته أن وادي سوف تعتبر منطقة جافة، و قد يمتد الجفاف طيلة السنة بما فيها فصل الشتاء.

الأشهر	جانفي	فيفري	مارس	أفريل	ماي	جوان	جويلية	أوت	سبتمبر	أكتوبر	نوفمبر	ديسمبر
التساقط (ملم)	13.03	6.32	7.65	6.86	5.07	1.5	0.26	2.12	5.74	7.39	8.0	7.2

(الجدول رقم: 02) معدلات التساقط حسب الأشهر ما بين 1995- 2011

المصدر: O.N.M محطة مطار قمار

¹ صلاح الدين بحيري، نفس المرجع ، ص.250

ج- الرياح :

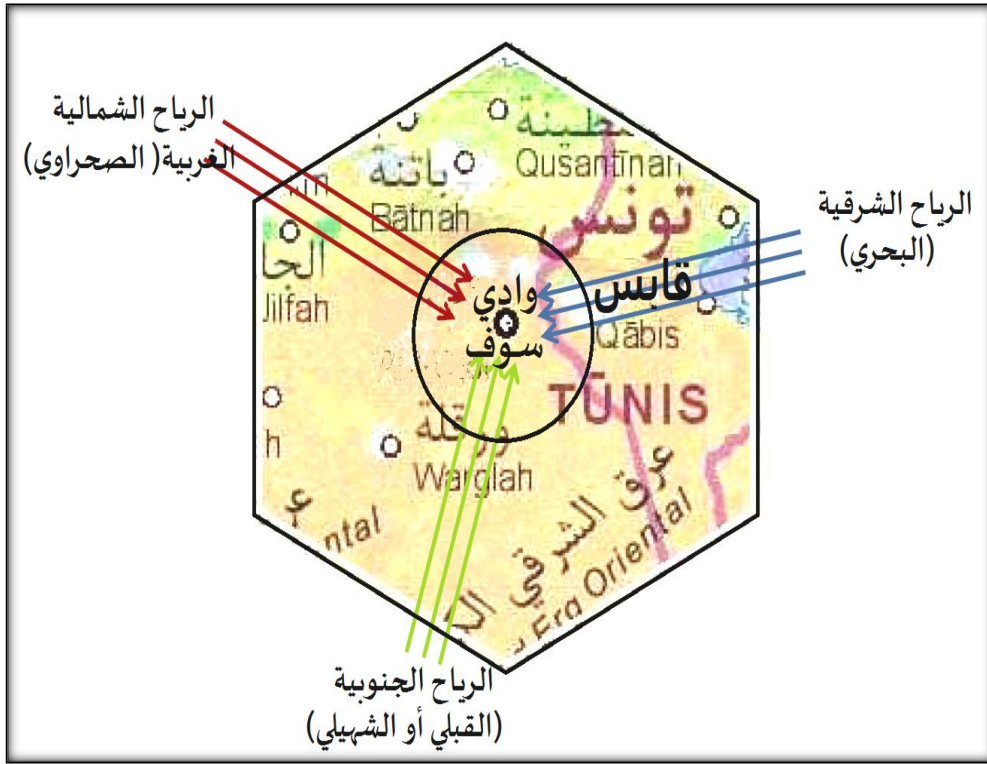
تتشكل الرياح بسبب حركة الهواء أفقيا في محيط الكرة الأرضية وكلما كانت قريبا من الأرض زاد احتكاكها بسطح الأرض فتعمل على حت الأتربة وحببيبات الرمل ورفعها ونقلها لأماكن أخرى لترسبها، وكلما كان سطح الأرض جافا أو مكشوفاً، زادت قدرة الرياح على حمل الأتربة وخاصة في المناطق الصحراوية¹.

تلعب الرياح دورا بارزا في حياة سكان منطقة سوف فهي تقوم بنقل الأتربة وترسيبها لتشكيل الكثبان الرملية ونقلها، كما تتسبب في ردم غيطان النخيل وإلحاق الأضرار بالمحاصيل الفلاحية، و تتعرض المنطقة إلى هبوب رياح نشطة على مدار السنة تقريبا و منها:

- الرياح الشرقية : تتعرض المنطقة لهبوب رياح موسمية شرقية في فصلي الربيع والخريف عادة ما تكون رطبة و باردة ، تُعرف أحيانا بالبحري فهي تنسب للبحر المتوسط جهة قدومها من الشرق بالضبط من منطقة خليج قابس على الساحل التونسي. لأنها تساهم في التخفيف من درجة حرارة الطقس خاصة في الصيف، لكنها قد تكون قوية محملة بالأتربة فتكون ضارة للنباتات إذا طالت مدة هبوبها.
- الرياح الغربية التي تعرف محليا بالصحراوي وهي رياح رملية تتراوح سرعتها ما بين 35 و 50 كلم / ساعة فهي ذات سرعة كبيرة ، تهب في فصل الربيع ، وقد تأخذ الاتجاه (الشمالي- الغربي) وتعرف محليا بالظهراوي في الشتاء، عادة ما تكون باردة محملة بالأتربة، تعمل على دفن الغيطان بالرمال وقد تكون مصحوبة بأمطار وعواصف رعدية .

¹ صلاح الدين بحيري، نفسه، ص.129.

- الرياح الجنوبية المعروفة محليا بالقبلي إذا هبت في الشتاء وتكون معتدلة البرودة وجافة أما في الصيف فتسمى الشهيلى و تتراوح سرعتها ما بين 10 و17 كلم/ ساء، وتؤدي إلى زيادة حرارة الجو بدرجات كبيرة، ما يؤثر سلبا على المحاصيل الزراعية فقد تتسبب في تيبس التمور وهلاك شجيرات الخضر الموسمية. (الشكل: 06)



(الشكل رقم: 06) رسم توضيحي لأهم الرياح التي تهب على منطقة سوف

عن الطالب

بعد دراسة المعطيات الطبيعية والمناخية ، يمكن استخلاص مدى كثرة العوائق الطبيعية في هذه المنطقة، والخصائص الجغرافية التي لها تأثير مباشر على الوسط الاجتماعي والنمط العمراني* واستغلال الأرض والتي يمكن حصرها فيما يلي:

- قسوة المناخ الصحراوي وارتفاع درجات الحرارة ما قد يؤثر على حيوية النشاط البشري.

- قلة الرطوبة والجفاف ونشاط عملية التبخر بفعل الحرارة العالية ما يؤثر في نوعية وكثافة الغطاء النباتي .

- الحركة الدائمة للرياح و تركيبها للرمال في شكل كثبان ثابتة أو متحركة كان له تأثير سلبي على حركة تنقل الأشخاص والسلع وعملية التواصل مع الخارج.

- خلو المنطقة من التضاريس المرتفعة وغلبة طابع الانبساط على السطح.

- لقد ساعدت طبيعة البنية الجيولوجية الرخوة على ممارسة الزراعة في غيطان النخيل التي لا توجد إلا في منطقة سوف.

- وفرة المياه الجوفية على مستويات مختلفة ولكن أجودها الطبقة الألبية العميقة .

* سَوَفَ تَتَبِينْ ذَلِكَ أَكْثَرُ فِي الدَّرَاسَةِ العِمْرَانِيَّةِ لِلْمَدِينَةِ، الفَصْلُ الثَّالِثُ.

ثانيا: المعطيات التاريخية:

1. أصل التسمية ودلالاتها :

قبل التطرق لظروف التعمير البشري للمنطقة يجب الحديث أولا عن أصل تسمية وادي سوف حيث نلاحظ أن الاسم مركب من كلمتين "وادي" و"سوف" ولكل منهما دلالات تاريخية ولغوية يمكن شرحها فيما يلي.

تُعَدُّ بلدة سوف واحدةً من أقاليم الواحات الجزائرية والتي تتميز عن غيرها من تلك الأقاليم بخصائصها الجغرافية والبشرية، و قبل الغوص في عرض تاريخ الإقليم ، يجدر بنا أن نُعرِّف به ونحدد مفهوم المصطلح والتعرف على المعنى "الإيتيمولوجي"¹ لكلمة " وادي سوف " .

تختلف الروايات حول أصل اللفظة مع أن الكثير من الدلائل تشير أنها كلمة أمازيغية الأصل وتعني "النهر" أو الأرض المنخفضة على ضفاف الوادي في لغة زناته فعند مقارنتها بالكلمات البربرية القديمة آزوف (Isouf /Asouf) نجدها توافق معنى كلمة " وادي " كما أنها تلتقي مع اللهجة التارقية التي تعني " النهر الأبيض " كذلك إن علم اللسانيات يشير بأن كلمة الوادي بالعربية ترادفها بالأمازيغية كلمة سوف لهذا أدغمت كلمة الوادي مع سوف وأصبحت وادي سوف ،وهناك منطقة شمال عين صالح تعرف"بواد آسوف".²

¹ الإيتيمولوجي (Etymologie) كلمة لاتينية تفيد علم الاشتقاق والبحث في أصل الكلمات أي دراسة أصل الكلمات و تاريخها.

² Voisin A, le Souf, Monographie d'une région Saharienne, Imprimerie El-walid éditions, El-oued 2004, p.03.

و يُرجعُ بعض المؤرخين أصل التسمية إلى قبيلة " مسوفة " من صنهاجة البربرية و منهم بنو غانية الذين صالوا وجالوا في المنطقة أثناء حروبهم مع الموحيدين فقد ذكر ابن خلدون أنهم مروا بالمنطقة في طريقهم إلى الهقار باعتبارهم من أتباع المرابطين الملتزمين¹.

و يرى البعض أن التسمية ذات أصول عربية، حيث أن قبيلة طرود أصلها عربي قحّ، فحينما حلت بهذه النواحي قالت: " نسكن تلك السيوف " يقصدون الكتبان الرملية التي يكون شكل حافتها (حُرْفُها) حاد كشكل السيف، وفي القاموس العربي السُوفَة وجمعها سُوفٌ تعني الأرض بين الرمل و الجَلَدُ، و السَّائِفَة هي الرمل الدقيقة الناعمة²، ومن هنا أُشتق اسم سوف، لأنها أرض رملية وعندما تثير الريح الرمل تدعى " المسفسفة " ³ وهذا ما جعل أهل سوف يطلقون على الرمل مصطلح " السافي " .

ونجد أقدم من ذكر منطقة سوف بلفظة "أسوف" البربرية هم مؤرخو الإباضية على اعتبار أن المنطقة كانت تمثل الطريق الوحيد لمرورهم من بلاد الجريد أو إقليم طرابلس إلى وارجلان، ومنهم أبو زكريا يحيى المتوفى سنة 471هـ/1078م⁴، وأبو الربيع الوسياني في القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي⁵. ويعتبر كتاب الاستبصار في القرن السادس أقدم مصدر ذكر سوف كبلادة عامرة:

¹ عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، إعداد خليل شحادة، دار الفكر، بيروت 2000، المجلد 6، ص 256.

² ابن منظور، لسان العرب، مج. 3، ص 2153.

³ نفسه، مج. 3، ص 2030.

⁴ أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ج. 2، ص 250/244.

⁵ أبو الربيع الوسياني، سير مشايخ المغرب، تح. إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985، ج. 2، ص. 26 و 83.

وآخر بلاد الجريد مدينة درجين وهى مدينة قديمة بقرب نفطة،... وبالقرب منه بلد سوف، ولا يعرف خلفه عمران ولا حيوان إلا جبال من رمل¹ وكذلك مؤرخ الإباضية الدرجيني صاحب كتاب "طبقات المشايخ بالمغرب" أقدم مصدر ذكر "سوف" صحيحة بدون ألف². بينما الرحالة المغربي العياشي صاحب كتاب "ماء الموائد" حوالي سنة 1072هـ/ 1662م فقد ذكر المنطقة بعبارة "سُف" ولكن في طبعة جديدة لرحلة العياشي يذكرها صحيحة "سُوف"³.

تقول الأساطير القديمة: لقد واكب العهد الأول للمسيحية⁴ بالمنطقة جريان نهر غزير يجتاز الإقليم من الشمال إلى الجنوب، يطلق عليه "واد إزوف" والتي تعني خريز المياه أو هديره ولكن بعد الفتح الإسلامي للمنطقة⁵، غارت مياه النهر في باطن

¹ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول، دار النشر المغربية الدار البيضاء 1985، ص 159.

² أبو العباس أحمد الدرجيني، طبقات مشايخ المغرب، تح. إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر 1974، ج. 1، ص 152، و ج. 2، ص 482.

³ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط. 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981، ص 92. أنظر أيضا: عبد الله العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663، تح. سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر أبوظبي، ط. 1-2006، مج. 1، ص. 123.

⁴ يُعتقد أن المسيحية دخلت مبكرا إلى بلاد المغرب ففي القرن الثالث الميلادي كانت إفريقية وأجزاء كبيرة من المغرب الأوسط تدين بالمسيحية قبل أن تكون الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية ما جعل البربر يتعرضون للاضطهاد. أنظر: روبين دانيال، أصول التراث المسيحي في شمال إفريقيا، تر. سمير مالك، دار منهل حياة بيروت، 1999، ص. 5.

⁵ لا توجد أدلة تاريخية مؤكدة على تاريخ الفتح الإسلامي للمنطقة إلا إشارات وردت في تاريخ العدوانى عندما ذكر أن رجلا من بني مخزوم كان مع الجيوش الفاتحة لإفريقية تخلف عن أوامر الخليفة عثمان بن عفان "رضي الله عنه" بالعودة إلى المدينة ومكث بالمنطقة وتزوج من امرأة أهلية، أي أن هذه الأحداث وقعت سنة 27هـ و بعد انتصار عبد الله بن أبي السرح على جرجير في سبيلته أمره عثمان بالعودة إلى مصر. أنظر: محمد زيتون، القيروان ودورها في الحضارة الإسلامية، دار المنار القاهرة، ط. 1، 1988، ص. 28.

الأرض¹ أو بعبارة أخرى غاص النهر بكامله وطمرته الأترية، و يمكننا اليوم بواسطة الأقمار الاصطناعية مشاهدة آثار المجرى القديم والذي يعرف بالدَّايَة² شمال مدينة المقرن وبمرور الزمن تغير الاسم من "وَادِ إِزُوف" إلى وادي سوف. (الصورة: 01)

يذكر مؤرخ وادي سوف العدواني³: "أن سوف كانت عامرة والنيل يجري فيها"⁴، وفي موضع آخر أشار إلى أنه "كان فيها غَدِيرَة النيل"⁵ بمعنى حوض تجميع للمياه، وقد لا يكون هذا الكلام صحيحًا لأن العرب قديما من باب المبالغة كانت تطلق مصطلح النيل على كل مجرى مائي كبير. رغم أننا وجدنا في كتب التاريخ القديم ما يدعم هذه المقولة فهيرودوت المؤرخ الإغريقي رسم خريطة للعالم في (القرن 5 ق.م)

¹ JUS, H., «Les Oasis du Souf du Département de Constantine », B. Ac. Hip., n °22 -23, (1886 -88), p:70.

² الدَّايَة هي مُنخفض مُغلق ذو منحني دائري وعمق صلصالي في المناطق القاحلة أو شبه الجافة ، يمكنها أن تستوعب مستنقعا من المياه خلال الفصل المطير ما يساعد على شبه إضرار دائم للمنخفض. أنظر: بيار جورج، نفس المرجع، ص.361.

³ الشيخ العدواني هو محمد ابن محمد ابن عمر العدواني اللُّجي السُّوفي دفين الرِّقَم، تشير المصادر التاريخية بأنه عاش بين القرنين العاشر والحادي عشر هجري الموافق للقرن السابع عشر الميلادي. عاش العدواني بمنطقة سوف منتقلا بين منطقة الزيبان ووادي ريغ ومنطقة تبسة والبلاد التونسية واستقر بسوف ببلدة اللُّجَة (الرِّقَم حاليا). كان عالما مولعا بالبحث والتنقيب خلف العدواني مجموعة من المخطوطات التاريخية ومنها كتاب العدواني الذي يعد من أهم الوثائق المكتوبة لتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني ويعد المصدر الوحيد في تاريخ الصحراء الجزائرية عموما وسوف بالخصوص وقد قام بترجمته إلى الفرنسية Ch.feraud سنة 1868م كما حققه الدكتور أبو القاسم سعد الله (رحمه الله) سنة 1996م.

⁴ محمد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ، ط. 1، ص.134.

⁵ نفس المصدر، ص 109.

تُظهِر مجرى النيل بشكل دائري بحيث يأخذ منابعه من أرض الليبو¹ عند جبال الأطلس² وليس كما هو عليه اليوم من أواسط إفريقيا الاستوائية.

وفي سياق آخر يذكر غابريال كامب نقلا عن هيرودوت في معرض حديثه عن شعوب ليبيا القدماء يشير إلى وجود نهر يحمل اسم تريتون كان يصب في بحيرة تريتوني وقدّر مساحتها بنحو 2300 كم² و يعتقد أنها كانت في موضع الشطوط الواقعة جنوب الجزائر وتونس³ وهذا ما يؤكده بطليموس⁴ الذي كان أكثر دقة حين أطلق تسمية بحيرة تريتوني على موضع شط ملغيج⁵ وقال أن وادي تريتون القادم من الجنوب يغذيها بالمياه وهو وادي قديم لم يعد له أثر، وقد يكون ذلك إشارة إلى وادي سوف فالكثير من الدلائل تؤكد أن بلاد المغرب كانت حتى فجر التاريخ تحوي الغابات والبحيرات وتعيش فيها الوحوش وذلك ما تؤكده رسومات الطاسيلي . (الشكل 07).

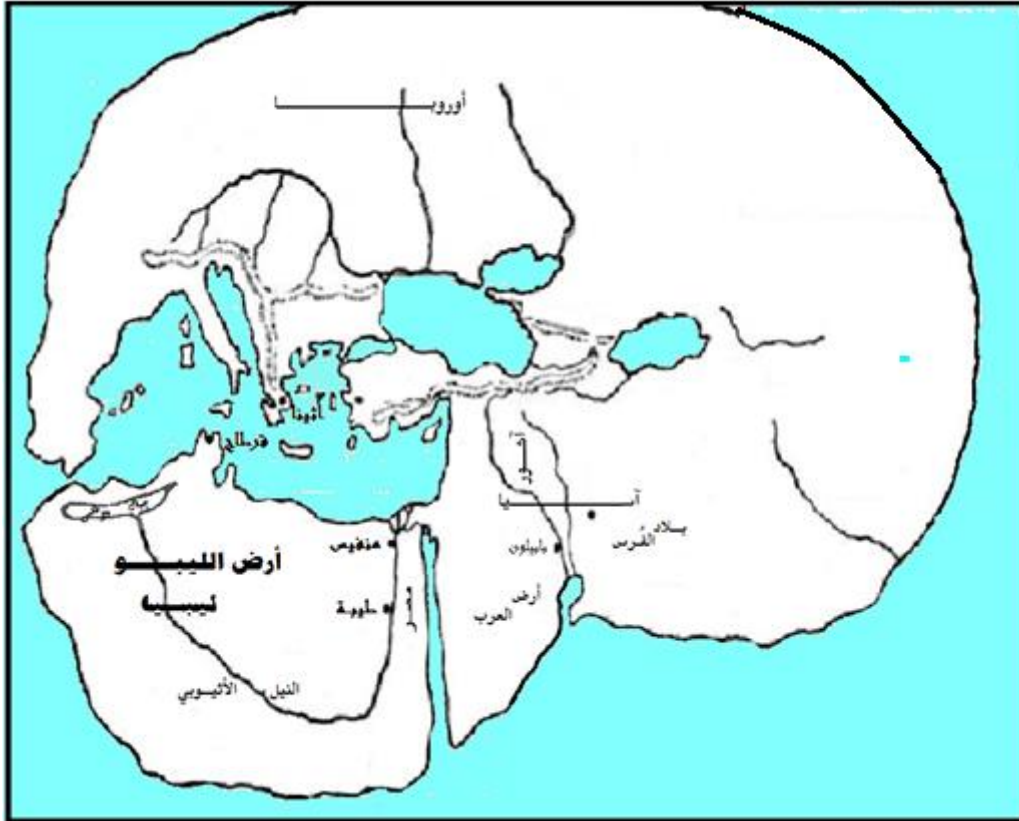
¹ أرض الليبو التسمية القديمة لبلاد المغرب نسبة إلى السكان الأمازيغ الأوائل الليبيون

² مصطفى أعشي، أحاديث هيرودوت عن الليبيين الأمازيغ، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية ، مطبعة المعارف الجديدة – الرباط-2009، ص52

³ غابرييل كامب، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، المغرب 2014، ص.57

⁴ كلاوديوس بطليموس الحكيم (83 – 161 م) عالم مصري إغريقي له كتاب الجغرافيا تضمن خريطة أكثر شمولاً للأرض.

⁵ هو بحيرة مياه مالحة موسمية تتجمع وسط حوض طبيعي مغلق، يمثل الجزء الغربي من Chott Melghir : ملغيج شط⁵ سلسلة منخفضات تمتد من خليج قابس إلى شمال الصحراء الجزائرية ، يقع حوض ملغيج شمال شرق الجزائر في منطقة السهوب الجافة تحده شمالا جبال النمامشة الأوراس بالأطلس الصحراوي و شرقا شط الجريد في تونس و جنوبا العرق الشرقي الكبير و غربا مرتفعات وادي مزاب بين دائرتي عرض 28° و 35° شمالا و بين خطي طول 4° و 8° شرقا. أنظر: P dagaud, E., La Mer saharienne, H. georg, libraire-éditeur, Lyon 1881, p.12



(الشكل رقم: 07) خريطة العالم لهيرودوت تُظهر منابع نهر النيل في ليبيا القديمة

المصدر: www.geocurrents.info بتصرف

كان الاعتقاد السائد أن اتجاه جريان وادي سوف من الشمال إلى الجنوب، حيث يأخذ منابعه من جبل مجور¹ بسلسلة جبال الأوراس² ما بين نقرين وفركان³، و أن وادي جارش الذي يصب في شط عَسْلُوج يُشَكِّلُ مجراه الأعلى ثم ينحدر جنوبا نحو وادي الجردانية المنزل الأول لأهل سوف⁴.

إلا أن الدراسات الحديثة خاصة تلك التي أجريت في المرحلة الاستعمارية أثبتت أن وادي سوف القديم ينبع من الجنوب ويتجه إلى الشمال. فقد ركز الفرنسيون أبحاثهم على إعادة إحياء البحر الداخلي للصحراء الشمالية من خلال مشروع حفر قناة لربط منطقة الشطوط (ملغيغ والجريد) بخليج قابس في تونس، و توصلت تلك الأبحاث خاصة التي قام بها الضابط الفرنسي François Élie Roudaire في سنوات 1877 و 1881⁵ إلى أن بحيرة تريتوني القديمة كانت تتزود بمياه أربعة أودية قادمة من الجنوب والغرب وهي: وادي سوف، وادي أغرغار (وادي مية) و وادي أجدى⁶. وقد حاول فيكتور لارغو⁷ في كتابه: " رحلات الاستكشاف الأولى للصحراء 1877" تحديد

¹ جبل مجور توجد منطقة في أقصى الشمال الشرقي من سوف تعرف بالمجوري نظرا لقربها من جبل مجور بنقرين .

² جبال الأوراس من سلسلة الأطلس الصحراوي التي تعتبر حدا طبيعيا فاصلا بين التل والصحراء .

³ نقرين بلدية في جنوب ولاية تبسة تمثل منطقة عبور بين إقليم سوف و منطقة الأوراس النامشة.

⁴ إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، الدار التونسية للنشر، تونس 1977، ص. 49.

⁵ Poitou-Duplessy, P., La mer des chotts, ou Mer intérieure d'Algérie, L'orient Imprimerie, Paris 1882.

⁶ Mayou, L., Les secrets des pyramides de Memphis, Chamuel Editeur Paris, 1894, p. 46

⁷ فيكتور لارغو (Victor) LARGEAU هو مستكشف وإداري استعماري فرنسي ولد في 1842، ينتمي إلى عائلة متواضعة، دخل عالم المغامرة لاستكشاف الصحراء الجزائرية... وكان يريد إثبات حقيقة أن القوافل القادمة من السودان كانت تذهب إلى الجزائر وليس إلى المغرب أو إلى طرابلس. وقد قام بمحاولتين لعبور الصحراء انطلاقا من غدامس والوصول إلى تمبكتو (1875) (1877)، ونُشر له: الصحراء (باريس، 1870)؛ بلاد ريغ ورقلة (1879)؛ الصحراء الجزائرية (1882).

معالم المجرى القديم للوادي و حاول أن يُبيّن منبعه الأول في منطقة غات¹ جنوب ليبيا والطاسيلي أزجر² قرب جانت الجزائرية و يمر بسبخة غدامس وصولاً إلى بحيرة تريتون القديمة " شط ملغيغ"³، وقد أرفقت هذه الدراسة بخريطة توضيحية للأودية الصحراوية الأسطورية ومنها وادي سوف بروافده الأربعة:

- مرتفعات الطاسيلي قرب جانت بالجنوب الجزائري

- الحمّادة الحمراء قرب غدامس جنوب ليبيا.

- الجبل الغربي⁴ قرب طرابلس .

- جبال الدويرات بالجنوب التونسي .

ويقطع مسافة نحو 1000 كم ليتجمع الماء في القناة الرئيسية عند دوار الماء⁵ ثم

يتفرع المجرى مرة أخرى بالقرب من مدينة الواد في شكل دلتا إلى ثلاثة مجاري:

- الأول يمر شرق قرية الزّقْم ويصب في شطّي العجيلة والتّاجر .

¹ غات واحدة صغيرة تقع في أقصى الجنوب الغربي لليبيا على الحدود مع الجزائر تعتبر واحدة من واحات فزان وتبعد عن جانت الجزائرية بـ 80 كم ، نشأت غات ضمن طريق القوافل الرابط بين غدامس وبلاد السودان.

² الطاسيلي أزجر هي عبارة عن هضبة صخرية من الحجر الرمادي بركانية المنشأ تقع منطقة في الجنوب الشرقي من الجزائر، يحدها من الشمال العرق الشرقي الكبير ومن الجنوب منطقة عيسو وإين الزوا المتاخمة للحدود النيجيرية، ومن الغرب عرق أمقيد، ومن الشرق منطقة فزان الليبية.

³ LARGEAU, V., Le Sahara Premier voyage d'exploration, Sandoz et Fischbagher 33, rue de Seine, Paris 1877, p.474

⁴ هي سلسلة جبال تضم جبال ترهونة و غريان ونفوسة ويفرن وتعرف بجبال نفزاوة.

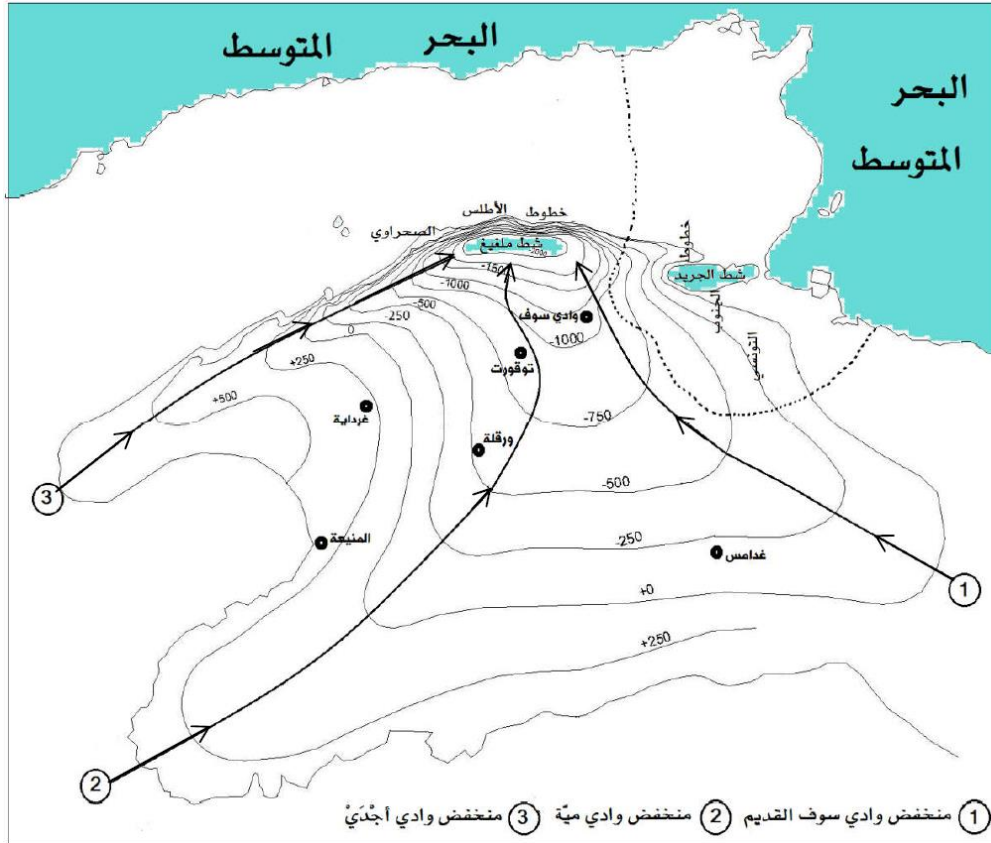
⁵ دوار الماء بلدية حدودية تقع جنوب شرق عاصمة ولاية الوادي وتبعد عنها بنحو 130 كم.

[illegible]

عن: Largeau v.: بتصرف

41

يبدو أن فرضية جريان الوادي من الجنوب إلى الشمال هي الأصح على تلك التي تقول بأن وادي سوف يأخذ منابعه من جبال الأوراس في الشمال لأن الأودية والمجاري المائية تتبع المنحدرات لتصب في المنخفضات (الشطوط) وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن أرض سوف تأخذ في الارتفاع كلما اتجهنا جنوبا نحو هضاب الطاسيلي و الهقار (الشكل: 09).¹



(الشكل رقم: 09) مقطع طبوغرافي يوضح بخطوط التسوية درجات انحدار

السطح في الجنوب الشرقي نحو منخفض ملغيغ .

عن: M. Savornin بتصريف

¹ Savornin M., Les eaux souterraines du Sahara - Compte Rendu Général, Rapport : Semaine du dattier, 5 au 11 Novembre 1931, imp. Imbert 5, rue Bruce Alger 1932.p.17

2. ظروف التعمير:

يعتبر الفعل العمراني في روحه فعل إرادي مبرمج له ضوابط وغايات تتجلى في قيمته الوظيفية والثقافية والتاريخية داخل المجتمع حين تتجسد للإنسان قيمته وكرامته، و لقد تعرض الإسلام إلى مفهوم العمران البشري من خلال آيات القرآن الكريم ومنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾¹ ويفهم من الآية أن العمران هو إسكان في منطقة معينة بهدف معين، يتطور مع الزمن إلى اجتماع بشري يتوفر على أسباب المعيشة ويسوده الأمن² ، وقد حمل القصص القرآني في طياته الضوابط المنظمة لعمارة وعمران الأرض والتي تعتبر بمثابة القواعد والأسس التي يسترشد بها المسلمون منها:

- يجب أن يكون الإعمار لسد خلة الباني وحاجته لهذا البناء دون مبالغة وإسراف كما فعلت الأمم الغابرة.

- أن يكون الغرض من البناء و الإعمار هو تقوى الله سبحانه وعبادته، فالعبرة دائما بالهدف والغاية من عملية البناء لذلك جاءت فكرة بناء المساجد كأساس لإقامة التجمع العمراني.³

لقد قرن الله سبحانه وتعالى في الغاية من وجود الإنسان على الأرض بين استعمار الأرض، وعبادة الخالق الذي استخلفنا فيها وهذا بصريح النص القرآني في

¹ سورة إبراهيم، الآية (37)

² تومي إسماعيل، العمارة والعمران في ظلال القرآن، بيت المعماريين العرب، دبت ، ص.14.

³ يحي وزيري، العمران والبنين في منظور الإسلام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويت، ط.1، 2008م، ص.34.

قوله تعالى: ﴿ وَالْأَلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝۱﴾

وقد حاول علماء الإسلام تفسير ظاهرة العمران فيقول ابن خلدون: "أن العمران هو ضرورة الاجتماع الإنساني" ² ويقول: "أنه التّساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش..، و من هذا العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي والجبال، وفي الحلال المنتجة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدر للاعتصام بها." ³

إلا أن ابن خلدون يرى أن العمران البشري أسبق من العمران المادي لضرورة الاجتماع الإنساني لذلك فهو يعتبر "وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها، بل أن العمران البدوي أصل العمران الحضري" ⁴. ويدعم وجهة نظره باعتبار أن البدو كان اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت و الكين و الدفء بالمقدار الذي يحفظ الحياة و يُحَصِّلُ بُلْغَةَ العيش من غير مزيد عليه للعجز عمّا وراء ذلك" ⁵ ويقول أهل الحضر: "بما أن وجود المدن والأمصار من عوائد

¹ سورة هود، الآية 61.

² عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 2001، ص 54.

³ نفسه، ص. 53.

⁴ نفسه، ص. 152.

⁵ نفسه، ص 150.

الترف والدعة التي هي متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية¹. كما يوضح في مقام آخر: "أن أهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي و انتبأهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم دائماً يحملون السلاح... يتفردون في القفر والبيداء واثقين بأنفسهم..."²، وكانت هذه مميزات المستوطنون الأوائل لبلاد سوف سواء من البربر أو العرب الذين وافدوا مع الإسلام فقد كانوا ذوي بأس معتمدين على أنفسهم لا يوالون أحداً ، وهو ما يؤكد الأغواطي في رحلته سنة 1826م حين يقول "... ولا يخضع سكان وادي سوف إلى حاكم وهم يتكلمون العربية، ...وأهل سوف يتمتعون باستقلال كامل، ولم يطيعوا أبداً أي سلطان ومعظم تجارتهم مع غدامس..."³. ولهذا السبب كانت التجمعات السكنية التي ظهرت مبكراً في سوف تقتصر إلى مظاهر حياة التحضر خاصة الأمن و الاستقرار.

ولكل من المجتمعين ألوان من العادات والسلوك وأنماط في الحياة تفرضها طبيعة كل منهما، وهي في المجتمع الحضري أكثر قابلية للتطور الذي يؤدي إلى قمة العمران ثم ما يتبع ذلك من تقلص وانحسار في أحقاب زمنية متلاحقة متكررة تكاد تكون قانوناً ثابتاً.

يمكن القول أن كل هذه الآراء تنطبق على ظروف عمران بلاد سوف الأولى، فنظراً للأوضاع السياسية والمذهبية التي مرت بها المنطقة و طبيعة بيئتها الصحراوية القاسية التي سبق ذكرها في المدخل⁴ فقد ظلت بلاد سوف منذ اكتشافها كانت لفترة طويلة

¹ عبد الرحمان بن خلدون، المصدر السابق، ص.153.

² نفسه ، ص.156.

³ أبو القاسم سعد الله، مجموع رحلات "رحلة الأغواطي" المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011 ، ص.96.

⁴ أنظر : الفصل الأول ،المعطيات الجغرافية، ص.5.

ملاذا لللاجئين والمُطاردين وبمَثابة المنفى للمارقين والخارجين عن تسلط حكام البلاد المجاورة، لذلك غلبت على الوافدين الأوائل طابع حياة البداوة من حل و ترحال، فأول من سكنها من البربر أو العرب كانوا بدو ضواعن يحملون خيامهم على ظهور إبلهم يجوبون بقطعان ماشيتهم مواطن الكلاء، ينزلون في كل فصل على منطقة، حتى كان موعد دخولهم إلى أرض سوف و الاستقرار نهائيا فيها .

1.2- قبل الفتح الإسلامي:

من المعروف تاريخيا أن الشمال الإفريقي بعد سقوط قرطاجة في 146 ق.م تعرض للغزو الروماني الذي أخذ بالتوسع على حساب مملكة نوميديا للسيطرة على الأراضي الزراعية وقسموا بلاد المغرب بواسطة خط الليمس وأجبروا القبائل الرحل أو الجمالون (الجيئول Géteulus)¹ على النزوح جنوب الأطلس الصحراوي عند رفارف الصحراء للاستقرار على ضفاف الأودية أو الشطوط الواقعة ما بين تونس و الجزائر.

وبعد أن اختفت تسمية الجيئول تفرعت القبائل البترية وظهر منها لواته، سوماته، نفزاوة وزناته² هذه الأخيرة التي كان أكثرها بالمغرب الأوسط " ومواطنهم في سائر مواطن البربر بإفريقية والمغرب فمنهم ببلاد النخيل ما بين غدامس والسوس الأقصى، حتى أن عامة تلك القرى الجريدية بالصحراء منهم "...³.

وقد عانت بلاد المغرب في ظل الإمبراطورية البيزنطية من مظاهر الاضطهاد الديني وحاول حاكمها جرجيروس الانفصال بولاية جنوب إفريقية وذلك ما جعل طائفة من القساوسة من الروم والبربر يهربون من الاضطهاد و يلجؤون إلى المناطق الداخلية

¹ غابرييل كامب، المرجع سابق، ص.149

² نفسه ، ص.166

³ عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت 2001، مج. 7، ص.3.

من بلاد الجريد¹، حيث يقول صاحب كتاب البلدان: " وكان يقيم في قسطليلة (الجريد) قوم من الأعاجم المسيحيين (الروم والأفارقة) ومن البربر"² ، ويقول ابن خلدون: " وأما بقايا بطون نفزاوة فلا يعرف لهم حي ولا موطن إلا القرى الظاهرة المقدرة السير المنسوبة إليهم ببلاد قسطليلة، و بها معاهدون من الفرنجة... أوطنوها وتملكوا بها القفار والضياح."³

كانت البلاد الواقعة جنوب تونس إلى إقليم طرابلس تسمى بلاد الجريد⁴ أو بلاد النخيل كما تعرف بأرض نفزاوة، و تسمى قسطليلة، و أرض سوف من ضمنها حيث يقول صاحب كتاب الاستبصار " وآخر بلاد الجريد مدينة درجين وهي مدينة قديمة بقرب نفطة،... وبالقرب منه بلد سوف"⁵

و تؤكد الكثير من المصادر أن العمران البشري بمنطقة سوف قديم جدا يعود لحقب تاريخية بعيدة ، حيث يذكر العدوانى " أن سوف عُمِرت وقت العمالة⁶... وكان لها حظ كامل وعمارة قوية..."⁷ . وذكر في مقام آخر " أن سوف كانت فيها قصور النازية⁸ وأن

¹ محمود شيت خطاب، قادة فتح المغرب العربي، دار الفكر للطباعة والنشر، ج.1، ط.7، 1984 ص.41.

² أحمد اليعقوبي، البلدان، تع. محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت.ط.) ص.189.

³ عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ بن خلدون، مج.6 ، ص.152.

⁴ بلاد الجريد تقع في الجنوب الغربي من الجمهورية التونسية وهي كل المناطق المحاذية لشط الجريد من مدينتها قفصة و توزر، وكان المصطلح قديما يطلق على كل المنطقة الممتدة من جنوب تونس إلى جنوب المغرب والمشهورة بغراسة النخيل .

⁵ مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق د.سعد زغلول، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985، ص.159.

⁶ لعله يقصد الأمم والأقوام البائدة الذين استوطنوا فلسطين والشام ، أمثال قوم جالوت وعاد وشمود.

⁷ محمد العدوانى، المصدر السابق، ص 134.

⁸ نفسه، ص.90.

قرية جلهمة¹ كان يقطنها نصارى من البربر قبل الإسلام و يوضح أن هذه القصور كانت بمثابة أديرة أو أماكن للخلوة، بقوله "يتعبدون فيهم"² و قد جاء في كتاب الصروف ما يؤكد أن بلاد سوف كانت للانعزال عن الناس فيقول: " أنه ذهب جماعة من الرهبان إلى جهة الجنوب ومنها أرض سوف فنزلوا عند من سبقوهم بجلهمة و سحبان³ و بنوا أمكنة سواء للعزلة والعبادة أو الاستيطان"⁴.

2.2. بعد الفتح الإسلامي :

لم نجد في مصادر التاريخ من يتكلم عن الفتح الإسلامي لمنطقة سوف لأنها كما وصفها العدواني " كانت براح الذياب"⁵ ويذكر البكري المتوفى في القرن 5هـ/11م " أن قوما أرادوا معرفة ما وراء قسطنطينية وذهبوا في الرمال أياما فلم يروا أثرا لعمران"⁶ وإنما بعض الإشارات القليلة منها ما ورد في كتاب فتوح البلدان: " أنه لما ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح على مصر والمغرب من قبل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) في 25هـ/645 م بعث جند المسلمين في جرائد خيل فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا"⁷ وتعتبر أرض سوف من الأطراف ثم يذكر " أن ابن أبي سرح بعد انتصاره على الروم،

¹ يعتقد أن جلهمة المركز القديم لقمار وتاغزوت كانت النواة الأولى للعمران البشري في المنطقة قبل دخول الإسلام، أنظر : محمد العدواني، المصدر السابق، ص 132.

² نفسه، ص.91.

³ سحبان هي موضع قديم يقع جنوب غرب مدينة الوادي بنحو 27 كلم و هي قرية تابعة لبلدية أميه ونسة ، وسمي نسبة لرجل من بني سليم ، وقيل من بني شباط الذين كانوا في منطقة الكتف لسد الثغور.

⁴ إبراهيم العوامر، المرجع السابق ، ص 114.

⁵ نفسه، ص.82.

⁶ أبو عبيد البكري، المسالك والممالك، تح.أدريان فان ليوفن، ج.2، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1992، ص.709

⁷ البلاذري، فتوح البلدان، ص.234.

بث السرايا ففرقها في البلاد فأصابوا غنائم كثيرة و أستاقوا المواشي¹ وهذا يتوافق مع ما ورد في تاريخ العدواني حين فتح أصحاب عثمان بن عفان (رضي الله عنه) إفريقية طلب من بني مخزوم وبني هاشم العودة إلى المدينة فتخلف عدوان من بني مخزوم² ويذكر العدواني أنه تواترت على منطقة سوف عدة قبائل .. ثم أتوا إليها (أرض سوف) بنو مرين³... ثم بنو مرداس⁴ ثم زناته⁵... ثم أتوا إليهم عدوان فأخرجوهم منها وعمروها أربعين عاما حتى جاءت قبيلة طرود"، وهذا ما يؤكد ابن خلدون : "كانت تخوم بلاد زناته منذ غلبهم الهالليون على إفريقية وضواحيها أرض مصاب ما بين صحراء أفريقية وصحراء المغرب الأوسط، و بها قصور جددها فسميت باسم من ولي خطتها من شعوبهم"⁶

ويذكر أحمد نجاح في كتابه "سوف الواحات" بأن آخر من أعاد بناء المنطقة للاستقرار هم قبائل بني هلال وبني سليم الذين قدموا من المشرق ما بين القرنين(4 و6 هـ / 11و13م) وهم في الأصل من البدو الرحل وتصاهروا مع سكان المنطقة من زناته آنذاك ليشكلوا المجتمع السوفي الأول⁷.

¹ البلاذري، المصدر السابق، ص.235.

² محمد العدواني، المصدر السابق، ص.91.

³ بنو مرين بطن من بطون زناته أنظر: تاريخ ابن خلدون ، ج.7، ص. 11 .

⁴ مرداس بطن من بطون رياح الهلالية الذين دخلوا لبلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري، أنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ، الجزء 6، ص.20 .

⁵ زناته بطن من ضريسة التي تمثل القسم الأكبر من البربر البتر الذين عرفوا في العهد الروماني بالجيبتول أي الرعاة ويعتقد أنهم من نسل العمالقة في الشام وفلسطين ومن أبناء جالوت ،أنظر: ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تح. عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط.5، (د.ت). ص.495.

⁶ عبد الرحمان بن خلدون، تاريخ ابن خلدون، الجزء 6، ص.29.

⁷ Najah Ahmed, Le Souf des Oasis .Editions la maison des livres. ALGER 1970. P.48.

يمكن القول أن دور المنفى والملجأ كان السبب الأول في اكتشاف منطقة سوف في العهد الإسلامي المبكر، فقد عرفت بلاد المغرب انتقال الفتن والصراعات المذهبية والطائفية التي سادت في المشرق الإسلامي وتحولت إفريقية إلى ملاذ لعدد العناصر المضطهدة في المشرق الإسلامي خاصة فرق الخوارج والشيعة أيام الأمويين¹ وصارت القيروان مركزا للمناقشات الفكرية والمذهبية بين مختلف الفرق بداية بين المذاهب السنية خاصة المالكية من جهة والحنفية والشافعية من جهة أخرى ثم بين المالكية والخوارج خلال القرن الثاني للهجرة ثم بين الفئتين معا والشيعة العُبيديين من جهة أخرى ما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين والذي تحول إلى صراع سياسي ثم عرقي واتخذ شكل ثورات وحركات انفصالية عن الحكم.

وقد كانت نفزاوة و زناته أكثر استقطاباً لدعوة هذه الحركات والتيارات المختلفة نظرا لكثرة شعوبها ومواطنها ومنها بلاد الجريد وإقليم طرابلس أكثر البلاد تمردا و كانت بلاد القبلة منهما تمثل ملاذا وملجأ للفارين وهذا ما يؤكد العدواني في قوله "عليكم بسوف فهي أمُّ الهاربة"²، وقد ذكرت المصادر أن أبا يزيد مخلص صاحب الحمار³ أثناء ثورته على الفاطميين (331-336هـ) كان يلجأ إلى الصحراء قبلة بلاد الجريد كلما أحس بالضعف⁴، وكذلك الحال بالنسبة لقبيلة بنو غانية¹ من قبيلة مسوفة الصنهاجية

¹ راضي دغفوس، دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2005، ص.263.

² محمد العدواني، المصدر السابق، ص 117.

³ هو أبا يزيد مخلص بن كيداد اليفرنى الزناتى نسباً، الخارجى النكاري مذهباً، الملقب بصاحب الحمار، قاد ثورة ضد الشيعة الفاطمية استمرت من 331هـ حتى 336هـ، انظر : إسماعيل أحمد عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط.2، 1985، ص 219.

⁴ عبد الرحمان بن خلدون، نفس المصدر، ج7، ص 18. انظر أيضا: محمد بن عميرة، دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984، ص 215.

المالية للمرابطين، فخلال ثورتهم على الموحدين (581-631هـ / 1185-1234م) ما بين بجاية و إفريقية فكانت المنطقة تشكل ملاذا وقاعدة خلفية لهؤلاء في عمليات الكر والفر في حروبهم مع الموحدين²، وصارت منطقة وادي سوف تشكل مسلكا آمنا لتحركات هؤلاء في المثلث بين بلاد قسطيلية و طرابلس و وارجلان.

يُعتقد أن أولى المذاهب التي وصلت إلى بلد سوف هي الدعوة الإسماعيلية الشيعية إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الإثني عشرية³ منذ منتصف القرن الثاني الهجري فاستنادا إلى مصادر ومنها كتاب "افتتاح الدعوة" أنه في سنة 145هـ قدم إلى المغرب رجلا من المشرق أوفدهما جعفر الصادق⁴... وأحدهما ويدعى الحلواني نزل سوف جمار⁵، وقد أورد صاحب التحقيق خريطة توضح موقع سوف جمار من أرض

¹ ينتسب بنو غانية إلى أمهم الأميرة غانية اللتونية إحدى قريبات يوسف بن تاشفين المرابطي، التي انتقلت إلى الأندلس حيث وُلِّي ولدها محمد بن علي بن يحيى على ميورقة إحدى الجزر الشرقية للأندلس وزاد نفوذهم هناك حتى سقطت دولة المرابطين سنة 540هـ/1145م على يد الموحدين ما جعل بنو غانية الميورقيين ينتقلون إلى إفريقية سنة 580هـ ويحاولون إنتراعها من الموحدين وظلت ثورتهم بين كر وفر حتى مقتل يحيى بن غانية سنة 633/1235هـ أنظر: عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. محمد سعيد العريان، ج.3، ج.م.ع. ، القاهرة 1963، ص.342 .

² عبد الرحمان بن خلدون، نفس المصدر، ج. 6 ص256

³ الإسماعيلية إحدى فرق الشيعة وثاني أكبرها بعد الإثني عشرية، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق الشيعي ومنها ينحدر الفاطميون أول دولة شيعية ظهرت في الإسلام هي الدولة الفاطمية في المغرب الإسلامي سنة 297هـ/909م. والتشيع يعني الموالاة، والشيعة في الإسلام هم أنصار علي بن أبي طالب الذين ساندوه في خلافه مع معاوية بن أبي سفيان في مسألة خلافة المسلمين بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان سنة 35هـ/656م.

⁴ جعفر الصادق: أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم جميعا من كبار علماء المدينة المنورة ، عاش في مرحلة شهدت سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية. فضل التفرغ للعلم والبعد عن معترك السياسة وكانت حلقة الفقهاء في المدينة المنورة تجتذب علماء المسلمين من كافة المذاهب، ودرس فيها الإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام ومالك بن أنس، يعتبره الشيعة الإمامية سادس أئمتهم. للاستزادة أنظر: عبد الحليم الجندي، الإمام جعفر الصادق، دار المعارف القاهرة، د.ت.ط.

⁵ القاضي النعمان، افتتاح الدعوة، تح. فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، ط.2، 1986، ص.29 وقد ذكرها ابن

خلدون "سوف جمار": أنظر: تاريخ ابن خلدون مج 4 ، ص 41.

سوماطة على سفوح الأوراس جنوباً على حواف شط ملغيغ الشمالية¹ ويبدو أن ذلك سبب تشيع أهل نفطة ونواحي قسطنطينية والبلاد الجريدية، و لم يكن تشيع أهل المغرب لتكفير الصحابة ورفض الخلافة الراشدة (الروافض) وإنما من باب التعاطف مع آل البيت والاعتقاد في فضائلهم خاصة بعد ما عانوه من اضطهاد وتقتيل على أيدي الأمويين ثم العباسيين².

إن قضاء الدولة الفاطمية على الإمارات المغربية الأولى خاصة الدولة الأغلبية في إفريقية التي كانت تمثل دولة الخلافة المشرقية والإمارة الرُستُمِيَّة في تاهرت التي كانت تحضّ بتعاطف وتأييد كبيرين من قبائل البربر خاصة زناته، كما أن القمع الذي اعتمده الفاطميون تجاه التيارات المذهبية الأخرى أدى إلى شبه تحالف بين الخوارج والمالكية في مواجهة التشيع الرافضي، ويمكن القول أنها كانت السبب الأبرز في مقاومة التشيع الإسماعيلي بالمغرب³، وسرعان ما تحولت هذه المقاومة إلى صراع قبلي بين كُتامة و صنهاجة المواليين للفاطميين من جهة و بين زناته و نفزاوة اللتين كان أكثرهما على مذهب الخوارج⁴ ليكون ذلك سببا في تحول بلاد الجريد وإقليم طرابلس عن التشيع وصارت بلاد القبلة من الجريد و نفزاوة حتى وارجلان تمثل قاعدة خلفية لقادة أعنف الثورات الخارجية ضد الفاطميين، ورغم أنها لم تفلح في إسقاط دولتهم فقد كانت سببا رحيلهم إلى مصر ليحكموا المشرق الإسلامي.

¹ القاضي النعمان ، نفسه صفحة ٥٣. خارج الترقيم.

² تشير بعض مصادرنا الشفهية إلى بقايا آثار التشيع في بعض كبار السن فما زالوا يعتقدون في ظهور المهدي وحتى بعض التسميات تنسب لفاطمة الزهراء ، أنظر: محمد بركات البيلي ، التشيع في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، دار النهضة العربية القاهرة 1993، ص.61.

³ مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983، ص.77، و ص.139.

⁴ محمد بن عميرة ، المرجع السابق، ص.236.

و بحكم موقعها في وسط هذه البلاد فقد تحولت سوف إلى منطقة عبور لزناته الإباحيين¹ بل نعتقد أنها شكلت قاعدتهم الأولى قبل تأسيس مدينة سدراتة² إلى الجنوب من وارجلان³.

عند انتقال الفاطميين إلى القاهرة سنة 361هـ/972م⁴ جعلوا بنو زيري من صنهاجة ولاية لهم على إفريقية و بلاد المغرب يدعون بدعوتهم ويصدون خصومهم، حتى قطع المعز بن باديس الزيري⁵ الخطبة للفاطميين بالقاهرة وأعلن ولائه للدولة العباسية سنة

¹ الإباحية هي الفصل الثالث من الخوارج تنسب إلى عبد الله بن إباح، قاموا بثورات متعددة على الأمويين، وبسطوا نفوذهم على اليمن وحضر موت، كما ثاروا على العباسيين في عمان، ونجح السفاح في إخماد صوتهم لكنه لم يتمكن من القضاء على حركتهم الفكرية والروحية التي امتدت إلى شمال أفريقيا وأصبحت مذهب الكثير من البربر فأسسوا الدولة الرستمية ثم أسسوا مدن وادي ميزاب . أنظر : محمد عيسى الحريري، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت 1987م كذلك: محمود إسماعيل عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب الإسلامي، دار الثقافة المغرب، 1985م.

² اختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيس سدراتة ولكن الراجح أنه (296-297هـ/908-909م) إثر سقوط تاهرت مباشرة أنظر : حملاوي علي، آثار الدولة الرستمية بالجزائر مدينة سدراتة الأثرية، مجلة العربي عدد 517 في 1-12-2001 ص100-102.

³ وارجلان أو واركلا أو ورقلة قصر قديم ينسب إلى قبيلة واركلا الزناتية يرجح أن يكون بُني في العصر الإسلامي الأول، أنظر بن خلدون تاريخ...ج7 ص69.

⁴ تقي الدين أحمد المقرئ، إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح. جمال الدين الشيال، ج.1، ط.2، القاهرة 1996 ص.134 أنظر أيضا : فرحات الدشراوي، الخلافة الفاطمية بالمغرب (التاريخ السياسي والمؤسسات)، نقله للعربية حمادي الساحلي دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط.1 1994، ص.406

⁵ هو شرف الدولة المعز بن باديس بن المنصور بن يوسف بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي، تولى إمارة إفريقية بعد أبيه سنة 406هـ وتوفي سنة 454هـ كان له الفضل في نبذ التشيع من بلاد إفريقية وأعادها للمذهب السني بدعوته للخليفة العباسي القائم بأمر الله . أنظر : تقي الدين المقرئ، إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح. محمد حلمي، ج.2 ، وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة 1996، ص.212

441هـ/1049م¹ ما جعله يتعرض لانتقام الفاطميين حين حرضوا القبائل العربية على الرحيل إلى بلاد المغرب سنة 443هـ/1051م².

يذكر ابن أبي دينار القيرواني³ المتوفى في ق. 12هـ/17م " أنهم دخلوا إفريقية، وملكوا البلاد بأسرها واقتسموا بربرها وافسدوا حواضرها"⁴ وبعد إن خربوا القيروان سنة 449هـ/1057م، "ولم يزل هذا دأب العرب حتى غلبوا صنهاجة و زناتة على ضواحي إفريقية و الزّاب، وغلبوا عليها صنهاجة وقهروا من بها من البربر و أصاروهم عبيدا وخولا للجباية"⁵

ويوضح كتاب الصروف أن المقصود بأطراف إفريقية و الزّاب أي جنوبهما حيث تقع أرض سوف⁶، وبسبب هذه الظروف إنحاز كثير من بربر زناتة إلى منطقة سوف لبعدها عن القلاقل وتسلط الحكام .

¹ ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تح.ج. كولان و ل. بروفنسال، دار الثقافة بيروت، ط. 3 / 1983، ج 1 ص. 279

² الهادي روجي إدريس ، الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من ق. 10 إلى ق. 12م) نقله للعربية حمادي الساحلي، ج. 1، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط. 1، 1992، ص. 245.

³ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، ولد في بداية القرن السابع عشر في القيروان توفي حوالي 1110هـ / 1699، 1698، هو مؤرخ ورجل قضاء تونسي. زاول تعليمه في جامعة الزيتونة، قبل أن يصبح قاضي مالكي في تونس العاصمة. ثم بمدينة سوسة ثم بالقيروان نشر بعدها أهم أعماله حول تاريخ تونس وهو كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس هذا الكتاب الذي يتكون من سبعة فصول: فالأول في وصف تونس، والثاني عن ولاية إفريقية في التاريخ القديم، والثالث عن فتح العرب، وبقية الأبواب في تاريخ الدول المتعاقبة على إفريقية، والسابع والأخير عن وتاريخ سلالة البايات المراديين في العهد العثماني. أنظر: الموسوعة التونسية المفتوحة/ الموسوعة العربية.

⁴ ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تح. محمد هشام، المكتبة العتيقة، تونس ط. 3، 1387هـ، ص 84.

⁵ ابن خلدون، المصدر السابق، ج. 6، ص 23.

⁶ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 132.

رغم الفوضى التي عمت المغربين الأدنى والأوسط فقد استطاعت صنهاجة الصمود في الحكم حتى سقوطها سنة 555هـ/1160م على أيدي الموحدين.

ما كاد الأمر يستتب لدولة الموحدين التي استطاعت لأول مرة في تاريخ المنطقة أن توحّد كامل بلاد المغرب الإسلامي تحت راية واحدة، حتى برزت لها حركة معارضة جديدة تزعمها بنو غانية من قبيلة مسوفة البربرية¹، ورغم أن ثورة بنو غانية ابتدأت من بجاية إلا أنها تركّزت في بلاد الجريد من إفريقية و الزّاب من المغرب الأوسط وجبل نفوسة من إقليم طرابلس، واستمرت الثورة لنحو 50 سنة ما بين 581-633هـ/1185-1235م².

وهكذا بعد أن كانت بلاد الصحراء قبلة قسطنطينية و نفزاوة موطنًا لزناتة منذ العهد القديم وحتى العهد الإسلامي الأول ما لبثت أن دخلتها القبائل العربية من هلال وسليم ومن بطونهما عدوان وطرود منذ القرن الخامس للهجرة ثم قبيلة مسوفة الصنهاجية في القرن السادس للهجرة .

لقد زادت أهمية منطقة سوف في خضم هذا الحراك الفكري والسياسي و الاقتصادي وأضحت تلعب دورا بارزا في إطار منظومة بلاد الجريد خاصة مع نشاط الحركة الإباضية فكانت جزءا من نظام العزّابة³ الذي أنشأ سنة 409هـ/1019م

¹ بنو غانية من بقايا المرابطين ينتمون إلى قبيلة مسوفة البربرية، المعودة في قبائل جدّالة و لمتونة من بطون صنهاجة الوبر الذين اتخذوا اللثام شعارا ومواطنهم ما بين صحراء بلاد المغرب إلى السودان. أنظر: ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج.6 ص.240

² ابن خلدون، نفسه ج 6، ص254.

³ حلقة العزّابة، هي نظام ظهر بسبب تسلط الدولة الغبّيدية وفي ظل غياب دولة منظمة للمجتمع الإباضي تتشكل من هيئة محدودة العدد تعمل وفقاً لضوابط معينة للأشراف الكامل على شئون المجتمع الإباضي الدينية والاجتماعية والسياسية ويمثل العزّابة الإمام أي الحاكم ويقومون بعمله . أنظر: المنصف قوجة : تاريخ الإباضية الديني والسياسي من ق 1- ق 6 هجري الدار التونسية للكتاب 2014 ص.59

يمكن أن نلخص ظروف عمران منطقة وادي سوف في العوامل التالية:

ثم تحولت إلى دار إستقرار فيذكر العدوانى: " أن طرود بعد أن سئما العىش تحت سلطة حاكم إفرىقة أحمد بن محمد بن أبى بكر الحفصى الذى حكم ما بىن(772-796هـ/1370-1393م) ومن بعده أبنه أبو فارس عزوز المتوكل على الله (797-

56

838هـ/ 1394-1434م)¹ أرسلوا من يبحث لهم عن موطن آخر خارج إفريقيا وعندما وجدوا قصور عدوان عادوا لقبيلتهم وأخبروهم "أنهم رأوا بلادًا متسعة وخالية من المخزن"² (أي ليس عليها حاكم) فغادروا إفريقيا على رأس سنة 800هـ/ 1397م³ بعد أن مكثوا في باجة نحو 15 عامًا.

- العامل الديني: يعتبر البحث عن الحرية الدينية والاعتقاد المذهبي من أهم أسباب في لجوء السكان واستقرارهم بمنطقة وادي سوف، فكان أول من عمر سوف في التاريخ القديم هم لاجئون دينيا أخلط من البربر و الروم قصد العزلة والاعتكاف فرارا من اضطهاد البيزنطيين لهم، حيث ذكر العدوانى: " أن سبعة رهبانين من النصارى بنوا قصورا يتعبدون فيهم"⁴.

و خلال الفترة الإسلامية شكلت منطقة سوف أرضا خصبة لنشر أفكار المذاهب والفرق الدينية المختلفة من شيعة وخوارج ومالكية وصار لهم أنصار ومؤيدين.

- العامل الاقتصادي: نجد الذين عمروا منطقة سوف الأوائل يشتغلون بتربية المواشي أعجبتهم لوفرة الماء والكأ عند النازية ثم عندما دخلوا أرض سوف تقاسموا الغدران وتعلموا غراسة النخيل واشتغلوا بالزراعة، وفي عهد متأخر أدركوا أهمية موقع منطقتهم (سوف) بين الأقاليم الأخرى بالنسبة لتجارة القوافل العابرة للصحراء فجعلوا من الطريق الرابط مع غدامس شريانا حيويا إلى إفريقيا جنوب الصحراء ومنها إلى الزاب و إفريقيا.

¹ الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء إفريقيا، تح. محمد زينهم عزب، دار الآفاق العربية القاهرة، 2012، ص 192

² محمد العدوانى، المصدر السابق، ص. 93.

³ نفسه، ص. 94.

⁴ نفسه، ص. 91.

كل المؤشرات تدل على أن منطقة وادي سوف شهدت العمران البشري مبكراً، فقد عرفت تواتر مجموعات بشرية مختلفة وكانت تعج بحركة القبائل المتنافسة والمتصارعة خاصة في فترة ما بعد الفتح الإسلامي للمغرب إلا أننا لا نكاد نجد آثاراً مهمة للعمران المادي متعلقة بتلك الفترة و تدل على استقرار السكان و إنشاء المدن والقرى، وكل ما وجد بها من أدلة أو شواهد ليس له أهمية كبيرة ويحتاج إلى دراسة وبحث منها:

- موقع " زمالة سندروس " الكائن بقرية أعميش على بعد 20 كلم جنوب شرق الوادي، الذي يعتقد أنه من بقايا تحصينات عسكرية رومانية أو نقطة مراقبة من خط الليمس الروماني الصحراوي طمرتها الرمال، أو بقايا محجرة قديمة.

- " بئر الرومان " هي بئر ماء قديمة توجد على طريق القوافل القديم الرابط بين سوف وغدامس منجزة بصخور جبلية منحوتة جلبت من خارج منطقة سوف، تشبه في طريقة إنجازها الإنشاءات الرومانية، وهذا ليس مستبعداً ما دام الرومان قد وصلوا إلى غدامس واحتلوها لتأمين طريق تجارتهم إلى أرض السودان في القرن 19 ق.م، وما يدعم هذا وجود ركام بناء منهار من بعض الصخور المنحوتة بالقرب من قرية دوار الماء ليس بعيداً من تلك البئر.

- وجود الكثير من القطع النقدية القديمة تعود للفترتين الرومانية والبيزنطية في المتحف البلدي للمدينة¹، ومنها قطعة برونزية تعود للقرن الرابع الميلادي تظهر عليها صورة الأمبراطور قسطنطين¹.

¹ المتحف البلدي في وادي سوف أنشأ من قبل المتصرف الإداري الفرنسي بيار شاليمو p. chalimou في 1954/01/07م وعمل على إنشاء فرق بحث تجوب صحراء العرق الشرقي وتم جمع العديد من المقتنيات كالألفى الحجرية التي تعود إلى ما قبل التاريخ و قطع نقدية تعود لفتترات مختلفة تظل بحاجة إلى جرد وتصنيف، إلا أن المتحف اليوم يعاني من الإهمال والكثير من مقتنياته الثمينة التي جمعت في الحقبة الإستعمارية تعرضت للضياع أو أصابها التلف .

- آثار مراتع عدوان عند النازية شمال بلدية المقرن أو عند سيف المندي شمال بلدية الرقبة والمتمثلة في اللقى الفخارية أو قطع الحجارة التي أستخدمت في وضع الأساسات.

ويمكن تفسير قلة الآثار الدالة على العمران المبكر للمنطقة بعدة فرضيات منها :

- كانت منطقة سوف قفار خالية من السكان ولم تكن تحت أي سلطة سياسية أو تخضع لنظام حكم وكل من يدخلها ليس بنية الاستقرار فيها وإنما بدافع اللجوء أو الهروب من تسلط الحكام و سرعان ما يغادرها ويقول البكري ق.5هـ/11م " لا يعرف وراء قسطنطينية عمران ولا حيوانا إلا الفئك...إنما هي رمال و أرضون سواخة، وهم يخبرون أن أقواما أرادوا معرفة ما وراء بلادهم فاستعدوا الأزواد وذهبوا في تلك الرمال أياما فلم يروا أثرا لعمران وهلك أكثرهم في تلك الرمال"² و يقول العدوانى " وأما سوف فلم يكن فيها ساكن حليف ولا سيد بل كانت براح الذياب"³.

- يصف ابن أبي دينار في القرن 11هـ / 17م طريقة عيش سكانها الأوائل " كان بنو مرين يسكنون بلاد القبلة من زاب إفريقية ويتنقلون من مكان إلى مكان وجل أموالهم الإبل والخيول وطعامهم اللحم والتمر"⁴ كما يخبر ابن خلدون في القرن 8هـ/14م عن قبيلة زناتة " أن عامة القرى الجريدية بالصحراء منهم، وهم لهذا العهد آخذون من

¹ قسطنطين الأول أو القديس قسطنطين، هو الإمبراطور رقم 34 في الإمبراطورية الرومانية حكم من 306 إلى 337. أعاد بناء الإمبراطورية وهو أول إمبراطور سمح للمسيحيين بممارسة شعائهم سنة 313 أسس مدينة "القسطنطينية" سنة 330. أنظر: شارل سنيوبوس، تاريخ حضارات العالم، تر. محمد كرد علي، العالمية للكتب والنشر، ط1، الجزيرة 2012، ص.260.

² أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى ببغداد (د، ت)، ص 39.

³ محمد العدوانى، المصدر السابق، ص 82.

⁴ ابن أبي دينار القيرواني، المصدر السابق، ص 146.

شعائر العرب في سكنى الخيام واتخاذ الإبل، والتغلب في الأرض، وإيلاف الرحلتين¹، أي أن منطقة سوف كانت عامرة بالسكان ولكن معظمهم ضواعن أي رُحْل فلم يكونوا بحاجة إلى إقامة مبان أو تعمير الأمصار.

- نشأت بمنطقة سوف العديد من القرى خاصة في الفترة المتأخرة من التاريخ الحديث حتى وصفت ببلاد الألف قرية² ولكن معظم سكانها يقيمون في الخيام أو في زرائب جريد النخل فهي من البلاد الجريدية³، حيث يذكر العياشي في رحلته "ماء الموائد" خلال القرن 17م: "أن سوف،...فيها بلاد عديدة " ويقول في مقام آخر: "أن سكنى أهل هذه البلاد في زرائب من جريد النخل، فإليها يأوون وبها يخزنون"⁴ أي أنه لم يكن شائعا استعمال الحجارة و البناء بالجبس حتى ذلك الوقت واستعاض عنه السكان بأغصان النخيل (الجريد) وجذوعها لوفرتها واستعملت كمادة لإنشاء أكواخ بالقدر الذي تقيهم أشعة شمس الصحراء الحارقة. (الصورة:02).

- لم تُتخذ بلد سوف يوما كحاضرة أو مقر لحُكم طائفة معينة كما كان الحال بوارجلان أو توقورت أو توزر نظرا لصعوبة جغرافيتها وتربتها المتحركة فهي عبارة عن كثبان رملية غير ثابتة، فالرياح دائمة الهبوب قد تغير معالم الأرض بين عشية وضحاها لذلك فالسّوافة الأوائل وجدوا أنفسهم مجبرون على العمل الدائم لدفع الرمال حتى لا

¹ ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، ج.7ص.3.

² إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 28.

³ بلاد الجريد هو مصطلح يطلق في بلاد المغرب على كل البلاد التي تصلح لغراسة النخيل وإنتاج التمر والواقعة أسفل الأطلس الصحراوي تمتد من إقليم طرابلس ونفزاوة بليبيا إلى إقليم السوس بالمغرب الأقصى ثم إقتصرت التسمية في العصر الحديث على جنوب تونس فقط.

⁴ عبد الله العياشي، المصدر السابق، ص.123.

تطمر حقولهم وغيطان نخيلهم حتى شاعت مقولة: "لولا تَهَمٌ¹ ريغ وظلم الجريد لما عَمُرْتُ سوف"²، و المقصود بظلم الجريد هو تسلط حكام إفريقية على سكان بلاد الجريد بفرض الضرائب عليهم ما دفع أهل سوف الأوائل يلجئون إلى هذه البلاد التي يغلب عليها الرمل.(الصورة: 03)

- التخريب المتعمد لكثرة الصراعات والقتال التي مرت على المنطقة حيث يرجح الكثير من المؤرخين أن بن غانية يحيى بن إسحاق الميُورقي الصنهاجي خلال ثورته على الموحدين³ قام بهدم وارجلان سنة 626هـ/1229م⁴ و نفس المصير لقيته حاضرة الإباضيين سدراته، ويعتقد أن دوافعه في ذلك انتقاما من موقف سكانها المؤيد للموحدين أو للاختلاف المذهبي والعربي باعتبار هؤلاء من زناتة الروافض، ويحتمل أن نفس المصير شهدته بعض حواضر سوف المبكرة لأنها كانت متعاطفة مع الإباضيين أو موالية لهم كما سبقت الإشارة إليه.⁵ لهذه الأسباب المذكورة آنفا لم تظهر بمنطقة سوف المدن والأمصار الكبيرة، ولم يعرف سكانها حياة الحضر مبكرا، فكانت عبارة عن تجمعات سكنية عديدة و متفرقة.

¹ التَهَم: بفتح التاء وكسر الهاء مرض يصيب بعض الناس بسبب ركود الهواء وغفن الماء فيؤدي بصاحبه إلى فقدان الشهية للأكل وارتفاع حرارة الجسم واصفرار الوجه وهزال وقد يؤدي به للهلاك.

² حسب الرواية الشفهية المتواترة في المنطقة.

³ قاد بنو غانية أنصار المرابطين ثورة ضد الدولة الموحدية في أفريقية استمرت لنحو 50 سنة ما بين (581-631هـ/1185-1233م) كان آخر أمرائهم يحيى بن إسحاق بن غانية الذي توفي وحيدا شريدا في مكان مجهول في الصحراء يرجح انه بين سنوات 631 هـ/ 1233 م و 633 هـ/ 1235 م

⁴ أحمد بن سعيد الدرجيني، نفس المصدر، ص494.

⁵ أنظر: الفصل الأول، المعطيات التاريخية.

الفصل الثاني: نشأة القرى القديمة في وادي سوف

أولاً: القصر والقرية في الجنوب الجزائري.

ثانياً: عمارة القرى الأولى في وادي سوف.

أولاً: القصر والقرية في الجنوب الجزائري:

عادة ما يطلق على الحواضر الصحراوية مصطلح القصر جمع قصور، و القصر في اللغة هو من البناء المعروف، وقال اللّخَيَانِي¹ هو المنزل، وقيل كل بيت من حجر قُرْشِيَّة²، وعَلَّمَ لسبعة وخمسين موضعاً ما بين مدينة وقرية وحِصْن ودار، سمي بذلك لأنه تُقَصَّر فيه الحُرْم أي تُحْبَس³، وجمعه قصور في قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ لَّكَ قُصُورًا﴾⁴ و المقصورة: الدار الواسعة محصنة الحيطان، وجمعا مَقَاصِر، و قُصَارَة الدار: مقصورة منها لا يدخلها غير صاحبها، والقصر من البناء أو ما شُيِّدَ من المنازل وعلا، وبصيغة أخرى كل بناية فخمة قال الله تعالى: ﴿وَقَصْرِ مَّشِيدٍ﴾⁵ ويقال قَصَرْتُ كذا أي ضمنت بعضه إلى بعض، ومنه سمي القصر أي البناء المجتمع لبعضه.

يختلف القصر الصحراوي وظيفياً عن القصور المعروفة في تاريخ الحكام والدول الإسلامية، فالقصر أو "لَقْصَر" (بإسقاط الألف وإسكان القاف والراء) باللفظ المغربي بالمناطق الصحراوية عبارة عن قرية أو عدة قرى مجتمعة تتكون من تكتلات سكنية متراسة ومتلاحمة فيما بينها تقطنها مجموعات بشرية تنتمي إلى أصول عرقية أو طبقات اجتماعية مختلفة⁶ كما يمكن لقبيلة واحدة أن يكون لها أكثر من قصر⁷. وأول من أشار إلى مدن القُصُور المغاربية الرحالة الإدريسي في معرض حديثه عن مدينة لبدة الليبية حيث يقول: "وكانت مدينة لبدة كثيرة العمارات مشتملة الخيرات... فلم يبق الآن منها إلا قصران كبيران وعُمَّارهما وسُكَّانهما قوم من

¹ أبو الحسن علي بن المبارك اللّخَيَانِي (؟ - 220هـ) هو نحوي من الكوفة، ومن أئمة ثُحَاة الطبقة الثالثة من المدرسة الكوفية في النُحو، امتاز بكثرة نقله وتدوينه للنوادير من اللغة (الموسوعة الحرة)

² ابن منظور، نفس المصدر، المجلد 5، ص. 3647.

³ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص. 462.

⁴ سورة الفرقان، الآية: 10

⁵ سورة الحج، الآية: 45

⁶ علي حملاوي، نماذج من قصور منطقة الأغواط "دراسة تحليلية وأثرية" موفم للطباعة، الجزائر 2006، ص. 18.

⁷ محمد حسن، الجغرافيا التاريخية لإفريقية من ق 1 إلى ق 9هـ دار الكتب الجديدة المتحدة، بنغازي ليبيا ط. 1. 2003، ص. 48.

هواره البربر ولها على نحر البحر الآن قصر كبير عامر أهل، به صناعات وسوق عامرة ... و مشهودة وهي قصور كثيرة¹.

تختلف القصور في تخطيطها إلى نمطين :

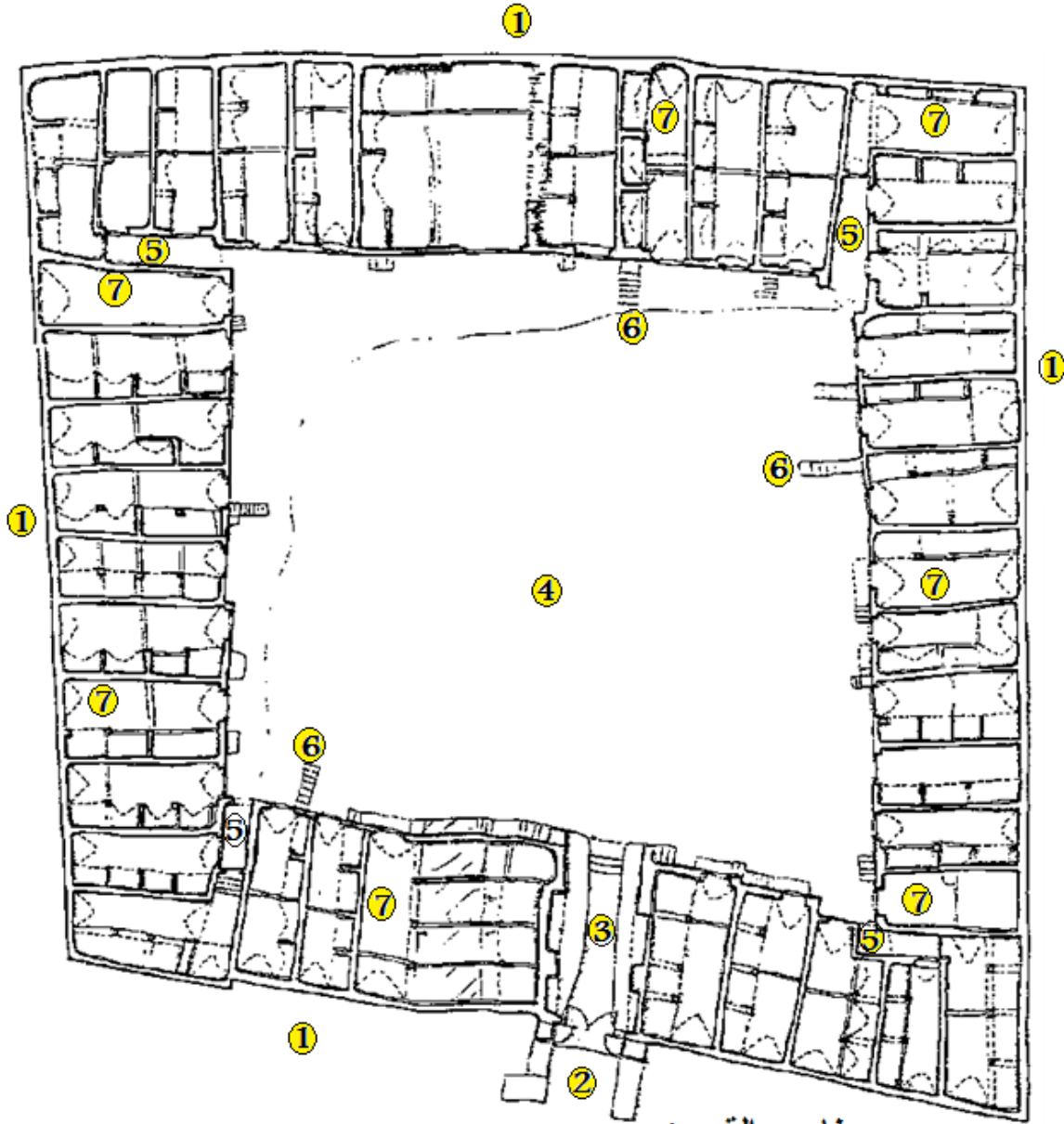
- النمط الأول عبارة عن قرى محصنة بجدار خارجي يحيط بمنازل متراصة منتظمة حول باحة كبيرة يشبه في تخطيطه نظام الأربطة² في إفريقية³ عادة ما يكون هذا النوع في الأراضي المنبسطة ويحيط به مجال غير مبني يسمى حرم القصر، وتكون المنازل عادة منجزة من طابقين أو ثلاثة ويلعب الفناء دور الساحة المركزية ولا يمكن زيادة مساكن أخرى فيه إلا نادرا على حساب الساحة المركزية أو بزيادة منتظمة ملاصقة للقصر، بينما يكون المسجد أو الجامع ضمن ملحقات القصر الخارجية ، ينتشر هذا النمط بمنطقة تطاوين بالجنوب التونسي(الشكل 10) .

- النمط الثاني عبارة عن قرى بمنازل متراصة متداخلة بشكل غير منتظم ذات أزقة ضيقة و متعرجة عند قمة مرتفع، وتتخلل كل مجموعة من المساكن رحبات صغيرة بمثابة الفضاء الضيق، ويتوسع النسيج العمراني للقصر ببناء مساكن جديدة ملاصقة للقديمة بشكل منحدر تتحكم فيه طبوغرافية الهضبة أو الجبل، ويكون المسجد الجامع في قمة المرتفع ويمثل مركز القصر، بينما قد ينشأ السوق عند المنحدر أو خارج القصر⁴ (الشكل 11)

¹ الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية عن كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" تصحيح ونشر: هنري بيريس ، الجزائر 1957، ص.97

² الأربطة :مفرد رباط من المُرَابطة أي ملازمة المكان ومراقبته، والرباط هو المكان الذي تلازمه جماعة من الناس "المرابطون" مخافة العدو ويكون بمثابة قلعة ذات أبراج محصنة تُنشأ على الثغور ، أول ما ظهرت في بلاد المغرب في العهد الأغربي في إفريقية ق 3/9م انظر: ناجي جلول، الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1999، ص.70 ³ محمد حسن، نفس المرجع، ص.28

⁴ بن عبد الله نور الدين ، العمارة التقليدية لمنطقتي توات الوسطى و القواررة بين ضوابط النص الديني وحدود الواقع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2013 م، ص. 154.



عناصر القصر:

- 1- حرم القصر 2- باب القصر 3- السقيفة 4- الساحة
5- المجاز 6- درج مؤدي للطوابق العلوية 7- بيوتات القصر

(الشكل رقم 10) مخطط لقصر (المنزل) من تطاوين بالجنوب التونسي .

عن: محمد حسن، الجغرافية التاريخية لإفريقية



(الشكل رقم 11) مخطط قصر غرداية

عن موقع: ديوان حماية وادي ميزاب وترقيته- بتصرف

أما القرية بفتح القاف لا غير على الأصح وهي مشتقة من القرى - بفتح فسكون وبالياء - وهو الجمع يقال: قرى الشيء يقره إذا جمعه¹ والجمع قرى، وهي البلدة المشتملة على المساكن المبنية من حجارة والقرية من المساكن والأبنية والضياع ففي وصف اليعقوبي لنمط التعمير في جبل نفوسة بقوله: "ومنازلهم في جبال أطرابلس في ضياع وقرى ومزارع وعمارات كثيرة"²، وهي تطلق على البلدة الصغيرة وعلى المدينة الكبيرة كما أريد بها في قوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾³ ثم قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾⁴ ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف: «أمرتُ بقرية تأكلُ القرى»، يقصد المدينة المنورة ومعنى أكلها القرى أي ما يفتح على أيدي أهلها من القرى الأخرى⁵ ومعروف أن مكة هي أم القرى لقوله تعالى ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾⁶، فهي تعتبر قرية كبيرة لأنه لم يكن فيها نظام سياسي وإنما كانت تُسير وفق نظام قبلي محدد مقره "دار الندوة" ولكن لوجود البيت الحرام فيها عُدت أم القرى لأنها مقصد للحجاج من قبائل العرب .

قد يكون التفاوت في عدد السكان عاملا في التصنيف لذلك حرص بعض الجغرافيين العرب على تحديد الأهمية الديمغرافية و المرفولوجية لقرية ما فالرحالة التجاني ذكر مصطلح " قرية صغيرة أو حقيرة أو قرية بلا معنى"⁷، وقد تختلف القرية عن المدينة في طبيعة عمرانها وبنيتها و وظائفها، ولا يمكن اعتبار وجود المسجد الجامع عنصرا كافيا

¹ الفيروز آبادي، نفس المصدر، ص1324.

² اليعقوبي، البلدان، تح. محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية بيروت، د.ت.ط. ص.185.

³ سورة الكهف، الآية 77

⁴ سورة الكهف، الآية 82

⁵ ابن منظور، نفس المصدر، المجلد 5، ص.3617.

⁶ سورة الأنعام، الآية 92

⁷ التجاني عبد الله، رحلة التجاني، تق. حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب تونس 1981، ص.21.

للتفريق بينهما، فالكثير من القرى منذ نشأتها كانت مزودة بمسجد جامع وتقام فيه الجمعة¹ وقد تتأسس بها مساجد أخرى نتيجة للنمو السكاني أو للاختلافات القبلية أو المذهبية .

يُطلق أحيانا مصطلح بلدة أو بلد على القرية أو المدينة كقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا ﴾² وقال: ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾³ ويمكن أن نحدد مفهوم القرية بالمعنى المقابل للمدينة على أنها مركز توطين ريفي يفتقر إلى مؤسسات إدارية وعلى سلطة سياسية هامة⁴..

نستطيع من خلال التعريفات السابقة أن نصف القصر- سواء كان مرفقا خاصا أو منشأة جماعية - على أنه بناء عالي محصن من حجارة أو طين ولبن، لا يمكن الولوج إليه إلا من مدخل واحد أو مدخلين، أما القرية فهي عبارة عن تجمع لمساكن متراسة أو منتشرة منجزة بمواد ترابية أو نباتية تحيط بمركز قد يشتمل على مسجد وتتميز بقلة ارتفاع عمارتها.

تعتبر منطقة سوف ضمن الإقليم الصحراوي الذي يتميز بعمارة القصور، إلا أننا نجد المصدر الوحيد لتاريخ المنطقة العدواني عند ذكره للتجمعات السكنية الأولى يفرق بينها في التسمية فالتى نشأت شمال سوف خاصة تلك عند النازية و الجردانية يسميها قصور بقوله: "وهذه تسمى بقصور عدوان، وإن شئت فقل قصور الرهبان، وإن شئت قلت قصور النازية"⁵، في حين نجده عندما يذكر التجمعات السكنية الواقعة داخل أرض سوف فيعطيها مصطلح القرية في قوله: " قرية تك بنت سبت، قرية غنّام، قرية جَلْهَمَة"، فأى المصطلحين يصح أن نطلقه على حواضر منطقة سوف ؟

لقد حاول الدكتور حملاوي علي (رحمه الله) أن يحدد نطاق القصور الصحراوية على النحو التالي: " تبتدئ القصور من على بعد 100 كلم شرق مدينة طرابلس الليبية وتشمل

¹ لقد حدد الفقهاء شروطا لإقامة الجمعة أهمها عدد السكان ما بين عشرون وثلاثون رجلا .أنظر: الونشريسي، المعيار المعرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج.1، نشر وزارة الأوقاف المغربية، 1981، ص.275.

² سورة القصص، الآية 91.

³ سورة البقرة، الآية 126.

⁴ محمد حسن ، المرجع السابق، ص.16.

⁵ محمد العدواني، المصدر السابق ، ص.90.

جبل نفوسة والجنوب التونسي... وبعدها تتجه غربا نحو الجنوب الجزائري حيث قصور وادي ريغ وقصور ورقلة ثم إقليم توات وتديكلت و قورارة ومنطقة بني مزاب وجبال عُمُور والقصور حتى تصل إلى المغرب الأقصى¹ بينما الأستاذ جودي في أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه والمعنونة بـ(المسكن الإسلامي بالقصور الصحراوية بالجزائر) كان أكثر تركيزا و حصر مناطق القصور بالجزائر في سبعة أقاليم وهي: "وادي ريغ- وادي مَيَّة - الزَّاب- وادي ميزاب- توات- السَّاورَة - منطقة جبال عُمُور"² و الملاحظ أن كلا الباحثين ذكرا كل مناطق الجنوب الجزائري باستثناء منطقة سوف رغم أنها جزء لا يتجزأ من الصحراء الجزائرية، وقد يعود ذلك إلى الاختلاف في نمط عمارتها ومواد البناء المستخدمة فيها.

ويمكن إرجاع هذا الاستثناء إلى عدة أسباب منها :

- وصف العدوانى قصور عدوان بأنها مُشَكَّلة من خيام لساكنة من الرجل، و يذكر أن قصور الرُهبان (مفرد: راهب)، عبارة معابد للعزلة والاعتكاف جعلت من زرائب القش والحلفاء ولا يذكر الطين أو الحجر كمادة إنشاء لأن أرض سوف يغلب عليها الرمل³، ما يجعلنا نعتقد أن تسمية القصور من باب الاستعمال اللفظي فقط وأن قصور سوف المذكورة تختلف عن القصور الصحراوية الأخرى سواء من حيث طريقة عمرانها أو طُرُز عمارتها و مواد إنشائها.

- تعتبر بلاد سوف الإقليم الصحراوي الوحيد في الجنوب الجزائري التي نشأت معظم قُراه وتجمعاته السكنية وسط الكثبان الرملية (المتحركة) للعرق الشرقي الكبير، فهي موعلة فيه ناحية الجنوب، بينما أغلب مدن القصور الصحراوية وُجدت على قمم الجبال أو على

¹ علي حملاوي، المرجع السابق، ص.40.

² محمد جودي، المسكن الإسلامي في القصور الصحراوية بالجزائر- دراسة تحليلية مقارنة لقصور مزاب و ورقلة - أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم تخصص علم الآثار والمحيط، جامعة تلمسان 2014/2013، غير منشورة، ص.56.

³ يذكر العوامر أن تكسبت القديمة بنيت بالطين وهذا مستبعد فلا يوجد إلا طين السباح، أنظر: إبراهيم العوامر، الصروف،

سفوحها أو على هضبات صخرية صلبة تُسهّل عملية الدفاع عنها... وأغلبها نشأت قرب المجاري المائية والأراضي الصالحة للزراعة.¹

- معظم الذين سكنوا سوف سواء من بربر زناته أو من عرب عدوان وطرود كانوا ظّواعن غير مستقرين حتى لفترات متأخرة من العهد الإسلامي ولم يعرفوا حياة الاستقرار إلا بعد ظهور غراسة النخيل .

- تعتبر أرض سوف فقيرة من المواد الإنشائية التقليدية المعروفة بالحجارة والطين ما جعل سكانها يعيشون تحت الخيام أو زرائب الحلفاء والقش ثم سقائف الجريد وبعد أن اكتشفوا حجارة اللوس والجبس صارت كل عمائرهم منها وفضلوا التسقيف بالقباب ما جعل عمارتهم قليلة الارتفاع مختلفة عن عمارة القصور .

- تميزت منطقة سوف عن باقي بلاد الجريد والجنوب الجزائري في طريقة غراسة النخيل بسبب طبيعة تربتها الرملية وعدم وجود بقايا مياه جارية فوق السطح، حيث لجأ السّوافة الأوائل إلى جعل حفر كبيرة عرفت بالغوط² أو الهود³ حتى تكون جذور النخيل قريبة من الحوض المائي و نجحوا بمرور السنوات في إنجاز المئات من الأغواط و الأهواد وأقاموا تجمعاتهم السكنية الأولى بينها حتى يظل قريبا منها، إلا أن الرمال المتحركة بسبب الرياح جعلتهم في كفاح دؤوب لحماية نخيلهم، فصار أهل سوف سواء من البربر أو العرب يتميزون بقوة التحمل و شدة مراسهم و صبرهم على الرياح (الصورة 03)

¹ علي حملاوي، المرجع السابق، ص. 18.

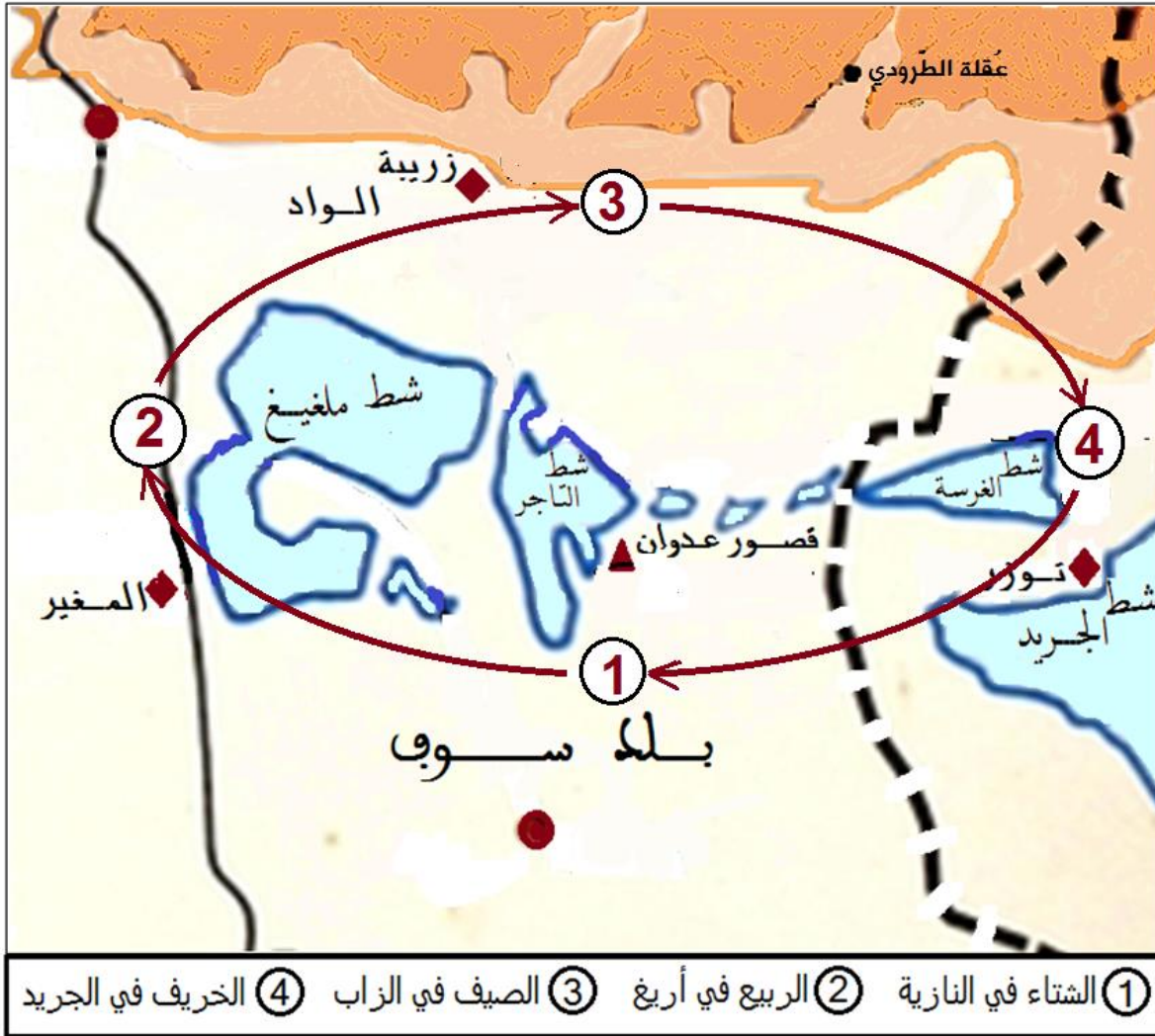
² الغوط مفرد الغيطان أو الأغواط وهو المتسع من الأرض أو الحفرة العميقة، أنظر: ابن منظور، لسان العرب ص. 3316 .

³ الهود مفرد أهواد وهو المنطقة المنخفضة من الأرض أكثر عمقا من الغوط حتى تضعف بداخلها قوة الرياح، وقد تكون الكلمة محرفة عن وهاد أو الوهدة جمعها وهاد أي الهوة التي تكون أشد دخولا في الأرض من الغائط أو الغوط. أنظر: ابن منظور، ص. 4930.

ثانيا: عمارة القرى الأولى في وادي سُوف:

رغم تأخر العمران المادي بمنطقة سوف لأن السكان الأوائل ما دخلوا هذه البلاد الصحراوية القاسية إلا فرارا من ظلم وجور السلطان الأمر الذي جعلهم يعيشون حياة الرُّحل يتنقلون بماشيتهم حيث الكلاً والمرعى، لكن الطبيعة الإنسانية غلبت فكما يقول ابن خلدون: "الإنسان مدني بالطبع، والاجتماع الإنساني ضروري، والاجتماع هو المدينة والعمران"¹ فاستطاع هؤلاء أن يحققوا الحد الأدنى من التوافق والتعايش جنبا إلى جنب وأسسوا في العهد الإسلامي الأول تجمعات سكانية لتكون بمثابة القرى التي تجمعهم، حيث تؤكد المصادر الشفهية ظهور العديد من التجمعات السكانية المبكرة تركزت أغلبها على رفارف صحراء سوف على الحواف الجنوبية للشطوط عند الطريق القديم للقوافل الرابط بين بلاد الجريد وبلاد ريغ، خاصة الأماكن التي يُعتقد أنها كانت مصبات وادي سوف القديم خاصة في سيف مندي على شط ملغيغ و قارة الطير على شط السيال وعرق النازية على شط التاجر ومن مؤشرات ذلك العثور على بقايا فخار وبقايا أساسات بناء بالإضافة إلى مخلفات الحيوانات التي كانت ترعى في تلك النواحي، ثم أخذت حركة نزوح السكان نحو المناطق الداخلية حيث يقول العوامر: "بسبب الكلاً وقع نزاع بين قبيلة عدوان العربية وزناته كانت الغلبة لعدوان ما جعل بربر زناته يتركوا مواطنهم ويسيروا متتبعين مجرى الوادي القديم حتى موضع وادي أوراغ² على طرفه الغربي حيث استقر بهم المقام في موقع ضَوَّاي رُوَحَه وأقاموا منازل من الطين والحجارة في موضع "تُك بنت سبت" في حوالي 600هـ/1204م³. (الشكل 12)

¹ ابن خلدون، المقدمة، ص. 54.² وادي أوراغ أي موضع غور الماء في الرمل أو هو مفرق الماء أي تفرعه بسبب ضعف منسوب الماء.³ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 140.



(الشكل رقم: 12) مخطط يمثل منازل عدوان عند الشطوط قبل دخولهم أرض سوف

حسب تاريخ العدواني / عن الطالب

1. النازية:

كل الدلائل تشير إلى النّازية كأول مركز للاستقرار في المنطقة ، ففي العهد الإسلامي الأول توافد العرب على منطقة سوف من بلاد قسطنطينية¹ والزّاب و ريغ فاندمجوا مع ساكنتها من البربر وأسسوا حوالي سنة 522هـ / 1128م² قرية في الجردانية³ عند عيون النّازية ثم قصدهم جماعة من الرهبان⁴ حيث قصورا لهم⁵ وعرفت عمارتها ازدهارا كبيرا .

يقول العدواني أن قبيلة عدوان أنشأت خمسة قصور بالنّازية وهي المدينة، المعاوي و مجور و الفلاة و أم العز⁶ واستقر لهم الأمر لنحو أربعين سنة⁷، حتى قدمت عليهم طرود من باجة، ودخلت القبيلتان في حروب طاحنة كانت فيها الغلبة لطرود وأوشكت عدوان على الفناء حتى وصلوا عند ولية صالحة تدعى "زينب بنت تندلة" بوادي ريغ⁸، فأصلحت بينهم ودخل ما بقي من عدوان تحت سلطان طرود وعادوا إلى قصور النّازية وظلوا بها نحو عشرون عاما⁹ حتى حضرت الوفاة شيخهم طرد بن دابس فجمع أولاده وأوصاهم بأن يحسنوا إلى بقية عدوان، وإذا هموا بالخروج من النّازية، أن يأخذ كل أهله ومن معه من

¹ قسطنطينية أختلف حولها هل هي مدينة أم إقليم، حيث نجد الإدريسي يقول: "أنها تسمى توزر ولها سور حصين وبها نخل كثير وتمرها يعم بلاد إفريقية" أنظر: الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تص. هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، 1957، ص. 75. أما اليعقوبي فيقول: "أنها أربع مدائن وهي توزر، الحامة، تقيوس و الرابعة نفطة وحول هذه المدن أربع سباح تليها إلى الجنوب مدائن نفاوة" أنظر: اليعقوبي، البلدان، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت.ط.) ص. 188.

² إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص. 138.

³ الجردانية أي الأرض الجرداء هي صحن منبسطة ممتدة لعدة كلمترات إلى الشمال من قرية الحمادين (المقرن) قليلة النبات والكأ.

⁴ الرهبان مفرد راهب مصدره الرهينة والرهبانية وهو رجل الدين النصراني المعتكف في الكنيسة أو الدير المنعزل الناس.

⁵ محمد العدواني، نفس المصدر، ص. 91.

⁶ نفسه، ص. 143.

⁷ يقسم العدواني فترات استقرار القبائل في منطقة سوف إلى مراحل وكل مرحلة تعد بأربعين سنة ويبدو أنه متأثر بالقصص القرآني الذي يعتبر أن سن الأربعين هي مرحلة النضج العقلي والآية 15 من سورة الأحقاف " حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ " والرسول محمد صلى الله عليه وسلم عندما بلغ الأربعين كلف بتبليغ رسالة الإسلام؟! أنظر: تاريخ العدواني، ص. 134.

⁸ توجد اليوم في وادي ريغ بلدية تندلة تتبع دائرة جامعة على بعد نحو 70 كم شمالا من تقرت قاعدة بلاد ريغ.

⁹ محمد العدواني، المصدر السابق، ص. 102.

عدوان وأن يتقاسموا بينهم غدران الماء¹، ويستقر بهم في قصر لوحده حتى لا تقع الفتنة بينهم².

تقع النازية³ قريبا من شط العقيلة أو التاجر على مسافة حوالي 50 كم شمال شرق بلدية المقرن⁴ إلى الشمال من أرض سوف على طريق الزاب الشرقي، وهي اليوم عبارة ثلاث تلال رملية تتوسطها منخفضات وفيرة المرعى والكأ ، كانت تتوسطها منابع ماء عذب يُطلق عليها نوازي: نازية الماء ونازية الغُب (العطش) ونازية الجهلي، ويُعتقد أنها من بقايا المجرى القديم لوادي سوف الذي طمرته الرمال.

2. جلهمة :

الجلهمة، إحدى حافتي الوادي أو شاطئ الوادي⁵، تعتبر جلهمة من أقدم مراكز التعمير في منطقة وادي سوف ، ويمكن القول أنها أقدم من قصور النازية حيث يذكر العدوانى " أن سبعة رهابين من النصارى منهم إثنان من جلهمة بنوا قصورا عند عدوان في النازية⁶ ويذكر في موضع آخر " أنها كانت قرية للنصارى⁷، ويذكر صاحب الصروف " أنه في القرن 5م بسبب غزو الفندال ذهب جماعة من الرومان إلى سوف واستقروا في سحبان و جلهمة⁸ وفي موضع آخر يذكر " أن جماعة من الرهبان ذهبوا إلى أرض سوف ونزلوا عند من سبقوهم من الرومان بجلهمة وسحبان " ⁹، ويذكر العدوانى أن جلهمة ظلت عامرة حتى مجيء الداعية سيدي المسعود الشابي إلى سوف في القرن 10هـ/16م وبسبب دعوته على أهلها هُجرت وعُمرت تاغزوت¹⁰ .

¹ غديرة أو الغدير جمعها غدر أو غدران وهي القطعة من الماء التي يغادرها السيل ويبقى الوحل، انظر ابن منظور، المصدر السابق، المجلد 5 ، ص 3217.

² محمد العدوانى، نفسه، ص 109.

³ يمكن تحديد موقع عرق النازية بواسطة قوقل إيرث.

⁴ المقرن إحدى بلديات الوادي تقع بين قريتي الجديدة وسيدي عون في الجهة الشمالية من الولاية.

⁵ ابن منظور، لسان العرب، مج.1، ص.669.

⁶ محمد العدوانى، نفس المصدر، ص.91.

⁷ نفسه، ص.125.

⁸ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص 113.

⁹ نفسه، ص.114.

¹⁰ محمد العدوانى، نفس المصدر، ص.125.

يعتقد الكثيرون اليوم¹ أن موضع جلهمة كان إلى الغرب من البلدة القديمة لتاغزوت التي حلت محلها ويمكن أنها اشتقت أسمها الأمازيغي منها أي "الرُبوة على حافة الوادي" وهو نفس معنى كلمة جلهمة بالعربية.

3. الرُّقُوبَا:

تُعتبر الرُّقُوبَا مركز التعمير الأول للزَّم في اللُجَّة (حسب المصادر الشفهية) ويعتقد أنها كانت تتموضع في الجهة الشمالية الشرقية من القرية الحالية ولكن لا توجد أي آثار عمران تدل على ذلك لأن الساكنة الأوائل لبلد سوف كانوا يقيمون في عرائش من القش والحلفاء أو من الخيام فهم يُعَدُّون من الصَّواعن الرُّحَل، وتذكر المصادر أن أصل الرُّقُم (اللُجَّة) هي قرية الرُّقُوبَا التي استقر بها رجل يدعى عدوان من بني مخزوم القريشية² كان من ضمن جيش عقبة بن نافع (رضي الله عنه) في حملته الأولى سنة 46 هـ وتخلف عن العودة إلى المشرق ، و تزوج بامرأة * ورزق منها بعشرين ولدا وسكن في نواحي الشمال الشرقي لوادي سوف .

والرُّقُوبَا في اللغة الترصد والمراقبة³ دلالة عن المكان الذي نشأت فيه القرية فهو عبارة عن نتوء صخري أو تلة مرتفعة وسط المتسع من الرمل، و هناك من يقول أن أصل الكلمة أمازيغي "تَرْقُوبت" نسبة للمرأة البربرية التي تزوجها العدواني المخزومي قبل أن يرتحلوا إلى النازية⁴، حيث ذكرت المصادر أن عائلة العدواني بعد بقائها مدة في الرُّقُوبَا ارتحلت إلى النازية لتلتحق بقصور عدوان، قد يكون ذلك إثر مجيء قبيلة عدوان في مطلع القرن 7هـ / 13م.

¹ أعتمدنا في ذلك على بعض الروايات الشفهية ولا يوجد دليل مادي أو بحث أكاديمي يؤكد ذلك .

² محمد العدواني، المصدر السابق ، ص.91

* يقول العدواني : أن عدوان المخزومي تزوج امرأة عربية، بينما تذكر مصادر أخرى أنها أمازيغية وهذا الأرجح لأنه إذا كان قد تخلف عن العودة للمشرق وإذا كان متزوج فحتمًا من عربية أما إذا لم يكن كذلك فالمرأة ستكون من أهل البلاد المفتوحة أمازيغية الأصل والله أعلم !!.

³ ابن منظور، المصدر السابق، مج 3، ص.1699

⁴ مصادر شفهية لم يتسنى لنا التثبت من صحتها ، ولكن قد تكون عدوان دخلت مبكرًا لسوف وبما أنهم كانوا ضواعن (رُحَل) فلا نستطيع القول أنهم استقروا في موضع محدد لفترة طويلة .

يُعتقد أنه نشأت قرب الرُّقوبا في الجهة الشرقية من الزقم الحالية قرية سيدي خضير، أسسها جماعة من البربر نزحت من جبل أحمر خدو بالأوراس و لكنهم غادروها بعد مجيء العرب نحو بني يزقن (أحد قصور وادي ميزاب).

إذا صحت فرضية أن الرقوبا أصل عمارة الزقم القديمة كان ساكنتها من عرب عدوان وزناته فإن ذلك يدفعنا للاعتقاد أنها كانت معاصرة لقريتي تكسبت وتاقدامت (القدايم) وقد تكون ظروف خرابها مشابهة لهما.

4. القدايم:

هناك من يُرجع أصل تسمية القدايم إلى تاقدامت الأمازيغية وقد يكون مؤسسوها أيضا من زناته، ونجد بعض المصادر تذكر وجود قرية القدايم كحاضرة بالقرب من جلهمة¹ ولكن يبقى التضارب قائما حول ظروف تأسيسها ومن ساكنتها الأوائل، حيث يذكر صاحب الصروف أن العدوانيين صارت لهم ألفة وصُحبة مع النصاري وزناته عند إقامتهم بالنازية ولحق بعضهم بأهل جلهمة و بنوا جميعا قرية ظلت عامرة حتى حوالي 655هـ/1258م وكان يقصد القدايم .

يذكر الشيخ الطاهر التليلي² في مقالته « فذلكة تاريخية »: " أن القدايم كانت عامرة و فيها نحو ثمانون زقاقا"³، كما تذكر المصادر الشفهية أيضا أنه " كان بها نحو مائة و أربعون حماما !!"، لكن لا يوجد اليوم ما يثبت صحة ذلك*، و يعتقد البعض أن موقعها كان شرقي بلدة تاغزوت المحاذية لقمار من جهة الجنوب ، حيث يُروى أن بعض أهل

¹ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص.145

² التليلي محمد الطاهر من علماء المنطقة المخضرمين، ولد سنة 1910 في ظل الاستعمار، ونشأ في كنف الحركة الإصلاحية، عايش العديد من علماء البلدة، عُرف بدوره الإصلاحي، شهد مرحلة الاستقلال له عدة كتابات في الفقه والتاريخ منها كتاب مسائل قرآنية ، توفي سنة 2002م.

³ التليلي محمد الطاهر، " فذلكة تاريخية عن منطقة سوف"، تقديم أبو القاسم سعد الله ، مجلة العرب ج.11 و12، الرياض 2002، ص 543..

* توجد عدة مناطق في سوف بحاجة إلى عمليات للتنقيب والبحث الأثري للكشف وتأكيد أو نفي الكثير من الروايات الشفهية.

الجهة عندما كانوا يقومون برفع الرمال¹ لحفر غيطان النخيل في النصف الأول من القرن الماضي وجدوا آثار بناء وقباب والكثير من قطع الفخار في تلك البقعة .

يبدو أن ظروف خراب القدايم تظل مجهولة إلى الآن، حيث نجد المصادر تذكر أنه عندما كان الصراع قائماً بين زناتة و طرود في تكسبت ، قامت طرود بجلب الحجارة المستعملة من القدايم لبناء مساكنهم قبالة تكسبت القديمة²، وقد يكون ذلك بعد مغادرة أو طرد ساكنتها من قبيلة عدوان والذين كانت لهم علاقة حسنة بزنانة تكسبت، ومن المرجح أنه عند خروجهم أي قبيلة زناته إلى المغرب ترك عدوان أيضاً منازلهم بالقدايم وانقطعت أخبارهم³

يُعتقد الكثير من العامة في قمار وتاغزوت وحتى الزُّقْم خاصة ممن لديهم اهتمامات بتاريخ المنطقة أن القدايم كانت قريتهم الأولى، ما يدفعنا للاعتقاد أن القدايم كانت موجودة في موضع وسط بين القرى الثلاث ما بين اللُّجة والغدير السفلى، وعندما حل العرب في مرحلة ثانية هُجرت أو خُربت كما حصل لتكسبت القديمة وتفرقت ساكنتها وكان أغلبهم من قبيلة عُدوان بين الزُّقْم و أقمار و تاغزوت .

5. تكسبت القديمة:

تذكر المصادر المحلية أن أول منطقة عرفت الاستقرار في بلدة الوادي في 522 هـ / 1129م⁴ حيث سكنها قوم من بربر زناته بعد أن تركوا مواطنهم الأولى عند النازية إثر توتر علاقتهم مع قبيلة عدوان بسبب نقص الكلاً فساروا ناحية الجنوب متتبعين مجرى الوادي حتى موضع يعرف بوادي أوراغ فأقاموا بيوت من الشعر و زرائب

¹ مصطلح يستعمل للدلالة على عملية حفر غيطان النخيل ورفع الرمل من وسط الغوط لتركيمة على أطراف الغوط لتشكل تلال تحيط بحقل النخيل تحميه من الرياح العاتية ويسمى العامل " رافع الرمل" .

² إبراهيم العوامر، المرجع السابق ، ص 161.

³ نفسه ، ص 146.

⁴ نفسه ، ص 137.

من الحلفاء والأخشاب في صَوَّاي روحه¹ ولمَّا طال مُكثهم هناك، جعلوا لهم قرية مُحْكَمَة البناء بالطين على الطرف الغربي للوادي وأحاطوها بسور صارت تعرف بتكسبت !!.

أصل التسمية : يذكر العدوانى أنها نسبة لامرأة صالحة من بقية مرداس البربرية² تعرف بـ(تَكْ بنت سبت) عرفت برجاجة عقلها وسداد رأيها أراد قومها أن يجعلوها ملكة عليهم فامتنعت وبعد موتها اتخذوا منازلهم عند قبرها*³، وهناك رأي آخر يقول أن تكسبت هي تاكسبت أو تاقصبت الأمازيغية نسبة لنبات القصب وهذا الراجح لأننا حتى اليوم نجد في الجهة الشمالية من مدينة الوادي سباح ينمو فيها القصب بكثرة⁴.

كانت سُكنى أهل تكسبت الأوائل من بيوت الشعر و سقائف من الحطب والحلفاء ولما طال مُكثهم توافد إخوان لهم في حوالي 600هـ/1204م من النازية و بنوا قرية محكمة من الطين⁵ وأحاطوها بسور عال⁶.

تعرضت تكسبت لعدة هجمات من أقوام من بني أبي العافية من قبيلة مكناسة البُتْرية الذين نزلوا قبلة بلد سوف عند موقع سندروس وخرّبوا القرية ولجأ أهلها إلى الجردانية عند قصور عدوان وإلى بلاد الجريد في حوالي 610هـ/1214م حتى انجلوا عنها ثم عادوا ورمموا بعض ما تهدم و بنوا قرية أخرى مجاورة لها⁷.

¹ صَوَّاي روحه: أي الذي يُصنِّد صَوَّاءً من تلقاء نفسه وقد تكون ظاهرة فلكية وحسب المصادر الشفهية فإن الظاهرة موجودة في قمار وكذلك في الصحراء عند النازية، ويذكر أهل الواد أن المنطقة المشار إليها تقع إلى الغرب من حي سيدي عبد الله الحالي.
² مرداس قبيلة عربية من رباح ويذكر ابن خلدون أنه وقع تحالف بين القبائل العربية والبربر بزعامة بنو غانية ضد الدولة الموحدية، أنظر: ابن خلدون، المصدر السابق، مج.6، ص.187. وقد يكون العدوانى يقصد قبيلة منداس من هواراة الصنهاجية البربرية وهذا الراجح أنظر أيضا : بوزيان الدراجي، القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها و أعيانها ، دار الكتاب العربي الجزائر 2007، ج2، ص.16

* نشكك في صحة هذه الرواية لسببين : الأول أن العدوانى ذكر قبيلة مرداس على أنها أمازيغية بينما هي قبيلة عربية ، والثاني يرجح الكثيرون أن أول من إستقر في سوف من البربر هم زناته ويعتقد أنهم كانوا إباضية و المذهب الإباضي متشدد في مسألة ولاية المرأة أو إتخاذ قبرها مزارا، وقد يكون في التسمية إشارة إلى إعتناق البربر الديانة اليهودية.

³ محمد العدوانى، المصدر نفسه، ص.114

⁴ يوجد بأقليم ميزاب وادي تاقصبت كما أنجز بولاية تيزي وزو سد تاقصبت على مجرى وادي عيسى سنة 2007.

⁵ تعرف سوف بوادي الرمل ولا يعرف فيها الطين اللهم إلا في السباح حيث يكون الوحل كما تتجمع على سطح أطراف السباح تكتلات خُرشفية ومتبلورة من الجبس في الجهة الشمالية من مدينة الوادي .

⁶ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص.137

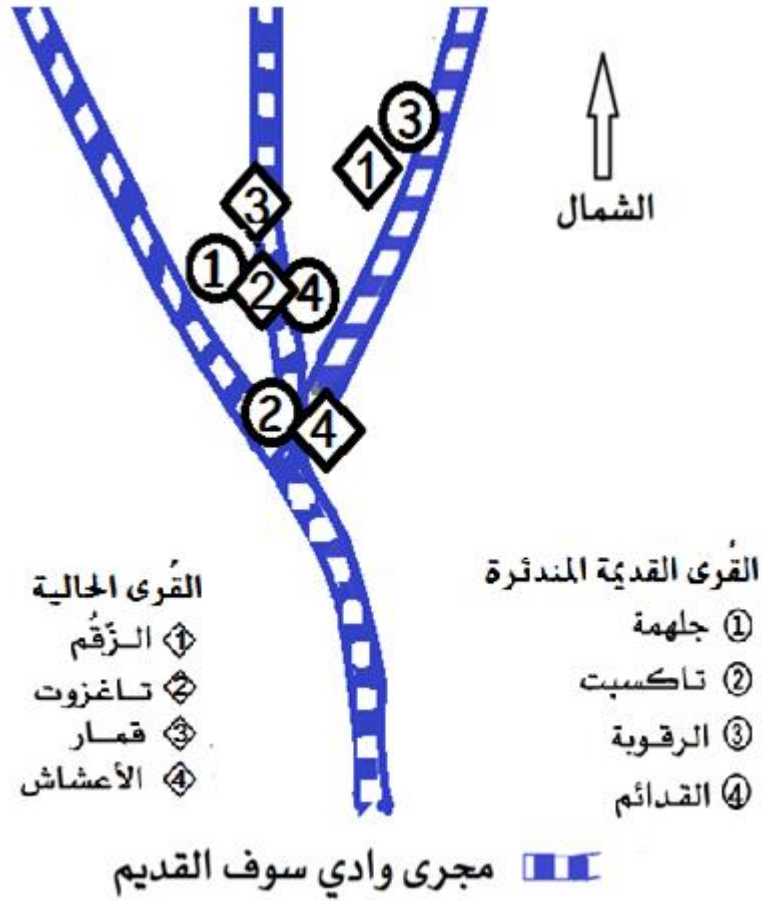
⁷ نفسه، ص.139

عند دخول طرود لأرض سوف حوالي 800هـ/1398م وتقاسموا غدران الماء كانت الغديرة العليا (موضع تكسبت القديمة) من نصيب قايد حيث نزل ومن معه من طرود وعدوان قرب منازل أولاد أحمد ونظرا لكثرتهم خافت زناته تكسبت على تناقص الكلاء والماء فحاولت منعهم من الإقامة قريبا منهم لكن طرود أصروا على ذلك، ما أدى نشوب قتال بين الجانبين كانت الغلبة لطرود وأحلافهم من عدوان وسادت هدنة مؤقتة بين الجانبين وصار كل طرف يتحين الفرصة للغدر والإيقاع بالطرف الآخر حتى سنحت الفرصة لطرود حين علموا أن الجهة الغربية من سور تكسبت سقطت بعض أجزائه وكانت الحراسة غير مشددة فباغتوا زناته ليلا وأجبروهم على الرحيل ناحية الغرب باتجاه توقورت و وارجلان* كان ذلك في 818هـ/1416م¹.

بعد خراب تكسبت أخذت طرود حجارتها واستعملتها في البناء، و يعتقد أن موقع تكسبت القديمة في موضع القارة اليوم الذي يعرف بحي سيدي عبد الله أي غرب حي ومقبرة الأعشاش (الشكل 13)

* يقول العوامر أن زناته تكسبت كانوا على دين الرافضة انظر: الصروف ص.166، كما نجد الرحالة العياشي يصف بعض سكان وارجلان أنهم عزابة روافض ويقول أنهم طائفة من الإباضية من أتباع عبد الله ابن إباح أنظر: عبد الله العياشي، الرحلة العياشية، تح. سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، دار السويدي للنشر أبوظبي، ط.1. 2006، ص.116. فنرى أن كلا الكاتبين يخلطون بين الشيعة الروافض الذين يرفضون الاعتراف بشرعية الخلفاء الراشدين وبين الخوارج الذين خرجوا عن جيش علي بن أبي طالب رضي الله عنه لعدم إعترافهم بالتحكيم. للاستزادة أنظر: سعد رستم، الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، دار الأوائل للنشر والتوزيع دمشق، ط.3، 2005، ص. 64.

¹ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص.172.



(الشكل رقم: 13) مخطط تقريبي لمواقع قرى وادي سوف المندثرة والحالية

إعادة تصور: عن الطالب

الفصل الثالث: نشأة القرى الحالية في وادي سوف.

أولاً: نشأة وتطور القرى الحالية في وادي سوف.

ثانياً: دراسة مقارنة حول القرى الثلاث.

أولاً: نشأة وتطور القرى الحالية في وادي سوف:

كما سبق وتقدم فقد ترك عرب طرود وعدوان منازلهم عند النازية وأتبعوا مجرى الوادي القديم وتقاسموا غدرانه التي كانت بها قرى زناته الأولى إلى أربعة منازل، فنزلوا أعلى مجرى الجردانية¹.

إذا استثنينا التجمعات السكنية الأولى لبقايا بربر زناته ومن حل محلهم من عرب عدوان و طرود عند مجرى وادي الجردانية ثم عند قرية تكسبت القديمة سنجد حواضر سوف المتأخرة ظهرت عند ما تبقى من مياه الوادي الظاهرة على السطح وفق ما ذكره العدوانى، و كان توزيع القرى بأرض سوف من الشمال إلى الجنوب حسب الغدران المتبقية من مجرى الوادي القديم كالآتي: (الشكل 14)

- في اللجة² : نشأت بلدات الزفم والبهيمة.

- في الغديرة السفلى : ظهرت بلدات تاغزوت وقمار.

- في الغديرة الوسطى : نشأت بلدة كوينين .

- في الغديرة العليا: في موضع تكسبت نشأ حي الأعشاش (مدينة الوادي الحالية).

عرفت القرى الأولى في منطقة سوف تطورا وتوسعا فتمددت أزقتها وانتشرت رحابها وكثرت أبوابها وظهرت فيها الأسواق، وكانت عمارتها متجاوبة مع طبيعة المناخ الصحراوي الجاف السائد في المنطقة متفاعلة مع طبيعة التربة والتضاريس في مواد بنائها وتقنياتها كالحواضر الصحراوية الأخرى ولكنها لم تبلغ درجة الأمصار الكبيرة لأنها لم

¹ وادي الجردانية تسمية تطلق على القسم الأسفل من مجرى وادي سوف القديم.

² اللجة : جمع لجاج ولج ولجج ماء كثير تصطبغ أمواجه ، الماء الكثير عميق القعر " قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وكشفت عن ساقها " سورة النمل الآية 44، وقيل من لجج، لاح أى يبحث عن ملجأ أو مخابأ.

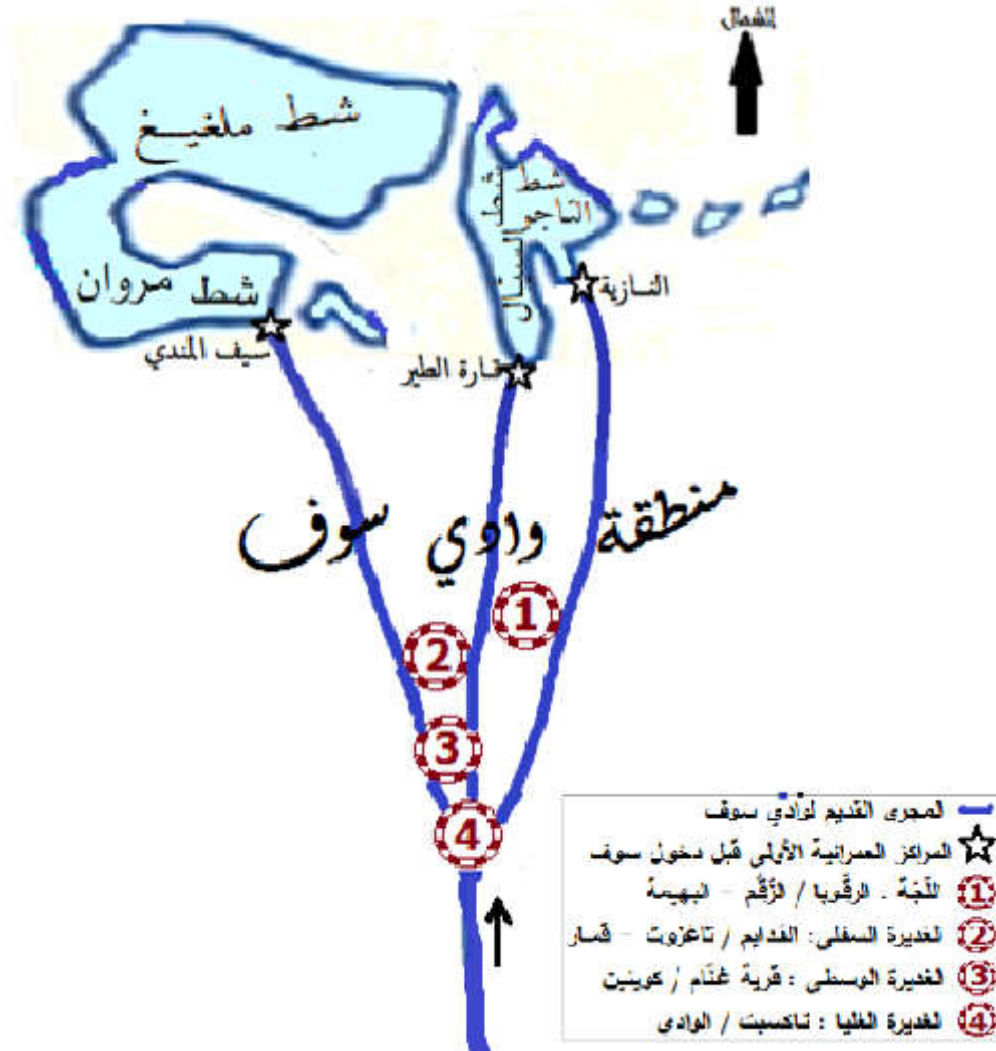
تكن يوما مقر للحكم أو ولاية تابعة لإقليم مجاور أو دولة، فكانت تدير بنظام قبلي محلي أو نظام الجماعة الموروثة عن الإباضيين الذين مروا بالمنطقة¹.

رغم هذه الاستقلالية التي تمتعت بلاد سوف فإنها لم تكن منعزلة عن الأحداث السياسية المحيطة بها، حيث دانت بالولاء في أول أمرها بحكم العلاقة الروحية للشابيين في مرحلة الإمارة في القيروان 1535-1557 م، ثم تحالفت مع بايات تونس خاصة حمودة باشا 1631-1666م ضد الشابين كما حاول سكانها التقرب من باي قسنطينة بوساطة من أهل الزاب، و يمكن إرجاع السبب في ذلك إلى ظروف تعمير بلاد سُوف التي سبقت الإشارة إليها.²

من بين هذه القرى التي ظهرت في منطقة سوف قرية الزُفْم التي تعتبر أول ما تقرى بمنطقة سوف و حاضرة الوادي باعتبارها أكبر القرى وأكثرها سكانا وبلدة قمار باعتبارها أكثر تحضرًا وعمارتها أكثر تنظيما. (الصورة 04)

¹ إبراهيم العوامر، الصروف، ص. 181 و 189

² لقد وردت الكثير من الإشارات الدالة على أن سوف لم تكن في أول أمرها موطن للاستقرار وإنما كانت ملجأ وملادا للفارين من تسلط الحكام و بحثا عن المرعى المتسع في كتاب العدوانى منها: "لقد رأينا بلادا متسعة وخالية من المخزن" وكذلك "سوف لم يكن فيها ساكن حليف ولا سيد" أنظر: محمد العدوانى، تاريخ العدوانى، ص. 82 / 93.



(الشكل رقم: 14): مخطط تقريبي يوضح كيف تقاسمت طرود عُدران الوادي القديم

عن الطالب

1. قرية الرِّقْم (اللُّجَّة)

اللُّجَّة ، الرِّقْم القديمة أو قرية العدوانى¹ يُعتقد أنها أول قرية عُمرت بمنطقة وادي سوف وهناك من يعتبرها من قصور عدوان الأولى التي ظهرت في النازية.

1.1. ظروف التأسيس و النشأة :

تعتبر قرية الرِّقْم جزء من بلدية حساني عبد الكريم الواقعة على الطريق الوطني رقم 16 الذي يربط ولاية الوادي بولاية تبسة ، نشأت قديما على طريق القوافل الشمالي الشرقي الذي يربط بلاد سوف ببلاد الجريد التونسية وبلاد النمامشة.

سميت الرِّقْم في أول أمرها بالْمَنَعَة وهو المصطلح الذي عُرِفَتْ به كل أرض سوف فهي أم الهارب² ثم اللُّجَّة لأنه يعتقد أنها كانت الأوفر ماءً من الغُدْران الأخرى وهناك من يقول من لاج يُلَوِّج أي يبحث عن ملاذ وملجأ، ثم سميت الرِّقْم نسبة للولي الصالح عمارة بن محمد اللحي³ المعروف بالرِّقَام⁴.

يذكر العدوانى أن اللُّجَّة كانت من نصيب حامد أحد أبناء طرد بن دابس الخمسة الذين توغلوا في أرض سوف حوالي نهاية القرن 9 هـ/15م ، ويوجد تضارب كبير حول أول عمارة الرِّقْم بين الرواية الشفهية المحلية وبين المصادر المكتوبة التي تذكر أنه في سنة 1195هـ/1781م كان رحيل أهل البَهِيمَة⁵ من " القدايم"!! وفي نفس السنة كان خراب عامرة قمار؟ وبعده بسنة كان رحيل أهل الرِّقْم من قريتهم!⁶ وظهرت بدل الرِّقْم القديمة قريتان متجاورتان :

¹ سُميت كذلك لأن مؤرخ وادي سوف محمد العدوانى نشأ فيها و بها دفن.

² محمد العدوانى، المصدر السابق، ص.117

³ نفسه، ص.310

⁴ رَقْم الطعام أي ابتلعه دون مضغ، أنظر : ابن منظور، لسان العرب ص.1845 والرِّقَام هو الذي يبتلع التمر مع الرُّبْدَة أو اللبن دون مضغه وتسمى الرِّقْم، و طريقة أكل التمر المعجون منزوع النوى ما زالت متوارثة إلى اليوم عند كبار السن خاصة العجائز.

⁵ تختلف الروايات حول أصل تسمية البهيمَة والرواية المتواترة أن المنطقة كانت براح ترعى فيه المواشي وحدث أن ماتت أنثى حمار (أتان) في ذلك الموضع فسميت بها.

⁶ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص.213.

- القرية الغربية عُرِفَت بالبَهِيمَة .
- القرية الشرقية عُرِفَت بالزَّقْم الجديدة.

أسس سكان الزَّقْم القديمة الذين ارتحلوا شرقا حَيَّين سكنيين منفصلين عن بعضهما :

- الأول حي القبالة (الجنوبيين) ويُعتقد أن أغلب من سكنه من قبيلة عدوان وفيه أنشأ المسجد الجامع الذي عُرِف بـ(مسجد العدواني) والذي يقول عنه سكان المنطقة أنه أقدم مسجد بني في منطقة سوف عامة ويرجحون أنه عام 967هـ / 1560م¹
- الثاني حي الظهارة (الشماليين) يقال أن أغلب سكانه الأوائل من طرود² الذين كانوا مع حامد و بعد مُدّة غير محددة أسسوا مسجدا لهم (جامع الظهارة) وسُمي بمسجد سيدي عبد القادر نسبة للطريقة القادرية.

2.1. تطور عمران قرية الزقم :

مع مرور الزمن أخذ الحَيَّان بالتقارب عمرانيا من بعضهما خاصة مع توافد أطراف أخرى لتملأ الفراغ بين الحيين وتقرب بين القبيلتين وصار يربط بينهما شارع طويل يمتد من الباب القبلاوي إلى الباب الظهراوي ونرى أن تطور القرية كان على مراحل كما يلي :

أ- مرحلة التأسيس (القرن 12هـ/18م):

حسب العوامر فإن الزقم الجديدة عمرت نهاية القرن 12هـ/18م، حيث تشكلت من حَيَّي القبالة أو الجنوبيين وأغلب ساكنته من عدوان و أولاد الشواوي وتُرجع الرواية المتواترة أصل هؤلاء إلى امرأة أمازيغية زُوِّجَتْ من أحد فضلاء القرية فعُرِف أولادها منه بأولاد الشاوية نسبة إليها ثم الشواوي³! ونجد رواية العدواني تقول أن حامد (بن طرد) بعد

¹ André-Roger Voisin, Le Souf. Monographie, EL-Walid Editions, El-Oued, 2004, p.88.

لم ينكر فوازان Voisin مصدره حول هذا التاريخ وإنما أرجع ذلك لروايات شفوية، ثم إذا كان أهل الزَّقْم يقولون أن اللُجّة القديمة كانت عامرة قبل أن يهجروا سكانها فلا نعتقد أن القرية لم يكن بها مسجد وإذا كان فلا يُعقل أن يكون خارج القرية في منطقة خالية !!

² تذكر بعض المصادر الشفهية أن حامد بعد إستقر مدة في اللجة ترك ذريته وغادر ناحية الجبل ليستقر هناك في الموضع المعروف باسمه "زريبة حامد" من إقليم الزّاب الشرقي.

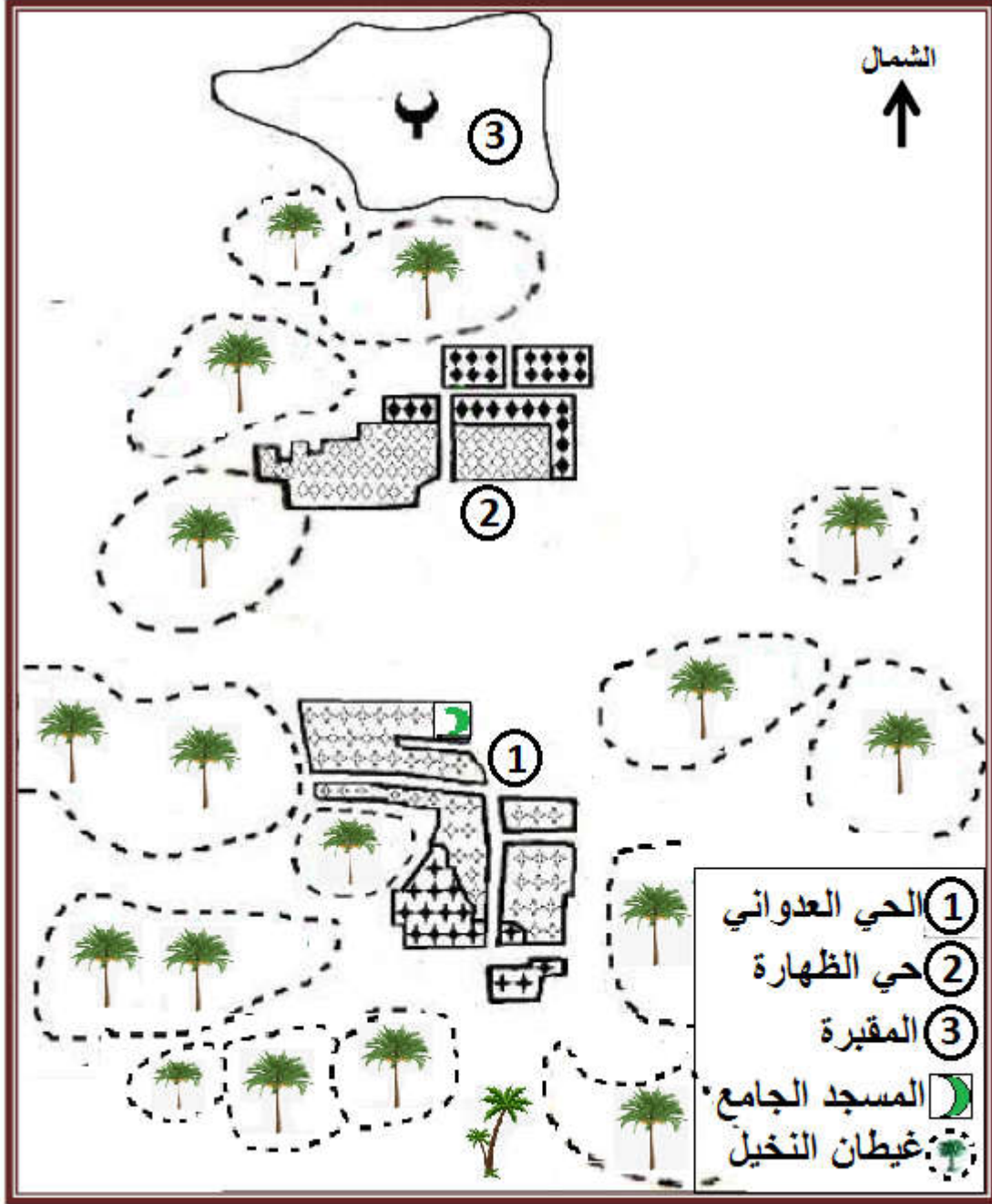
³ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص.319.

وفاة زوجته الأولى تزوج من رُقية المَجُورية¹ فولدت له محمد² أي أن محمد بن حامد أمه شافية وقد يكون أحفاده هم من لقبوا بالشواوى، وإذا صحت هذه الرواية نقول أن الشواوى لم يأتوا متأخرين بل هم من مؤسسي القرية الأوائل.

في الجهة الشمالية حيث حي الظهارة نجد الباب الشمالي للقرية مدخله ملاصق لجامع سيدي عبد القادر (نسبة للطريقة القادرية) وتقول الروايات أن أصلهم من طرود. (الشكل 15)

¹ نسبة إلى جبل مجور (الأوراس) قرب نقرين بنيسة.

² محمد العدوانى، نفس المصدر، ص. 135.



(الشكل رقم: 15) مخطط توضيحي قرية الرّقم حوالي القرن 12هـ/18م

إعادة تصور عن الطالب

ب- التوسعة الأولى القرن 13هـ/19م :

عرفت القرية توافد عناصر سكانية جديدة ونزلوا في الطرف الغربي للبلدة وعرفوا بأولاد الخضراء¹ وأولاد سعيدان²، حيث يذكر العوامر أنه في حوالي 1285هـ/1869م وقع جفاف وقحط في بلاد النمامشة والزيبان مادفع سكانها إلى اللجوء إلى بلاد التمر (أرض سوف) الذين استقبلوهم و أكرمهم³.

صار لهذا الحي مسجده الذي يعرف بالجامع الأصفر⁴، كما جعل له باب (الباب الغربي) يفتح إلى الغرب حيث توجد الزقم القديمة.

ج- التوسعة الثانية القرن 14هـ/20م :

في مطلع القرن الـ14هـ/20م ضاقت الأحياء الأولى بساكنيها فظهرت مجموعة من المنازل لأخلاق من الناس على الطرف الشرقي للبلدة حيث أنشأت زاوية أولاد لخضر⁵، وصارت هذه المنازل متصلة بشارع خارجي (فصيل) بحي أولاد الشواوي جنوبا، و صار لها زقاق يتصل بالشارع الرئيسي ويؤدي إلى الباب الشرقي اي يفتح على المقبرة الشرقية وزاد نشاط الزاوية التي تحولت إلى مسجد للصلاة⁶. (الشكل 16)

¹ أولاد الخضراء بطن من قبائل سليم العربية استقرت في برقة الليبية ونزح بعضها إلى تونس وهناك من يلجأهم بعرب الذواودة الذين إمتدت مضاربهم في كل الزيبان وقد يكون سكان الزقم الأوائل منهم وإلى اليوم مازال أحد أحياء قرية الزقم يعرف بهم.

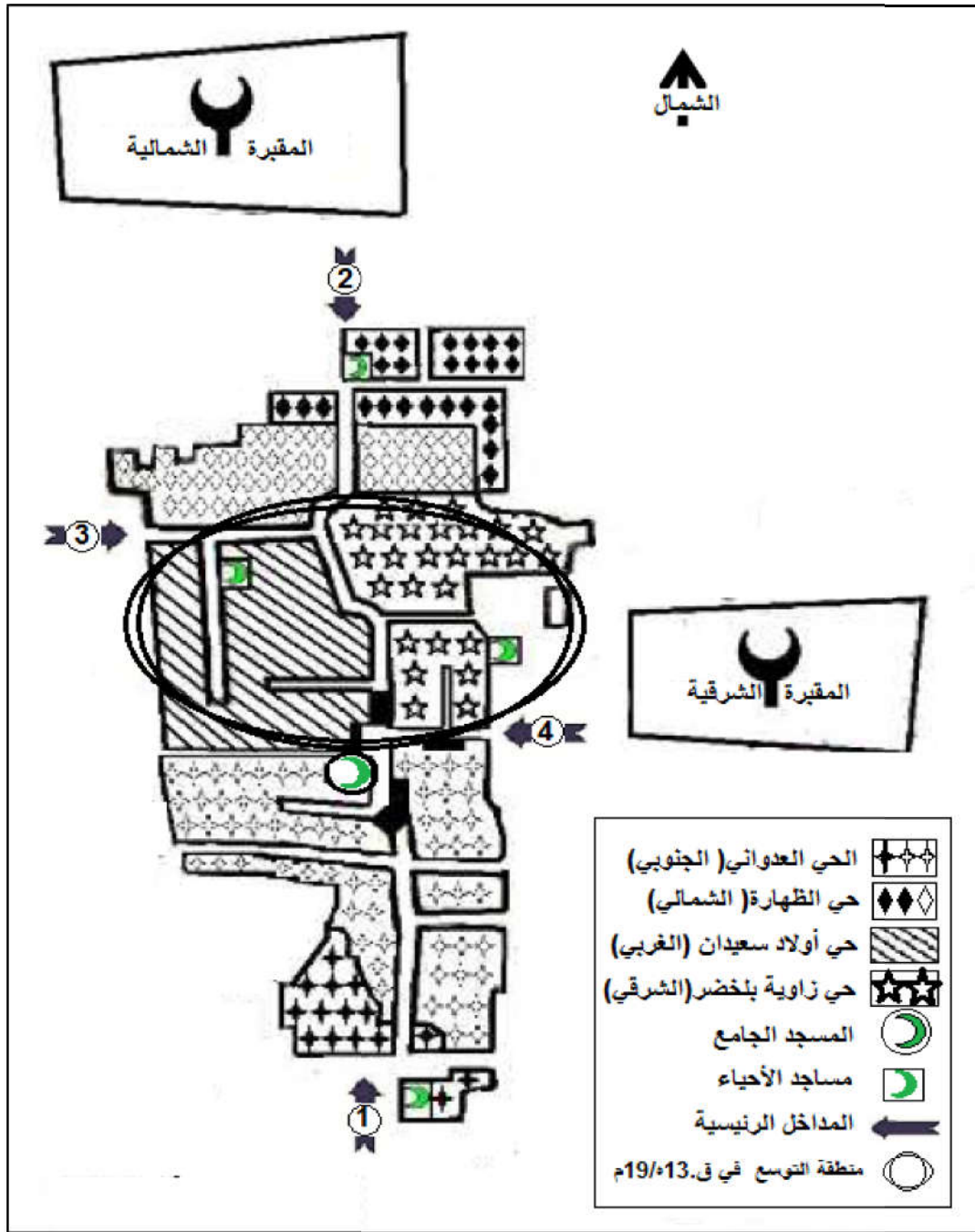
² أولاد سعيدان من النمامشة من قبيلة هواره البرنسية ويُعتقد أنهم نزحوا إلى سوف من جبل أحمر خدو بالأوراس. أنظر: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مج.6، ص.183.

³ إبراهيم العوامر، المرجع نفسه، ص.251.

⁴ يقال لأن لون ماء بئر يميل إلى الصفرة.

⁵ نعتقد أن أولاد لخضر نزحوا من قفصة في الجنوب التونسي وينسبون لعرش الجواير من قبيلة سُليم العربية.

⁶ حسب المخطط الذي وضعه (Bataillon) فإن الحيين الغربي والشرقي أخذا بالتشكل مع مطلع القرن الـ20 م ولكن لا نظن أن الزقم منذ نشأتها نهاية القرن 18م ظلت كما هي لم تشهد حركية للسكان. أنظر



(الشكل رقم: 16) مخطط لقرية الزقم نهاية القرن الـ13هـ/ 19م

عن: Bataillon Cl. بتصريف

3.1. الخصائص العمرانية لقرية الزقم:

يتشكل النسيج العمراني للقرية القديمة أساسا من منازل لا تختلف عن نمط المساكن في عموم سوف فهي وحدات سكنية صغيرة تُعرف بالحوش متلاصقة فيما بينها كخلايا النحل لكنها منتظمة، تترك فيما بينها أزقة في شكل ممرات ضيقة لاتتجاوز المترين عرضا وأحيانا أقل.

- شَكْل الزقاق الرئيسي الممتد طوليا من حَيِّ الظهارة (أولاد حامد) والقبالة (العدوانيين) محور تطور القرية ومنه تتفرع الأزقة الجانبية ولكن ليس تناظريا .

- سوق البلدة القديمة ضيق عبارة عن محلات متلاصقة ومتقابلة ماعدا بالقرب من ساباط الجماعة عند جامع العدوانى نجد برطال مسقوف تحمله أقواس تليه ساحة السوق (رحبة سعيّدة) .

- الحي العدوانى (القبلاوى) يعد مركز الثقل البشري للقرية لذلك كان المسجد الجامع (الجامع العدوانى) وسطهم وكذلك سوق البلدة القديم..

- ارتبط تأسيس المساجد بانتشار الصوفية فمسجد العدوانى ينسب للطريقة الرحمانية ومسجد الظهارة للطريقة القادرية ومسجد سيدي علي عند الباب القبلاوى للطريقة العزوية ويبقى الجامع الشرقى وزاوية أولاد لخضر يُجهَلُ انتماؤها رغم أن هناك من يقول أنها للطريقة الشاذلية !!؟

- تعتبر الكتلة العمرانية لقرية الرُّقْم صغيرة مقارنة بقمار أو الواد لذلك نجد أزقتها قليلة أهمها الشارع الرئيسي الممتد من الباب القبلاوى إلى الباب الظهراوى تتفرع منه أزقة شرقا وغربا أهمها الزقاق الذي يصل إلى الباب الشرقى الذي يؤدي إلى صحن المقبرة الشرقية والثانى الذي يفتح على الباب الغربى ويؤدي إلى الرُّقْم القديمة .

- تشتمل قرية الرُّقْم على مقبرتين واحدة في الجهة الشمالية بعيدة نسبيا عن الباب الظهراوى والثانية في الجهة الشرقية قريبة من مسجد وزاوية أولاد لخضر ومقابلة للباب الشرقى.

يُعتقد أن المقبرة الشمالية هي الأقدم بسبب موقعها القريب من الرِّقْم (القديمة) وكذلك قربها مما يعتقد أنه موقع الرِّقُوبا (القرية القديمة) في الجهة الشمالية من البلدة ويوجد فيها ضريح مؤرخ سوف العدوانى كما أنها تبدو ظاهرة في أقدم صورة جوية للبلدة لسنة 1957. (الصورة 05)

2. حاضرة الواد:

1.2 - ظروف التأسيس:

تمثل مدينة الواد مركز ولاية الوادي بحكم موضعها المتوسط بين قرى سوف، نشأت على أنقاض قرية تكسبت القديمة أول حاضرة عمرانية بنيت في المنطقة من قبل البربر في العهد الإسلامي، وظلوا مقيمين بها حتى نازعتهم عليها قبيلة طرود العربية وأخرجتهم منها في حوالي 800هـ/1398م¹.

بعد وفاة جد طرود عند النازية وعملا بوصيته دخل هؤلاء منطقة سوف متتبعين مجرى الوادي ونزل قايد وأبناءه ومن تحته من عدوان في منزل أولاد أحمد من عدوان² قرب عريش سيدي المستور³ جنوب شرق موضع تكسبت القديمة منزل زناته الأول بسوف .

تزايدت أعداد الوافدين الجدد من طرود وعدوان وانتشروا حول غدران الماء من سيدي مستور إلى أعميش ووادي العلندة ما أثار مخاوف زناته من تناقص الكلاء، وكان ذلك سببا في اندلاع مناوشات بينهم والوافدين الجدد من العرب استمرت لنحو 15 سنة حتى تمكن العرب من خداع زناته⁴ واقتحموا تكسبت وخربوها فمات من فيها أو خرج نحو المغرب .

¹ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص. 161

² إذا كان أولاد أحمد من طرود معنى هذا أن طرود دخلوا سوف مبكرا وليس كما يذكر الصروف في حوالي 800هـ والأصح أنهم واحدة من العائلات الخمس لقبيلة عدوان. أنظر: تاريخ العدوانى ص. 146 ، كما أن صاحب الصروف يذكر أنهم (أي عدوان) تعايشوا مع زناته في النازية ثم في جلهمة ونعتقد كذلك في تكسبت. أنظر: الصروف، ص. 145- 146

³ سيدي المستور رجل عابد ومتصوف نذكر المصادر أنه أتى من المغرب وأقام عريشا من القش والحلفاء ببلد سوف قرب زناته قبل مجيء العرب إليهم ويعتقد أنه من أولاد الشايب من قبائل عدوان.

⁴ يُعتقد أن زناته كانوا على مذهب الإباضية حيث يخبر صاحب الصروف أنهم كان لهم مجلس شورى بمعنى الجماعة ، وأنهم بعد خراب تكسبت اتجهوا غربا والأرجح إلى وارجلان ووادي ميزاب

أثناء الصراع شرعت طرود في إقامة منازل من الحجارة جلبت من القدائم¹ قرب جلهمة النصارى والجبس² من سندروس، وتمكنت سرا من إقامة 16 منزلاً في موقع البلد³ خلال ليلتين، وعندما اكتشفت زناته الأمر زادت طرود في إنجاز منازل من زرائب مصنوعة الحلفاء والأخشاب لقلعة الحجارة وربحا للوقت وبعد خراب تكسبت القديمة أخذت حجارته لاستكمال عملية بناء البلد وبذلك ظهرت حاضرة الوادي عند مطلع القرن 9 هـ/ 15 م في شكل ثلاث تجمعات سكانية هي تكسبت القديمة في الطرف الشمالي والتي تحولت إلى موضع آخر بعد خرابها وحي أولاد أحمد قرب سيدي مستور وحي طرود" البلد".

2.2 - تطور عمران المدينة:

يمكن تقسيم تطور المدينة إلى مراحل هي:

أ- التأسيس خلال القرن 9 هـ/ 15 م :

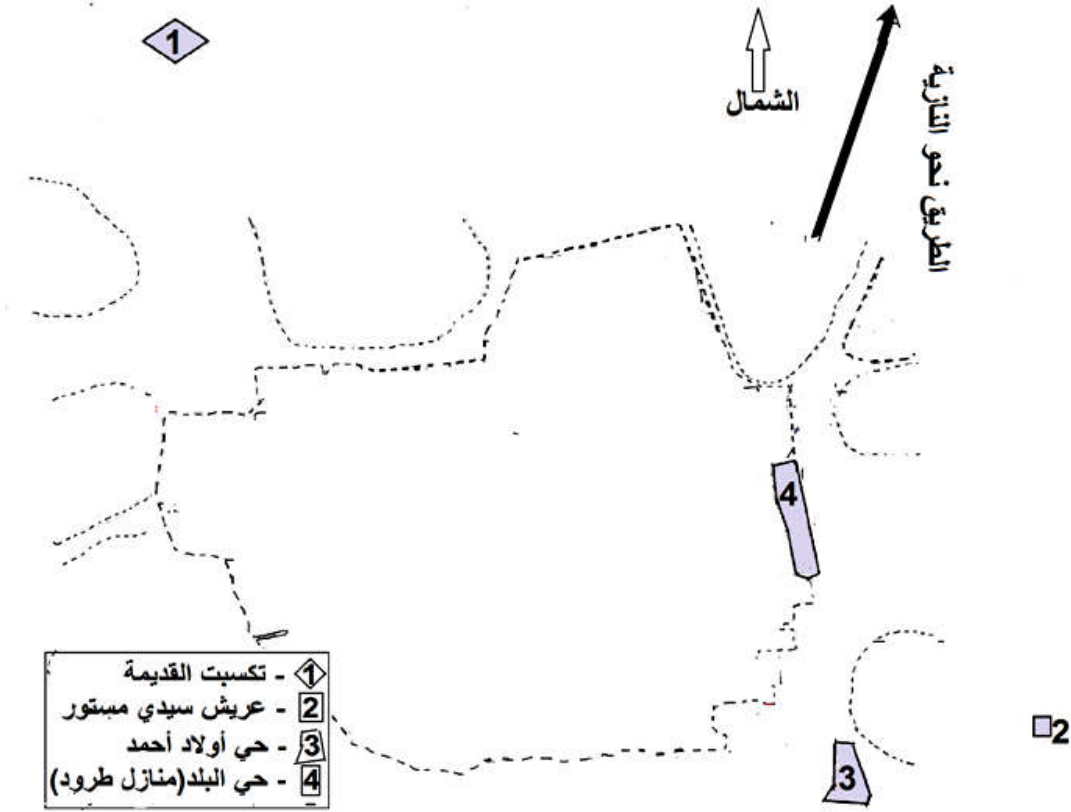
يُعتقد أن قرية تكسبت كانت موجودة على الطرف الغربي للمجرى القديم للوادي في الجهة الشمالية من نزلة ضَوَّاي رُوَحَه منذ نحو 522 هـ/ 1128 م كما ظهرت منازل أولاد أحمد إلى الجنوب منها بمحاذاة عريش سيدي مستور وخلال الصراع مع زناته تمكنت طرود من بناء 16 منزلاً⁴ في موضع وسط بين الحيين السابقين في الموضع المعروف بالبلد) يشكل حالياً الواجهة الشرقية للحي القديم . الأعشاش (-) ليظهر مع نهاية القرن 9 هـ/ 15 م تجمع لثلاث مراكز سكنية ممتد من الجنوب إلى الشمال وهي حي أولاد أحمد، حي البلد وحي تكسبت ستمثل فيما بعد نواة حاضرة الوادي. (الشكل 17)

¹ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص. 161.

² الجبس الذي أستخدم أول الأمر في عمارة سوف هو جبس طبيعي يكون في هيئة تربة كلسية توجد على ظاهر السطح تسمى بـجبس البرانيس كان يستعمل في غسل الصوف وتبييضها .

³ يُعتقد أن البلد كانت موجودة جنوب تكسبت القديمة وهي الحد الشرقي للأعشاش الممتد من جامع السوق إلى موقع زاوية سيدي سالم.

⁴ إبراهيم العوامر، الصروف، ص. 170.



(الشكل رقم: 17) مخطط لأحياء مدينة الوادي عند التأسيس في القرن 9هـ/15م

إعادة تصور عن الطالب

ب- التوسعة الأولى في القرنين 11-12هـ/17-18م:

بدأت إثر زيارة الداعية سيدي المسعود الشابي الأولى¹ إلى منطقة سوف واستضافته من طرف الشيخ العش بن محمد اليربوعي² الذي أكرم وفادته فدعا له بالبركة و أوعز له ببناء مسجد فأختار له موضعاً وسطاً بين الحيين (حي البلد و حي أولاد أحمد)، كان ذلك حوالي 1007هـ /1599م³ والذي سيعرف لاحقاً بمسجد سيدي المسعود تيمناً واعترافاً بفضلته في دعوة أهل المنطقة إلى طريق الحق، ويدعوة الشابي تزايدت ذرية العش وتكاثرت منازلهم ليتوسع البناء في الحي إلى الغرب من الجامع و صار الحي يعرف بحي الأعشاش⁴، ومع توافد مهاجرين جدد ظهرت الحاجة لبناء مسجد جديد عرف بجامع أولاد خليفة بن العش أو مسجد بئر الجماعة حوالي سنة 1112هـ/1700م.

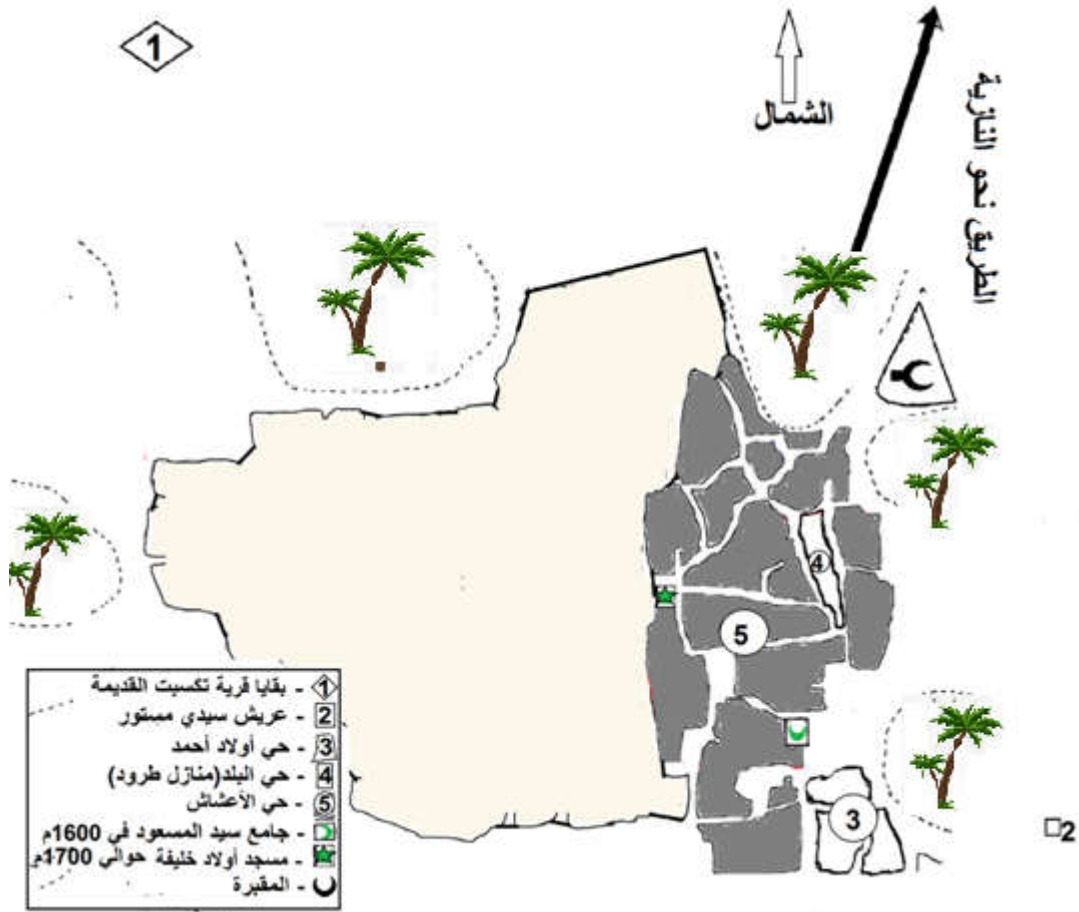
منذ ذلك الحين تحولت بلد سوف إلى مركز لاستقطاب جماعات جديدة وأخذت تزدهر فيها غراسة النخيل وتكاثرت حولها تجمعات سكنية لعائلات كبيرة تُعرف بالنزلة (ج. نزلات)، كانت في بادئ الأمر مُشكلة من عرائش الحلفاء والخشب أو من زرائب جريد النخل أو من الخيام (بيت الشعر) ثم تحولت إلى مباني من الحجر والجبس وبذلك دخلت قبيلة طرود ومن دخل تحت عميرتها في حياة الاستقرار بعد الترحال.(الشكل18)

¹ سيدي المسعود الشابي (970-1028هـ) نسبة إلى الطريقة الشاذلية عرفت فيما بعد بالطريقة الزروقية، زار سيدي المسعود منطقة سوف عدة مرات مع مطلع القرن 11هـ / 17م بهدف الإصلاح ومحاربة البدع والجهل، كان له دور كبير في إحياء الدين بالمنطقة، كما ساهم في تأسيس مسجدين أحدهما بالوادي والثاني بقمار، دفن بزوايته بششار بخنشلة. أنظر: التليلي محمد الطاهر، الفذلقة، مجلة العرب، ج7 و8 الرياض 2004، ص.469. أنظر أيضاً: علي الشابي، تاريخ الشاذلية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية تونس، ط.2015، 1، ص.18.

² هو العش بن عمر بن سليمان بن محمد اليربوعي من قبيلة تميم العربية، كان وزيراً في بلد تلمين الكبرى من عمل نفاوة، إلتجأ هو وأولاده السبعة إلى سوف عندما أحس بمكيدة تدبر له من طرف الأمير جعل له منزلاً بين منازل طرود وأولاد أحمد حتى مجيء المسعود الشابي.

³ يعتبر هذا التاريخ افتراضياً بقرينة أن الثابت هو تاريخ تأسيس مسجد قمار في 1597م أما مسجد الوادي فلا تذكر المصادر متى كان تاريخ إنشائه كما أن العدوانى لا يذكر أيّ من الزيارات التي قام بها لبلاد سوف.

⁴ هناك اختلاف حول تسمية حي الأعشاش فهناك من ينسبه إلى أولاد العش اليربوعي، وهناك من يرى نسبة إلى طبيعة المساكن فأغلبها كانت عشش من القش والحلفاء أو بيوت الشعر (الخيمة) والله أعلم.



(الشكل رقم: 18): تأسيس حي الأعشاش في حاضرة الوادي

ما بين القرنين (11-12 هـ / 17-18م)

إعادة تصور عن الطالب

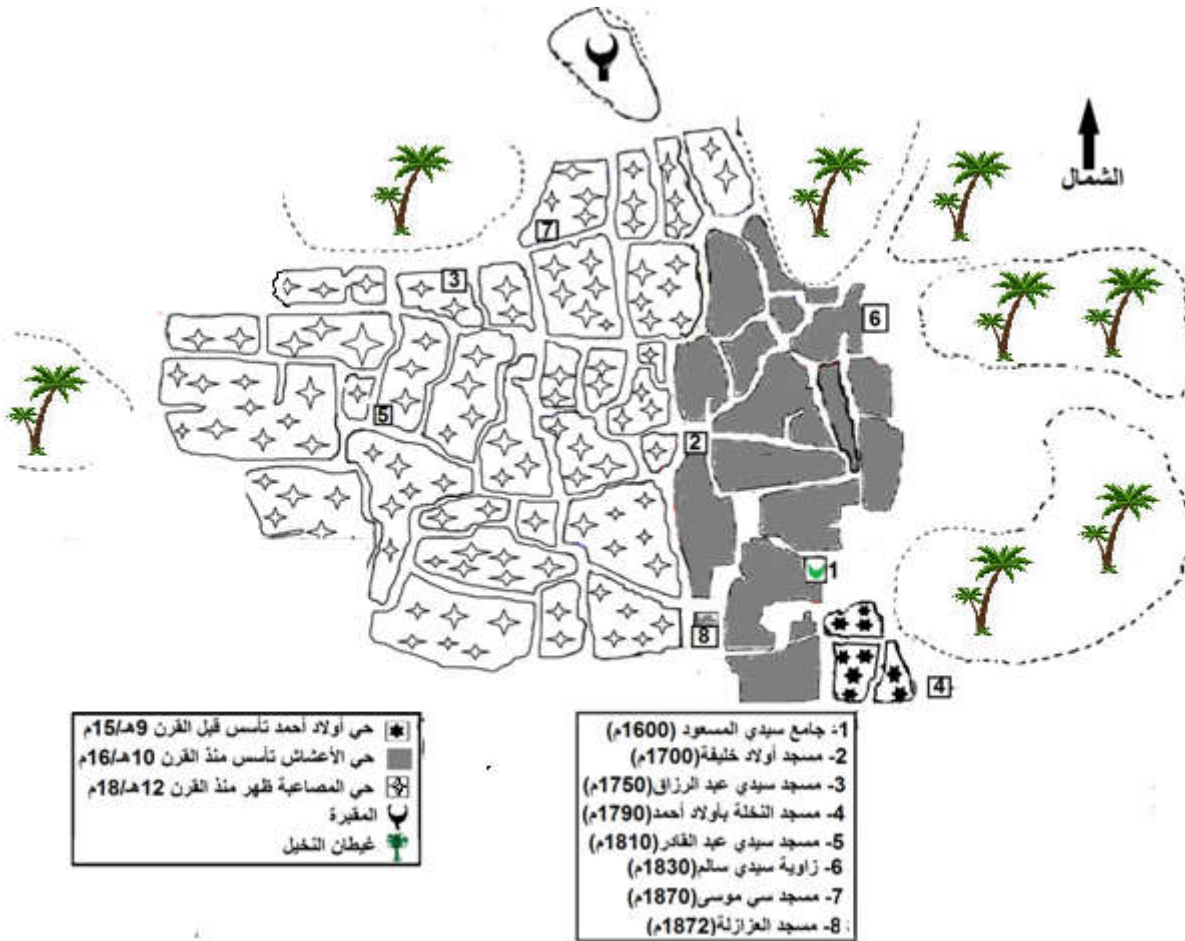
ج-التوسعة الثانية في القرنين(12-13هـ/18-19م):

ازدهرت عملية غراسة النخيل في منطقة سوف التي تتطلب إنجاز حفر كبيرة في الأرض وإخراج الرمال وتكديسها على محيطها من أجل الوصول إلى طبقة المياه السطحية، فإذا غرست الفسيلة سرعان ما تمتد جذورها للماء. وهكذا انتشرت غيطان النخيل في منطقة سوف، وصارت بذلك تنتسب اقتصاديا واجتماعيا لإقليم الجريد وتحولت قبلة لهجرات عدة من جهات مختلفة، كالقبائل العربية الوافدة من المشرق والذين استقروا مؤقتا بإفريقية والزاب، وبسبب الاضطرابات السياسية هناك¹ شكلت سوف لهؤلاء ملجأ وملاذا وتزايد إعمار حاضرة الوادي، التي عرفت توسعا عمرانيا في الجهتين الشمالية والغربية من المدينة، وظهر بذلك حي جديد أكبر من الأول عُرف بحي المصاعبة، الذي أقيم في طرفه الشمالي مسجداً عرف بجامع الظهارة أو مسجد "سيدي عبد الرزاق" سنة 1163هـ/1750م.

بسبب الضيق وعلاقات المصاهرة أنتقل بعض سكان الأعشاش إلى حي أولاد أحمد المجاور ليعرف هذا الأخير بدوره توسعا ناحية الجنوب باتجاه المقبرة، كما أنشأ للحى سنة 1204هـ/1790م مسجدا عرف بجامع النخلة.

بالموازاة مع هذه الحركية السكانية و نتيجة لما وقع للشّابيين من انحصار في تونس، ستعرف حاضرة سوف دخول طرق صوفية أخرى وتأسيس زوايا ومساجد تابعة لها، ففي وسط حي المصاعبة مسجد سيدي عبد القادر سنة 1224هـ/1810م، وإلى الشمال من البلد تم بناء زاوية ومسجد سيدي سالم الرّحمانى سنة 1245هـ/1830م، كما سيتمدد حي المصاعبة ناحية الشمال وصولا إلى مقبرة الأعشاش ويؤسس بجوارها المسجد الحسنى المعروف "بمسجد سيدي حمزة" سنة 1286هـ/1870م. (الشكل 19)

¹ دخلت تونس مرحلة من الصراعات بين البايات في مقرهم تونس والشّابية في القيروان ثم بين بايلك الشرق الجزائري وحكام تونس خلال القرن الـ17م، أنظر: علي الشّابي، نفس المرجع، ص 366.



(الشكل الرقم:19): تطور حاضرة الوادي ما بين القرنين (12-13هـ/18-19م)

إعادة تصور عن الطالب

3.2 - خصائص تطور عمارة الوادي:

- كانت في بدايتها عبارة عن تجمع لثلاثة مراكز سكنية تقريبا على امتداد شمال جنوب لثلاثة عناصر سكانية دخلت المنطقة على فترات متباعدة .
- مثل المسجد الجامع "سيدي المسعود" قاعدة المدينة ومنطلق توسعها العمراني في الاتجاهات الثلاثة (شمال /غرب/ جنوب) في حين شكلت المساجد الأخرى نهايات لكل مرحلة توسعة .
- مثل حي البَلْدُ وحي أولاد أحمد حاجزا أمام تقدم العمران ناحية الشرق حيث تسود الأرض الحُرّة فانتشرت غيطان النخيل، في حين كان التوسع العمراني ناحية الغرب فالشمال ثم الجنوب لاحقا .
- كان توسع المدينة عشوائيا غير منتظم لم يخضع تمدد الشوارع والأزقة لنظام هندسي محدد كثيرة التعرجات تحكمت فيه طبيعة التربة والمساحة حتى شَبّه Cl.Bataillon حاضرة الوادي بقوقعة السلحفاة ¹ (الشكل 20)
- نشأت حاضرة الوادي الأولى فوق قارة ² مرتفعة نسبيا عن ما حولها تأخذ في الانحدار ناحية الشمال حيث توجد السبخة وناحية الشرق والغرب حيث التربة الرخوة (الحُرّة) غيطان النخيل .
- بعد نحو قرن من تأسيسها ستشكل غيطان النخيل نطاقا دائريا وحاجزا يعيق سهولة الوصول للمدينة (كثرة الرمال تعيق على خِفّة الحركة) وتكون شبه محصنة من الغارات المفاجئة وستظهر مايبين هذه الغيطان تجمعات سكانية صغيرة (نزلة) لتكون بمثابة مراكز مراقبة متقدمة.

¹ BATAILLON Cl. Le Souf, Etude de Géographie Humaine, p.67² القارة هي الواسع المطمئن من الأرض عكس الحرة هي المنخفض الرخو من الأرض.

- عرفت بلاد سوف توافد المزيد من القبائل خاصة من بلاد الجريد و الزاب لتأخذ المدينة في التوسع ويتوالى تشييد المساجد، بدأ بالمسجد الموجود بأولاد خليفة " مسجد بئر الجماعة" إلى جامع الظهارة شمالا وجامع النخلة شرقا، و مسجد سيدي عبد القادر غربا، و زاوية سيدي سالم في الركن الشمالي الشرقي ، وهكذا اتسعت المدينة شمالا وغربا كما تمدد حيّا الأعشاش و المصاعبة ناحية الجنوب والشرق باتجاه حي أولاد أحمد. (الصورة 06)



(الشكل رقم: 20) حاضرة الواد القديمة(الأعشاش)

أو قوقعة السلحفاة كما وصفها Bataillon

3. بلدة قمار:

تعد قِمَار من الحواضر الأولى في المنطقة بل أكثرها أهمية، فإذا كانت قرية الرِّقْم هي الأقدم عمرانياً "هذا ما يقوله أهلها!" وإذا كانت حاضرة الوادي تمثل النّقل البشري لكبر قبيلة طرود ومن دخل في عَميرتهم فإن حاضرة قِمَار مثلت المركز الديني والاقتصادي لكل بلاد سوف لما اشتملت عليه من مرافق دينية ومدنية أهلتها لذلك.

يعتقد الكثير من الباحثين أن أصل قِمَار وتاغزوت واحد وهو قرية جلهمة التي كانت بها صوامع¹ النصارى من بقايا الروم والبربر ثم القدايم أو (تأقدمات) التي يُعتَقَد أنها ضَمّت بقايا البربر الأوائل وبعض من عدوان الذين وفدوا قبل دخول عرب طرود إلى سوف في القرن الـ9م ومنهم زايد الذي نزل بالغديرة السفلى .

1.3. ظروف التأسيس:

تكاد الروايات تتفق أنه بعد خراب القدايم كان أخوين من بقية عدوان هما من أسسا قريتي تاغزوت وقِمَار ولكنها تختلف حول الظروف التي أدت إلى ذلك حيث يذكر العدوانى: " أنه حين نزول المسعود الشابي بقرية جلهمة فوجدهم جماعة من عدة أربعين رجلا... وكان فيهم رجلين "محبوب وعمران" استضافاه في عريش لهما كانا يقرأان فيه القرآن وعندما همَّ الشيخ بالمغادرة سألاه: " أن يدعو الله أن تنتقل جلهمة (أي يغادرها أهلها لأنها بلد كفر) وتأتي إليهما حتى تُسمى باسمهما، فأصابها وباء فخرّجهم من قريتهم حتى نزلوا بعريشهما"²، أما رواية التليلى³ أنه بعد خراب القدايم ومغادرة أهلها أثر أخوان من بقايا عدوان البقاء ولكنهما اختلفا حول موقع مُكْنِهما فنزل أحدهما بتاغزوت قرب جلهمة إلى الغرب من موقع القدايم، بينما نزل الثاني عند موقع قِمَار الحالي إلى الشمال

¹ صَوْمَعَة : ج صَوْمَعَات وصَوَامِع: صَوْمَع؛ دَيْر، بيت العبادة عند النّصارى "وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْجَمَتْ صَوَامِعُ وَبُيْعٌ" سورة الحج - الآية 40.

² محمد العدوانى، المصدر السابق، ص.125.

³ التليلى محمد الطاهر من علماء المنطقة المخضرمين، ولد سنة 1910 في ظل الاستعمار، ونشأ في كنف الحركة الإصلاحية، عاش العديد من علماء البلدة، عرف بدوره الإصلاحي، شهد مرحلة الاستقلال له عدة كتابات في الفقه والتاريخ منها كتاب مسائل قرآنية، توفي سنة 2002م.

من القدايم وقال للآخر "أحط هنا أَقْمَارَه فيك"¹ أي نِكَاية فيك، فسمي أولاده من بعده بأولاد القَمَّار.

نجد كتاب العدوانى(المصدر الوحيد لتاريخ المنطقة) لا يذكر تسمية قِمَار!؟... ولكنه يذكر شخص محمد" الصيَّاد " في تاغزوت الذي زوّج أبنته لِعَزَّاز²، نعتقد أن ذريته وأحفاده هم من تَسَمَّوا بـ(أولاد القَمَّار) دلالة على مهارته في القنص والصيد، وأن تسمية تاغزوت أمازيغية³ تدل على الموضع الجغرافي وليس التجمع السكاني العمراني أي قبل استيطان العرب في المنطقة، وأن تاغزوت الحالية قد تكون عُمُرَتْ من طرف أولاد العرش خلال القرنين 11-12هـ/17-18م أي بعد حاضرة قِمَار التي تأسست حوالي القرن 9هـ/15م⁴، وما يَدْعِم هذا الاستنتاج أن كتاب الصروف في عرضه لغزوات بني جلاب⁵ لسوف نجده في الغزوة الأولى والتي قام بها أحمد بن محمد الجلابي في 1180هـ/1766م نجده يذكر أن أحمد أشتبك مع أهل الواد ثم هاجم قِمَار ولم يذكر تاغزوت رغم أنها في طريقه⁶ وفي الغزوة الثانية التي قام بها فرحات بن عمر الجلابي حوالي 1201هـ/1787م جاء على ذكر تاغزوت حيث يقول أنه أشتبك الجلابي مع أهل العرش من تاغزوت وجمر لهم نحو ثلاثمائة نخلة ولكن المرض لم يُمهله لمهاجمة قِمَار⁷ قِمَار⁷ هذا ما يؤكد أن موضع تاغزوت عُمِرَ بأهل العرش ثم بأولاد رابح وبعض الصيايدة الصيايدة بعد مغادرتهم لمحلة قِمَار⁸

¹ التليلي محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 543. هناك عدة آراء حول أصل ومعنى تسمية قمار يوردها الشيخ التليلي في مخطوط الكشكول (غير مطبوع).

² محمد العدوانى، تاريخ العدوانى، 160

³ تاغزوت تعني بالأمازيغية حافة الوادي أو شاطئ الوادي وكل قرى سوف نشأت على ضفاف المجرى القديم للوادي

⁴ التليلي محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 542.

⁵ بنو جلاب أسرة مرينية من زناتته أسست إمارة لها بنقرت منذ 854هـ/1450م وظلت تحكمها حتى دخول الاستعمار الفرنسي للمنطقة سنة 1853م. انظر، عبد الرحمان الجبلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، ط.7، الجزائر 1994، ج.3، ص.264.

⁶ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص.212.

⁷ نفسه، ص.215.

⁸ نفسه، ص.222.

يقول الشيخ التليلي رحمه الله "أتى إلى موضع قِمَار أناس من المغرب ومن الجريد ومن إفريقية حتى تكاملت ثلاثين رجلا و بنوا البَلَيْدَة¹ وهي الجهة المحيطة بجامع سيدي المسعود"².

لكن السؤال الذي يُطرح هل تأسيس بَلَيْدَة قمار كان بعد بناء الجامع أم قبله؟ وهل قِمَار كانت خالية من السكان حتى قَدِم هؤلاء من شتى الجهات ليؤسسوا البَلَيْدَة ؟ وللإجابة على السؤال يُعتقد أن الذين أسسوا قِمَار هم ساكنة جَلْهَمَة الأوائل الذين انتشرت فيهم دعوة سيدي المسعود الشّابي أثناء زيارته الأولى وكانت عُدَّتْهم أربعين رجلا³ وأن موضع الجامع هو عريش عمران ومحبوب الذي كانا يتعبدان فيه⁴ بينما مقام الشيخ عباس الغريب يقع إلى الشمال منه⁵.

2.3. تطور عمارة قِمَار:⁶

إن المتتبع للتطور العمراني والمادي لمدينة قِمَار لابد وسيلاحظ أنه كان وفق نمو وتطور المدن الإسلامية وقد كان تطورها على مرحلتين رئيسيتين تبعا للدور الذي ستؤديه المدينة لاحقا :

أ- مرحلة التأسيس ق.(11-12هـ/16-17م):

كان للطريقة الشّابية دور بارز في نشوء حاضرة قِمَار في المرحلة الأولى حيث عرفت هذه المرحلة تأسيس مسجدين ليكونا بمثابة مركزين لتجمعين سكانيين وهما :

¹ يحلو للبعض تسمية قمار القديمة بـ(البَلَيْدَة) بتخفيف الباء وفتح اللام بصيغة التصغير .

² التليلي محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 543.

³ نجد في مذهب الشافعية يشترط أن يكون عدد المصلين أربعين لصحة صلاة الجمعة ، بينما أجاز المالكية صلاة الجمعة إذا كان عدد المصلين اثني عشر وهناك من يقول إذا اتصلت البيوت لزمّتهم الجمعة أنظر: الحبيب بن الطاهر، الصلاة على المذهب

المالكي، مؤسسة بن عاشور للتوزيع تونس، د.ت.ط، ص.126

⁴ محمد العدواني، المصدر السابق، ص.125

⁵ مازال يوجد إلى اليوم قريبا من الباب الظهر اوي في الجهة الشمالية من البلدة القديمة ضريح يقال له مقام سيدي غريب .

⁶ حسونه عبد العزيز، النسيج العمراني لمدينة قمار "دراسة أثرية ومعمارية" مذكورة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار الجزائر، 2009-2010.

مركز البليدة: ونواته المسجد الجامع سيدي المسعود الذي تأسس سنة 1005هـ/1597م¹ إثر الزيارة الأولى لسيدي المسعود الشّابي والذي قامت حوله حاضرة قمار الأولى في شكل تجمع سكني لنحو ثلاثين أو أربعين حوشاً² متصلة ببعضها تحيط بالجامع من جميع الجهات لا يمكن الولوج إليها إلا من باب واحد يفتح على ساحة من جهة الغرب عُرف بالباب الغربي³ وعلى الجهة الجنوبية من الساحة جعلت المقبرة على بعد أمتار من البلدة .

مركز بيت الشريعة: الذي أسسه أحمد بن علي الشّابي⁴ حفيد المسعود الشّابي في 1085هـ/1674م⁵ على بعد نحو 500 متر غرب البليدة في شكل مدرسة علم وقرآن و دار للسبيل⁶ من أجل نزع فتيل الخلاف بين أعراش قمار⁷ حول مسألة نزول أولاد أحمد⁸ أحمد⁸ بينهم حيث رغب عرشي أولاد أهويمل وأولاد عبد القادر بإسكانهم بجوارهم للاستقواء بهم⁹ في مواجهة الخصوم والأعداء الذين يتربصون بالبليدة، غير أن عرشي الصّيايدة وأولاد رابح رفضوا ذلك لكونهم أي أولاد أحمد غريباء وأعرابا وأصحاب مواشي¹⁰.

¹ إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 192.

² الحوش جمع أحواش وهو مصطلح يستعمل بكثرة في الجنوبيين الجزائري والتونسي للدلالة على الدور السكنية التي تشتمل على صحن مكشوف .

³ قامت بلدية قمار سنة 2002، في إطار مخطط إعادة تهيئة البلدة القديمة بهدم المدخل القديم للبلدة وبناء مدخل جديد في شكل قبو كبير وكتب أعلاه الباب الشرقي والأصل أنه الباب الأول "الغربي" للمدينة.

⁴ أحمد الصغير بن علي بن محمد المسعود الشّابي الشيخ العاشر للطريقة الشّابية وثاني رئيس لمؤسسة بيت الشريعة من 1663 إلى 1691م. أنظر: علي الشّابي، المرجع السابق، ص. 402.

⁵ التليلي محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 465.

⁶ يبدو أن بيت الشريعة أسست أول الأمر لتكون مؤسسة علم ودار للسبلة على غرار بيت الشريعة التي أسست على يد علي بن محمد المسعود الشّابي بالجريد سنة 1663م، أنظر: التليلي لعجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية

1939/1881، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 1992، ص 49.

⁷ يتكون المجتمع القماري من خمسة أعراش هم: أولاد عبد القادر- أولاد بو عافية- أولاد رابح - الصيايدة - أولاد أحمد، أنظر: إبراهيم العوامر، المرجع السابق، ص 322.

⁸ تذكر المصادر أن أولاد أحمد قدموا من المغرب مروراً بالزّاب ثم وادي ريغ ليستقر بهم المطاف في سوف، وكان مجيئهم على دفعتين، حيث استقرت الأولى في حاضرة الواد، واستقرت الثانية في نهاية ق. 11هـ/17م بقرى على أطرافها الغربية و الشمالية

⁹ عرف عن أولاد أحمد أنهم مقاتلين أقوياء كانوا مجندين في جيش صالح ريس باي الجزائر من (1552-1556) حين حملته التاديبية على تفرق و وارجلان سنة 1552 ثم استقروا بالزّاب بعد الحملة قبل أن ينظموا للجيش الجلابي أنظر، محمد بن

معمّر، "علاقة بني جلاب سلاطين تفرق بالسلطة العثمانية في الجزائر"، مجلة الحضارة الإسلامية، المجلد التاسع، العدد 12، 1998م، ص. 18. من بطونهم التي استقرت بقمار المحاوشة، المحاسنة و الخشارمة و الغرابية.

¹⁰ يبدو أن نمط بناء البلدة بشكل مغلق بفتح إلا من باب واحد يفسر طبيعة ساكنتها الأوائل الذين يرفضون للغريباء نظراً للواقع السياسي السائد في المنطقة.

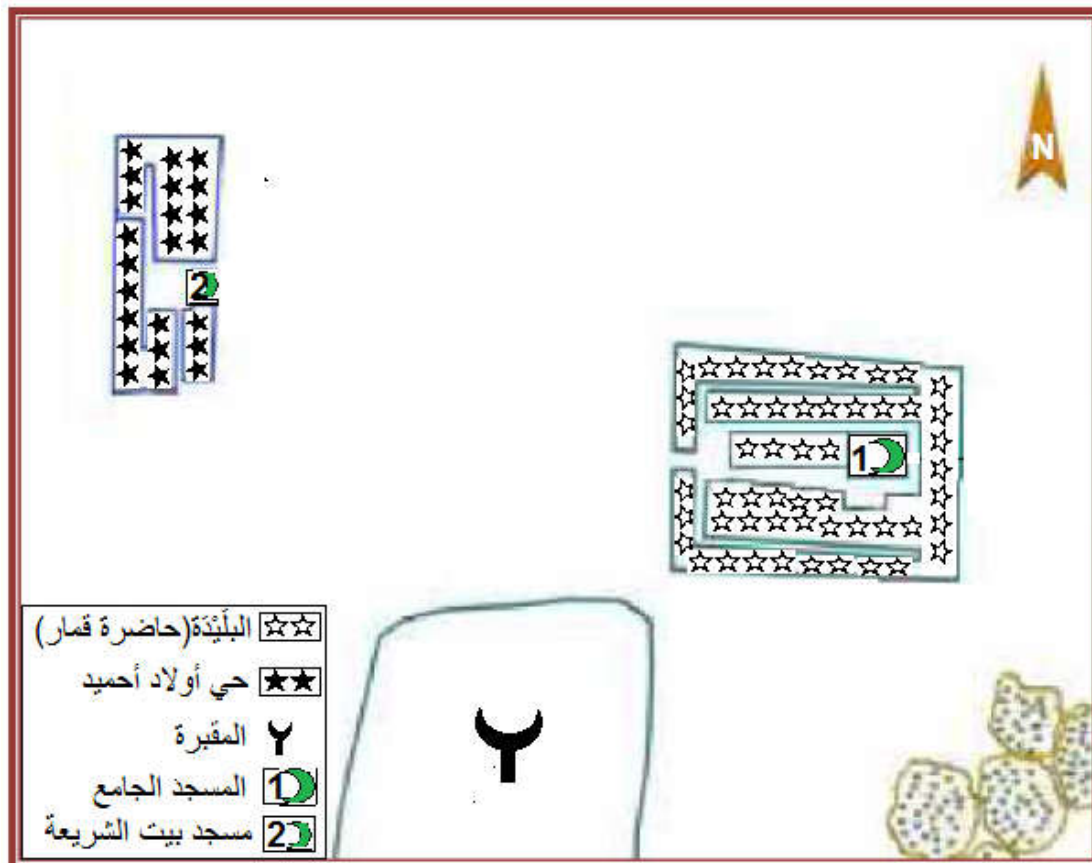
وعلى الرغم من أن أولاد أحميد استجابوا لوساطة أحمد الشابي وأقاموا منازلهم بعيدا عن البلّدة بجوار بيت الشريعة فإن أغلب عرشي الصّيّادة وأولاد رباح فضلوا سنة 1205هـ/1790م¹ الخروج من البلدة والنزول بقرية تاغزوت الواقعة جنوب غرب قِمَار لتتأجج نار العداوة بين البلدتين. وتُشير الكثير من القرائن القديمة إلى أن سبب الخلاف لم يعد يقتصر على نزول عرش أولاد أحميد بالبلّدة، بل يتعداه لأسباب مذهبية أو لنزاعات قَبَلية وتدخلات خارجية برزت مع احتدام الصراع بين إمارة بن قانة² بالزاب وإمارة بن جلاب بتقّرت بهدف السيطرة على المنطقة ، كذلك الخلاف بين بني جلاب و الزاوية التيجانية بتماسين و دخول أهل سوف في تحالفات مع المتصارعين. كانت آخر الحروب بين الجانبين سنة 1287هـ/1871م³. (الشكل 21)

¹ التليلي محمد الطاهر، نفسه ، ص 548.

² تولت عائلة بن قانة مشيخة العرب لإقليم الزاب وجنوبه حتى تقّرت وسوف سنة 1762 م ودخلت في صراع مع عائلة بوعكاز التي كانت تتولى المشيخة على كل إقليم جنوب قسنطينة منذ 1541م ، فلجأت عائلة بن قانة للتحالف مع عائلة بني جلاب في تقّرت للسيطرة على سوف، انظر: يحي بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 م، دار البعث قسنطينة، ط.1، 1980، ص، 182 . كذلك:

Voisin A. R., Le Souf monographie, imprimerie El-walid éditions ,EL-OUED 2004 ,p.04

³ Bataillon ,cl. LE Souf, Etude de géographie humaine, E.ABERT, Imprimeur, ALGER 1955, p.31.



(الشكل رقم 21) مخطط بلدة قمار ما بين القرنين 11-12هـ/16-17م

إعادة تصور من إنجاز الطالب

ب- مرحلة التوسعة: (ق.12-13هـ/18-19م)

شهدت البليدة الأولى خلال هذه المرحلة توسعة أولى تمثلت في إنشاء زقاقين من الجهتين الجنوبية والشرقية للبلدة القديمة لتشكل نقطة التقائهما مخرجا فرعيا للبلدة في الجهة الشرقية عرف فيما بعد بزقاق الفج¹ كما عرفت البلدة في هذه الفترة توافد بعض اليهود واستقرارهم بها حيث أنشئوا معبدا خاصا بهم في الجهة الشمالية وانتهت التوسعة بتأسيس مسجد سيدي إبراهيم بن سعد سنة 1185هـ/1771م².

بعد الطريقة الشّابية أثر بعض سكان البلدة من أتباع الطريقة التيجانية³ وبتكليف من الشيخ أحمد التجاني تأسيس زاوية لهم سنة 1204هـ/1789م⁴ في شكل قاعة مربعة بمساحة قدرها 81م² إلى الشرق من المسجد الجامع، وظلت على تلك الحالة مدة ثمانين سنة تُؤدّي فيها الصلوات الخمس وتُذكّر فيها أورد الطريقة حتى سنة 1285هـ/1869م حيث شهدت أول توسعة وتلتها توسعات متتالية وتحوّلت الزاوية التيجانية إلى مركز ديني واجتماعي ضخم وصارت البلدة قبلة لمريدي الطريقة⁵ وأتباعها من كل قرى سوف ومن البلاد المجاورة ريغ و تماسين وحتى من الجريد التونسي .

تحولت البلدة الصغيرة إلى مركز ديني واقتصادي في المنطقة و عرفت توافد أناس من بلاد النّمامشة و الزّاب و الجريد و شهدت نموا سكانيا لافتا فأخذت تتوسع عمرانيا باتجاهي الشمال والغرب كما صار لها بوابتان رئيسيتان تُحوّلان مع كل توسعة، فمن الناحية الغربية تمددت البلدة باتجاه حي أولاد أحميد، والملاحظ أن كل زيادة كانت

¹ فج (ج. فجاج) هو الطريق الواسع بين جبلين، وهنا إشارة إلى الفضاء الطلق الذي يلي البلدة شرقا. انظر ابن منظور، المصدر السابق، المجلد 5، ص 3350.

² التليبي محمد الطاهر، المرجع السابق، ص 464.

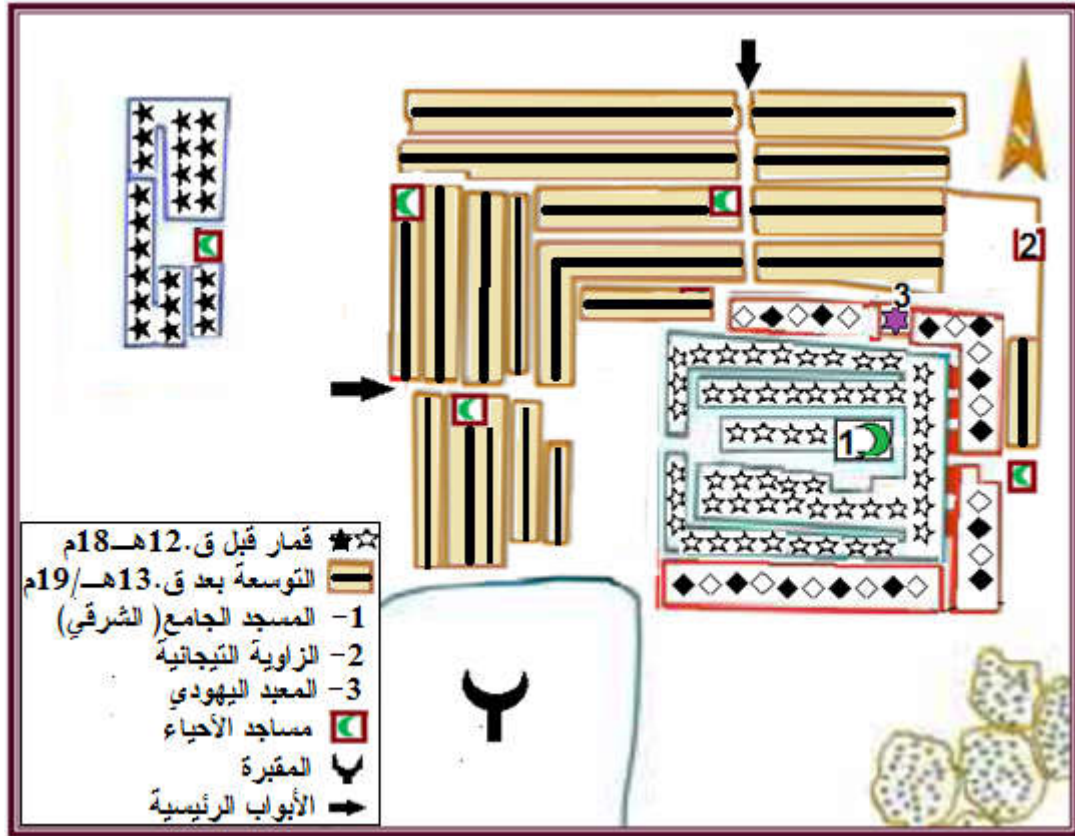
³ الطريقة التيجانية نسبة إلى مؤسسها أبو العباس أحمد التيجاني الذي تشعب من الطرق الصوفية الأخرى ثم بدأ دعوته لطريقته الجديدة من قصر بوسمعون بالبيض سنة 1801م وسرعان ما انتشرت في بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء. أنظر : صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق بيروت، 2002، ص. 175

⁴ تمتاز زاوية قمار بأسبقيتها من حيث التأسيس، حيث تعتبر أول زاوية في تاريخ الطريقة التيجانية، فزاوية فاس: 1800م وزاوية تماسين: 1803م وزاوية عين ماضي: 1816م

⁵ مريدي الطريقة أي الأتباع المقربون ويسمون أنفسهم بالأحباب أي أحباب الشيخ أحمد التجاني بينما غير الأتباع من الطرق الأخرى يعرفون بالأخوان .

مترافقة مع إنشاء مصلى أو مسجد حي وصولاً إلى مسجد بيت الشريعة. ومن الناحية الشمالية حيث الباب الظهراوي¹ كان التمدد عرضياً حيث تميزت الشوارع بطولها من الغرب إلى الشرق وتحدها أيضاً أحياء أولاد أحمد. (الشكل 22)

ازدهرت غرسة النخيل في قمار ونشطت أعمال حفر الغيطان وأضحت الفلاحة هي النشاط الغالب على السكان وصار الكثير منهم يقضون معظم السنة في العمل بغيطان النخيل، بالضواحي في غمرة السفلى والبُدوع والغربية والشرقية والنزلة و أمويّة صالح وما يجتمعون إلا أيام الجمعة حيث ينعقد السوق الأسبوعي و في الشتاء يستقرون في البلدة .



(الشكل رقم 22) مخطط تطور بلدة قمار خلال القرنين (12-13هـ/18-19م)

إعادة تصور (عن الطالب)

¹ الظهراوي مصطلح محلي يقصد به الشمالي، وتجهل الأصول الحقيقية لهذا المصطلح ولكن يمكن أن يدل على معنى ظاهر البلدة أي خارجها.

3.3. خصائص تطور عمارة قمار:

سار محور التطور العمراني لبلدة قَمَار باتجاهين رئيسيين:

- أولهما باتجاه الشمال وصولاً إلى زقاق أعراش المحاوشة والمحاسنة والغرابية، حيث أنشأ في هذا الناحية عدة مؤسسات دينية أبرزها المعبد اليهودي ومسجد العمامرة أو الزاوية الشّابية فمسجد دُغمان.

- ثانيهما وهو الأهم باتجاه الغرب حيث ستؤسس مساجد سي سعيد ثم مسجد فشير فجامع عبد الرحمان الحطّابي، وبذلك يُنقل الباب الغربي تبعاً لاتجاه محور التطور. فنتبين في النهاية أن البلدة القديمة شكلت نقطة الانطلاقة و صار موضعها في الركن الشرقي الجنوبي للنسيج العمراني للمدينة .

- يتميز الشارعان الرئيسيان بالأتساع نسبياً يقدر عرضهما ما بين 3.5 و 4 م وهذا ما يمليه المشرع حيث قال الرسول ﷺ " إذا تدارأ القوم في طريق فليجعل سبعة أذرع "¹ كما يتميزان بالتعرج و الانكسار على خلاف الأزقة المتفرعة عنهما للتقليل من حدة الرياح ولعدم رغبة سكان البلدة في الظهور علناً².

كان التطور العمراني للبلدة متلازماً مع تأسيس مجموعة من المساجد والمصليات لتؤدي فيها الصلوات الخمس، بينما ظل جامع سيدي المسعود يمثل المركز الديني الأول الذي تقام فيه صلوات الجمعة والأعياد، وهذه قاعدة المدن الإسلامية عامة، في مقدمتها المدينة المنورة التي ظل مسجدها النبوي الجامع الوحيد³.

¹ الماوردي، المرجع السابق ، ص 226.

² الجبوري حسين علي، " أثر الخوف والقلق على طراز البناء في منطقة النجف وكربلاء " ، مجلة التراث الشعبي ، وزارة الإعلام العراقية ، ع 7، السنة السادسة، بغداد 1975، ص 88.

³ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1988، ص

كان إنجاز المنازل بشكل متلاصق و تفتح أبوابها على أزقة داخلية طويلة متفرعة عن الشوارع الرئيسيين للمدينة المؤديين إلى مركزها بينما يكون ظاهر أسوار المنازل بمثابة الساتر الدفاعي.¹

- تميزت البلدة القديمة لقمار بزقاق البراطيل² الذي سقّف بشكل متناوب بأقبية أو أدماس كبيرة، يتراوح امتداد كل واحد منها ما بين 7 و 10 أمتار ويقدر عرضها بـ 3 أمتار تقريبا، في حين أنشأ في كل انكسار أو انعطاف للشارع الرئيسي ساباط أو رواق يفتح بعقود. (الصورة 06)

¹ Duveyrier, (H), Sahara Algérien et Tunisien, Journal de route, Augustin Challamel Editeur Paris 1955, p, 24.

² البراطيل جمع برطال أي الظلة الصيفية أو القوس الكبيرة ومنها جاءت كلمة Portail بالفرنسية التي تعني البوابة الكبيرة .

ثانيا: مقارنة بين تطور القرى الثلاث:

عادة ما يراعى في تخطيط المدن الإسلامية وعمارتها جوانب عديدة خاصة الأمنية و الاجتماعية من خلال ملاحظة تطور مخططات المدن الثلاثة يمكن أن نتبين ما يلي:

- تعتبر قرية الزَّقم الحاضرة الأقدم في سوف إلا أنها ظلت محدودة السكان لم تعرف التطور الذي عرفته كل من حاضرتي قمار و الواد .

- أن الشوارع والأزقة في قمار و الزَّقم تمتد في شكل مستقيمات أما حاضرة الواد فأزقتها في شكل منحنيات لذلك كان تطور قمار و الزَّقم منتظما في شكل مستطيلات بخلاف الأعشاش(الواد) كان التطور عشوائيا. (الشكل 23)

- نجد في بلدي قمار و الزَّقم شارعاً أو شارعين رئيسيين تتفرع عنهما أزقة مفتوحة أو حادة، أما في الواد لا نجد شارع رئيسي فكل الأزقة متشابهة متصلة بعضها البعض في شكل شبكة أو متاهة.

- تطور بلدي قمار و الواد تحكمت فيه التضاريس حيث نشأت نواتي المدينتين فوق قارة (أرض صلبة مرتفعة عما حولها) تحيطهما الأرض الحرة خاصة في الجهة الشرقية منهما ما مثل حاجزا أمام التوسع العمراني .

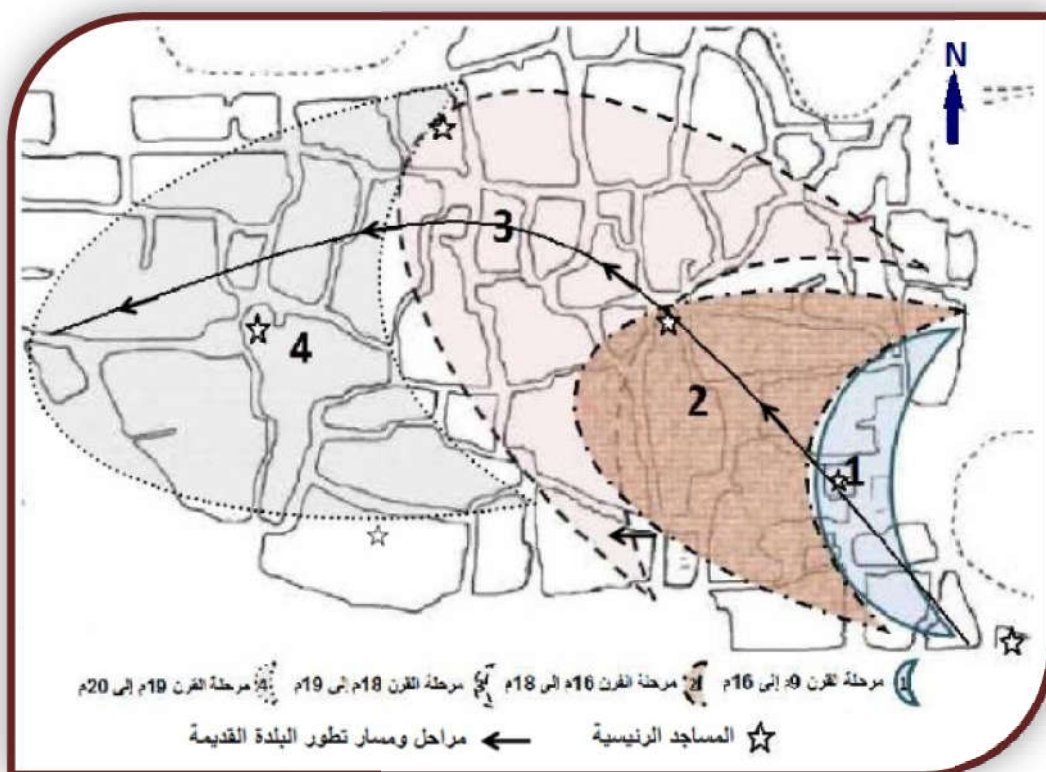
- كان محور تطور قمار والوادي انطلاقا من المسجد الجامع باتجاه الشمال والغرب ومثلت المساجد والمصليات نقطة النهاية لكل توسعة .

- تميزت بلدة قمار بظاهرة تسقيف الأزقة أو جَعْل ساباتات في رحباتها للوقاية من ضربة الشمس أو الرياح.

- رغم صغر بلدتي الزَّقْم وقمار مقارنة بحاضرة الوادي فقد تميزتا بظاهرة تعدد الأحياء تبعا لمراحل تطورها أو استيطان سكان جدد فيهما في حين ظلت حاضرة الوادي تعرف بحي الأعشاش رغم تطور عمارتها وتوافد سكان جدد عليها.

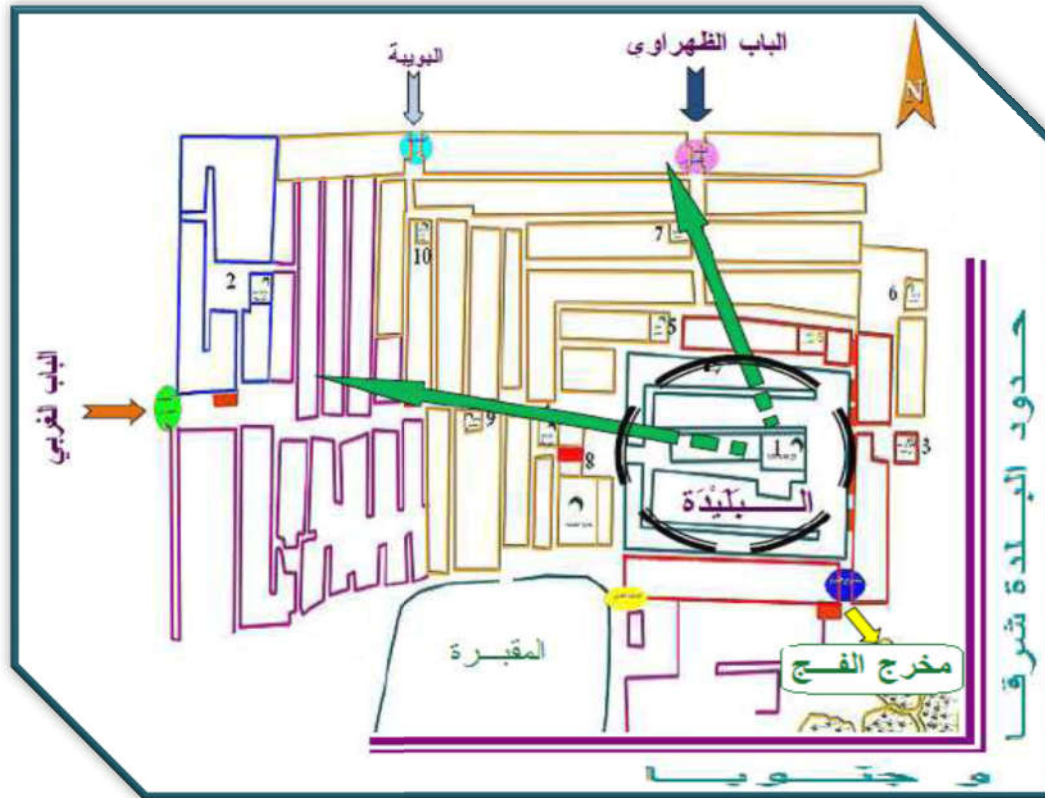
- تشكلت قرية الزَّقْم من مركزي تجمع سكاني كانا متباعدين ثم أخذتا بالتدريج اتجاها بعضهما حيث شكل الفراغ بينهما مجالا للتوسع، بينما في بلدة قمار كان التوسع من جهة واحدة أي انطلاقا من البلدة وصولا إلى بيت الشريعة وحي أولاد أحمد غربا. (الشكلين 24 و 25)

- كان إنجاز قريتي الزَّقْم وقمار وفق مخطط هندسي محكم روعي فيهما الجانب الدفاعي فحاضرة قمار عند التأسيس أنشأت في شكل حصن لها مدخل واحد، وفي إطار التوسع كان الجانب الأمني حاضرا فالمنازل تفتح في الأزقة الداخلية الممتدة بينما ظهر القرية مباني صماء وظل للقرية حتى وقت قريب بوابتين وكان مخرج الفج في الجهة الشرقية بمثابة مخرج أمان باتجاه حاضرة الواد لطلب النجدة في حال الخطر الخارجي (الآتي طبعاً من الغرب أو الشمال الغربي) كذلك الشأن لقرية الزَّقْم لها أربعة مداخل رئيسية وكل واحد تحت مراقبة بطن أو عرش وجعلت المنازل تفتح على الأزقة الداخلية، هذا الوضع لا نجده في تخطيط حاضرة الوادي الذي لم يكن منتظما ولا توجد مداخل رئيسية لذلك أحيطت المدينة في وقت ما بسور جعلت له أربعة أبواب رئيسية ونجد أن الحواضر الثلاث أحيطت بغيطان النخيل وجعلت بينها مسالك ضيقة لا يمكن لجيش أو عدو أن يمر خلالها بيُسْر نظرا لصعوبة الحركة وسط الرمال .



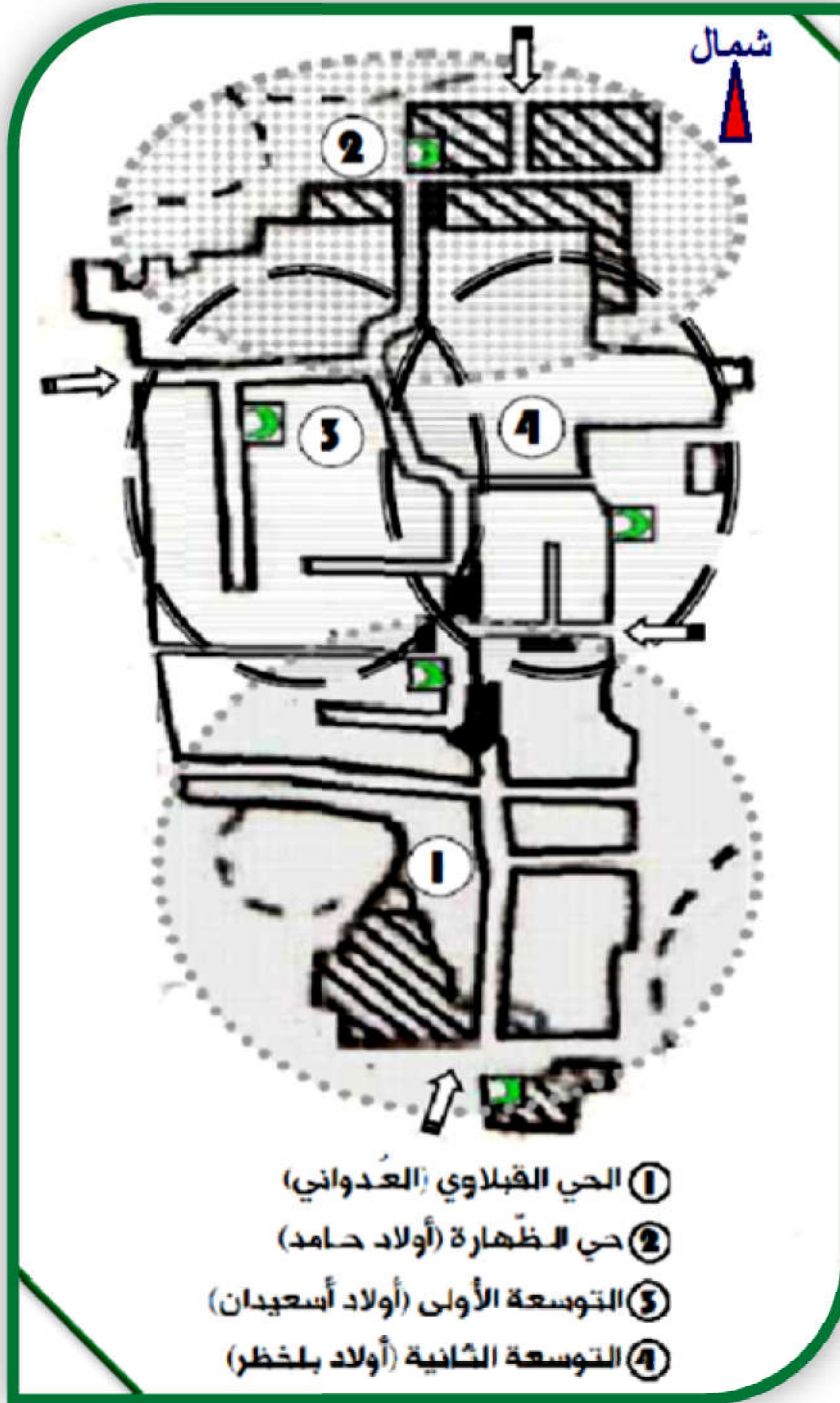
(الشكل رقم 23) مخطط لمحور تطور حاضرة الوادي

عن الطالب



(الشكل رقم 24) مخطط محاور تطور حاضرة قمار

من عمل الطالب



(الشكل رقم 25) مخطط تطور قرية الزقُم

إعادة تصور عن الطالب

الفصل الرابع: العمارة الدينية في منطقة سُوف

أولاً: مدخل للعمارة الدينية.

ثانياً: العمارة الدينية في منطقة سُوف.

1. الجوامع و المساجد.

2. الزوايا.

أولاً: مدخل للعمارة الدينية:

إن الغاية من إعمار الأرض وإقامة المجتمعات العمرانية والمدن هو عبادة الله سبحانه وتعالى وإقامة الصلاة، مصداقاً لقوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾¹، فمن خلال هذا الآية تفهم أن سيدنا إبراهيم رغم أن المنطقة جرداء فقد حقق شرطاً أساسياً للتجمع السكاني وهو أسكان أهله عند البيت الحرام لغرض العبادة ومن هذا المنطلق ألتقى علماء الاجتماع المسلمين على أن بناء المساجد يعد من شروط تعمير القرى وتمصير الأمصار، ومنهم ابن الربيع الذي حدد ثمانية شروط منها: "توفر الماء، وضع خططها، بناء جامعها، يقدّر أسواقها... إلخ"² و قد أضاف آخرون الموقع المحصن، القريب من المرعى والحطب، المتوسط بين المدن والأقاليم الأخرى، المعتدل المناخ جيّد الهواء³.

يعتبر المسجد أهم المنشآت العامة في عمارة المدينة الإسلامية وذلك منذ عهد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فهو من أعطاه هذه المكانة حين أتخذ من مسجده في المدينة المنورة في القرن الأول للهجرة مقراً لتسيير شؤون المسلمين فبالإضافة إلى وظيفته الدينية كان مقراً لبحث الشؤون السياسية والتربوية والاجتماعية. كان المسجد كالبلاط بحيث يلقي الأمير من منبره خطبته يشرح فيها سياسته وبعد أن اتسعت الفتوحات وامتدت الأمصار صار من حقوق الرعية على الحاكم أن يبني لهم جامعاً للصلوات⁴ ليكون ذلك من شارات الملوك والسلطان فيذكره الأئمة في خطبهم ويدعون له⁵ وحكمت هذه الأهمية للمسجد

¹ سورة إبراهيم: الآية 37.

² ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك، تج. عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للنشر، الرياض 1416هـ، ص. 154.

³ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1988، ص. 91.

⁴ عبد الأحد السبتي/ حليلة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، المركز الثقافي العربي ببيروت، ط. 1-1994، ص. 18.

⁵ ابن خلدون المقدمة، ص. 333.

الجامع موضعه في المدينة باعتباره النواة الأساسية في تخطيطها، فقد كانت أول ما يختط ومن حوله تُختط خطط المدينة وإليه تنتهي شوارعها¹.

لقد كان دافع الفاتحين الأوائل إلى إقامة الجوامع و المساجد هو طبع تلك البلاد وكذلك المدن التي قاموا بإنشائها بالطابع الإسلامي كما فعل عمرو بن العاص وأنشأ جامعہ بمدينة الفسطاط بمصر (21هـ / 642م) وعقبة بن نافع الفهري الذي بني جامع القيروان (50هـ / 670م)²، ومن هذه المؤسسات أيضا الأربطة و الزوايا والمدارس والكتاتيب والأضرحة التي تدخل في التنشئة العقديّة للمجتمع تعود بالنفع على الناس.

¹ محمد عبد الستار عثمان، نفس المرجع، ص.210.

² حسين مؤنس، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1981، ص.56.

ثانياً: العمارة الدينية في منطقة سوف:

لم تختلف قرى وحواضر سُوف الرئيسية عن نمط المدينة الإسلامية فقد روعي في اختيار موضعها وتنفيذ خططها الشروط المذكورة فعندما فكر سكانها الأوائل في الاستقرار كان أول ما اتفقوا عليه مركز العبادة حيث يخبر العدواني " أن سبعة رهابين من النصارى وفدوا من مناطق مجاورة (وغلانة¹، جلهمة، بادس² و اتهوده³) بنوا قصور يتعبدون فيها" ⁴ ، ويقول صاحب الصروف: " أن بعض العدوانيين لحقوا بالروم⁵ الذين بجلهمة و بنوا جميعا قرية وأسس الروم بها صومعة و بنى المسلمون مسجداً ⁶، رغم أن العوامر لم يذكر تاريخ بناء جلهمة ولكن نعتقد أنه خلال القرن 7هـ/13م وقت نزول عدوان بالجردانية ⁷ ، لتكون بداية التمدن والتحضر بمنطقة سوف .

عرفت قُرى سُوف الأولى كبقية المدن الإسلامية تأسيس المسجد الجامع كنواة للتجمع السكاني وذلك بفضل الدعوة الشابية من خلال الزيارات المتتالية لمسعود الشابي⁸ الذي وجد أهل المنطقة يعيشون عيشة الجاهلية لا تجمعهم أي رابطة دينية، فدعاهم إلى العودة إلى الفطرة السليمة و دين الحق ومعظم المصادر التاريخية تذكر أنه كان سببا في تأسيس المساجد لتكون عاملا في تجمع الناس وتأسيس الحواضر الحالية في منطقة سوف.

¹ وغلانة أو تاوغلانت بالأمازيغية من أقدم قرى وادي ريغ يعتقد أنها تعود للقرن 9م برزت مع محنة الإباضية.

² بادس من الزاب شرقي بسكرة قرب زريبة الواد ذكرها بن خلدون في تاريخه.

³ اتهوده أو تهودة هي المنطقة التي قتل فيها الصحابي الجليل عقبة بن نافع 63هـ/682م وهي من زيبان بسكرة تقع إلى الجنوب الشرقي منها.

⁴ محمد العدواني، المصدر نفسه، ص.91. ويقول صاحب الصروف أنهم نزلوا بجوار عدوان بالجردانية أنظر: ابراهيم العوامر، الصروف، ص.182.

⁵ لا تذكر المصادر أن الروم توغلوا في منطقة سوف والمقصود هنا نصارى البربر الذين كانوا في الجردانية.

⁶ ابراهيم العوامر، نفس المرجع، ص.183.

⁷ نفسه ، ص.175.

⁸ سبقت الإشارة إلى ذلك في الفصل الرابع عند الحديث عن تأسيس حاضرتي الوادي وقمار.

إذا كانت الجوامع والمساجد من عوامل تحضر أهل سوف واستقرارهم فقد كانت زوايا الطرق الصوفية أيضا من عوامل ازدهار القرى وزيادة عمرانها وتحولها إلى مراكز دينية تستقطب أتباع تلك الطرق من كل الجهات، ومن أبرز العماائر الدينية في منطقة سوف:

1. الجوامع و المساجد:

تميزت أغلب جوامع و مساجد منطقة سوف بأسلوب عمارتها البسيط على خلاف عمارة الجوامع في الحواضر الكبرى، وذلك يترجم المستوى المعيشي لسكان المنطقة ومن ناحية أخرى كون هذه المنشآت لم تشيد من قبل حكام أو أمراء بغرض التباهي والمفاخرة وإنما أنشئت كأوقاف يُراد منها عمل الخير و ابتغاء وجه الله تعالى مصداقا لقول الرسول p " من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة لبيّضها بنى الله له بيتا في الجنة " ¹ وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ²

ومن أقدم مساجد سوف نذكر :

1.1. جامع السوق في حاضرة الوادي:

أ- الموقع والتأسيس: جامع سيدي المسعود نسبة إلى المسعود الشّابي شيخ الطريقة الشّابية الذي زار بلاد سوف عدة مرات ومنها تكسبت القديمة حيث استقبله العش بن عمر اليزبوعي واستضافه سبعة أيام و أسلم هو وأولاده على يديه ودعا له الشيخ بالبركة ³ وأوعز له ببناء مسجد والذي يُفترض أنه كان حوالي 1008هـ/1600م ⁴ والذي نعتقد أنه

¹ سابق السيد، فقه السنة، مؤسسة الرسالة بيروت، مج. 1، ط1 2002م، ص. 181

² سورة التوبة : آية 18

³ محمد العدواني، المصدر نفسه، ص. 122-123

⁴ لا تذكر المصادر أن المسعود الشّابي طلب من العش بناء مسجد ولا تحدد تاريخا لذلك وهل بناء المسجد كان إثر الزيارة الأولى لمسعود الشّابي أو لزيارات أخرى وبالتالي لا نستطيع تحديد تاريخ بناء الجامع بالضبط وإنما الرواية الشفهية تُرجعه لحوالي 1600م أي بعد بناء مسجد قمار بنحو ثلاث سنوات، والله اعلم .

أُنشأ في موضع وسط بين حي أولاد أحمد جنوبا وحي البلد (منزل طرود الأول) شمالا، والذي سيشكل لاحقا نقطة ارتكاز لحاضرة الواد وبداية توسعها ناحية الغرب¹.

صار المسجد اليوم يُعرف بجامع السوق حيث نشأ في باحته الشرقية سوق المدينة والذي صار مركزا للتجارة الحرة ومركز لعبور القوافل بين الأقاليم المجاورة للوادي .

كانت مساجد منطقة سوف كبقية العماائر الأخرى بسيطة البناء خالية من كل مظاهر الترف و الزخرفة أو الفخامة كما كانت بدون مآذن حقيقية وإنما كانت تُتخذ لها مسطبة فوق السطح قد تكون مسقوفة بقبة ينادى منها للصلاة (الصورة 08).

ب- وصف الجامع: عرف الجامع عدة تجديدات وعمليات توسعة كان آخرها مطلع القرن العشرين حيث جدد كليا ليستقر على مخططه الحالي:

المظهر الخارجي و يشمل:-

- واجهات الجامع: للجامع واجهتان تفتحان على الجهتين الجنوبية والشمالية لكل منهما رواق محمول على سبعة أعمدة أسطوانية وثمانية أقواس متجاوزة ومنكسرة تفتح عليهما بوابتان كبيرتان بعرض 2 م وخمسة نوافذ بعرض 1 م (الصورة 09)

- الأبواب: للجامع أربعة أبواب استقدمت من تونس، تفتح كل اثنتان على إحدى الواجهتين الجنوبية والشمالية مباشرة على الشارع ، جعلت البوابتان الأماميتان تفتحان على البلاطة الثانية الموازية لجدار القبلة أما بوابتا المؤخرة تفتحان على البلاطة الثالثة ما قبل الأخيرة ، عرض كل باب 2 متر يتكون من مصراعين. مازالت الأبواب إلى اليوم تغلق بالأقفال القديمة المعروفة بالسفاقصي² و بالمزاليج الخشبية والمعدنية.

¹ اعتقادنا أن بناء المسجد في موضع وسط على اعتبار أن العش اليربوعي لم يكن من طرود وإنما نزل ضيفا عليهم بعد هروبه من نفزاوة ووصفه لطرود بالفئة الباغية بينما أولاد أحمد كانوا يقيمون قرب عريش سيدي مستور. أنظر: محمد العدواني، ص.115

² القفل السفاقصي هو نوع من الأقفال تقليدية الصنع يصنعها الحدادون غالبا ما تجلب من تونس .

- **النوافذ :** يتوفر الجامع على عشر نوافذ جعلت بالتناظر خمسة في كل واجهة، تتوزع كما يلي: اثنتان منها في المقدمة تفتحان على البلاطتين الأولى والثانية والثلاث الأخرى في المؤخرة، تتكون كل النوافذ من مصراعين من الخشب عرض كل واحدة 1 م وارتفاعها 2 م و لا تشتمل النوافذ على زجاج و دعمت من الخارج بتشبيكات معدنية ذات زخرفة هندسية حديثة نسبيا. (الصورة 10)

- **المآذن :** من المعروف تاريخيا أن مساجد الإسلام الأولى على عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده لم تكن تشتمل على مآذن وكان ينادى للصلاة من أي مكان عال نظرا لقلّة ارتفاع المساكن في المدينة، وأن أول من اتخذ المئذنة في المساجد هو الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في الجامع الأموي بدمشق والمعروفة بمئذنة العروس سنة 96هـ/715م، لتعرف بعد ذلك انتشارا واسعا حيث صارت تشكل عنصرا أساسيا في عمارة المساجد في المدن الإسلامية ، وتطورت أشكالها وأنماطها وزادت ارتفاعاتها و قد اشتهرت مدينة القاهرة بكثرة مآذنها حتى لقبت بمدينة الألف مئذنة .

أما في المغرب الإسلامي فقد تميزت المآذن بشكلها المربع متخذة من مئذنة جامع عقبة بن نافع بالقيروان سنة 105هـ/724م¹ نموذجا لها، ويُعتقد أن ثاني مسجد الذي أنشأه الفاتح المسلم أبو المهاجر دينار² في مدينة ميلّة بالمغرب الأوسط سنة 59 هـ/678 م بعد أن أخذها مركز قيادته العليا³.

¹ هو أول مسجد جامع أنشئ في بلاد المغرب عند بدايات الفتح الإسلامي بقيادة الصحابي عقبة بن نافع في سنة 50 هـ/670 م، ويعتقد أن مئذنته الحالية أنشأت في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك (105 - 125 هـ)، صار الجامع يعد نموذجا في عمارة المساجد في المغرب الإسلامي أنظر: نجوى عثمان، مساجد القيروان، دار عكرمة دمشق، ط.1، 2000، ص.81.

² أبو المهاجر دينار تولى أمر الفتح ببلاد المغرب بعد ولاية عقبة بن نافع الأولى سنة 55 هـ، نجح في استمالة البربر للإسلام ، توغل في المغرب الأوسط مروراً بالزاب وأستقر بميلة لمدة سنتين واتخذ بها مسجدا ودارا للإمارة قبل أن يعزل سنة 62 هـ. أنظر: مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي بيروت ج.2، د.ت.ط، ص.24.

³ عبد الرجمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، دار مكتبة الحياة بيروت، ج.1، ط.2/1965، ص.169.

أدخلت على المسجد تعديلات كبيرة خلال الحكم العثماني، حيث أضيفت له مئذنة مربعة الشكل خلدتها صورة تعود لسنة 1223هـ/1842م¹، والتي تشبه في شكلها وضخامتها مئذنة جامع سيدي رمضان بالجزائر العاصمة الذي بني سنة 1031هـ/1622م ويمكن أن تكون مئذنة مسجد سيدي غانم بنيت في نفس الفترة تقريبا، شأنه كشأن الكثير من المساجد التاريخية والمؤسسات الدينية التي تعرضت للتخريب والهدم، فقد هدمت السلطات الاستعمارية المئذنة وحولت المسجد إلى إسطبل للحيوان. (الصورة 11).

بالنسبة لمنطقة سوف فقد كانت على شاكلة مدن دولة الإسلام الأولى وتميزت عمارتها بالبساطة و قلة الارتفاع و الميل نحو التقشف لذلك لم تعرف بناء المآذن حتى عهد قريب من القرن 19م، فلم يكن لجامع السوق بحاضرة الوادي مآذن إلا بعد إعادة بناءه كليا في مطلع القرن العشرين حيث جعلت في أركانه الأربعة أشباه مآذن أو نقول القسم العلوي منها ما يُعرف بالجوسق ولم تكن لغرض الآذان بل لإضفاء رونق جمالي، وقد تميزت كل واحدة منها باختلاف شكلها عن الأخرى على النحو التالي:

- مئذنة الركن الجنوبي الشرقي قاعدتها مربعة الشكل مُجَوَّفة طول ضلعها 2م ارتفاعها نحو 3م تعلوها جوسق في كل ضلع منه قوسان بعرض 0.50م فوقها قبة صغيرة مضلعة.

- مئذنة الركن الشمالي الشرقي بقاعدة مربعة و جوسق ثُماني الأضلاع محمول على أقواس متجاوزة متداخلة تعلوها قبة مضلعة، تتوسط الجوسق كوة ثمانية الشكل للتهوية.

- مئذنة الركن الجنوبي الغربي مربعة القاعدة ارتفاعها أيضا 3م في كل ضلع من الجوسق أقواس منكسرة متداخلة تعلوها قبة نصف كروية، تتوسطه كوة مستطيلة الشكل لتهوية الجامع.

¹ عمار بن محمد بوزير، الآثار الإسلامية بالجزائر، شبكة الألوكة، د.ت.ط، ص. 35.

- مئذنة الركن الشمالي الغربي بقاعدة مربعة ويعلوها جوسق رباعي الأضلاع محمول على أعمدة أسطوانية وأقواس مفصصة متداخلة تعلوها قبة نصف كروية الشكل ،تتوسط المئذنة كوة زهرية الشكل للتهوية. (الصورة 12)

- الميضأة: لم نتمكن من الحصول على معلومات عن موقع ولا مخطط الميضأة القديمة للجامع الأول و في مطلع القرن العشرين تم تجديد الجامع فأعيد بناءه كلياً كما أعيد بناء الميضأة وجعلت عند الجهة المقابلة للواجهة الجنوبية غير متصلة به وهو موضعها الحالي وحفرت بجانبها بئر ماء وحوض صغير للوضوء .

المظهر الداخلي ويتضمن:

- بيت للصلاة : مربعة الشكل تقريبا على امتداد 23م من الغرب إلى الشرق و23.5م من الشمال إلى الجنوب وهو طول جدار القبلة، تتشكل من عشر بلاطات عمودية على جدار القبلة تتقاطع مع ثمانية أسايب موازية لجدار القبلة، يتشكل السقف من 76 قبة أو سقف اسطواني متقاطع إضافة إلى القبة الرئيسية، طاقة استيعاب المسجد للمصلين تقدر بنحو 1000مصري . (الصورة 13)

-المحراب: المحراب (جمع محاريب) لغة: هو صدر البيت وأكرم موضع فيه لقوله تعالى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾¹، وهو أكرم مجالس الملوك، والعرب تسمي القصر محرابا لشرفه² و هو مكان العبادة والخلوة في القرآن لقوله تعالى : ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾³ .

المحراب اصطلاحاً: هو الحنية أو التجويف في جدار القبلة للدلالة على اتجاهها والذي يقوم عنده الإمام لإمامة المصلين، ويرجح أن أول استعمال للمحراب في الإسلام

¹ سورة آل عمران، الآية: 37.

² ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثاني، ص. 817

³ سورة آل عمران، الآية: 39.

كان على عهد عمر بن عبد العزيز عند تجديد عمارة المسجد النبوي والتي كانت سنة 91هـ أيام ولايته على المدينة المنورة في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك¹.

تُطلق تسمية المحراب في عموم منطقة سوف على قاعة الصلاة أو المسجد ككل ويُسمون مكان وقوف الإمام بكوة المحراب التي تجعل في حائط القبلة للدلالة على اتجاه الصلاة والتي قد تكون بشكل مسطح أو مجوف.

نجد في جامع السوق بمدينة الوادي حنية مُجوفة تتوسط جدار القبلة عمقها 0.75 م وعرضها 1.50م ذات عقد متجاوز يبدو وكأنه محمول على أربعة أعمدة دقيقة، عمودين في كل جانب، يعلو الحنية إطار من زخارف جصية غائرة ذات أشكال هندسية يغلب عليها نجميات ثمانية الرؤوس.² (الصورة 14)

- المنبر: هو المكان المرتفع في المسجد الذي يخطب منه الإمام، ويعتبر منبر الرسول p الذي اتخذ في مسجده في السنة السابعة للهجرة والمكون من ثلاث درجات أول منبر في الإسلام. أما أشهر المنابر في تاريخ الإسلام فهو منبر صلاح الدين في المسجد الأقصى ببيت المقدس، والذي صُنع في دمشق بأمر من نور الدين محمود زنكي سنة 563هـ/1168م، تعرض المنبر للحرق من قبل اليهود الصهاينة 21 أوت 1969م ورمم وأعيد إلى مكانه³.

أما بالنسبة لجامع السوق بالوادي فمنبره خشبي منقول جُلب سنة 1311هـ/ 1930م من قفصة (تونس)⁴ يتميز بقلعة ارتفاعه ، يتكون من سبع درجات صغيرة ارتفاعه أكثر من ثلاثة أمتار ، ذي شكل بسيط تتكون مجنبتيه من حشوات مستطيلة وأخرى مثلثة الشكل

¹ يحيى وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مكتبة مدبولي القاهرة، الكتاب الثاني، ط.1- 1999، ص.11

² صار محراب جامع سوق الوادي نموذجا نمطيا لكل مساجد المنطقة.

³ حسن الباشا، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، مج.1، أوراق شرقية للطباعة والنشر بيروت، ط.1-1999، ص.90

⁴ تتضارب الروايات الشفهية حول التاريخ الحقيقي لإعادة بناء الجامع ما بين 1920 و1930 وتوجد كتابة تذكارية على إحدى حشوات منبر الجامع ولكنها غير واضحة.

،وجعل للمنبر مدخل ذو قوس يعلوه إطار وإفريز زخرفي للزخرفة ما عدا قوس حُدوية جُعِلت كمدخل له . (الصورة 15)

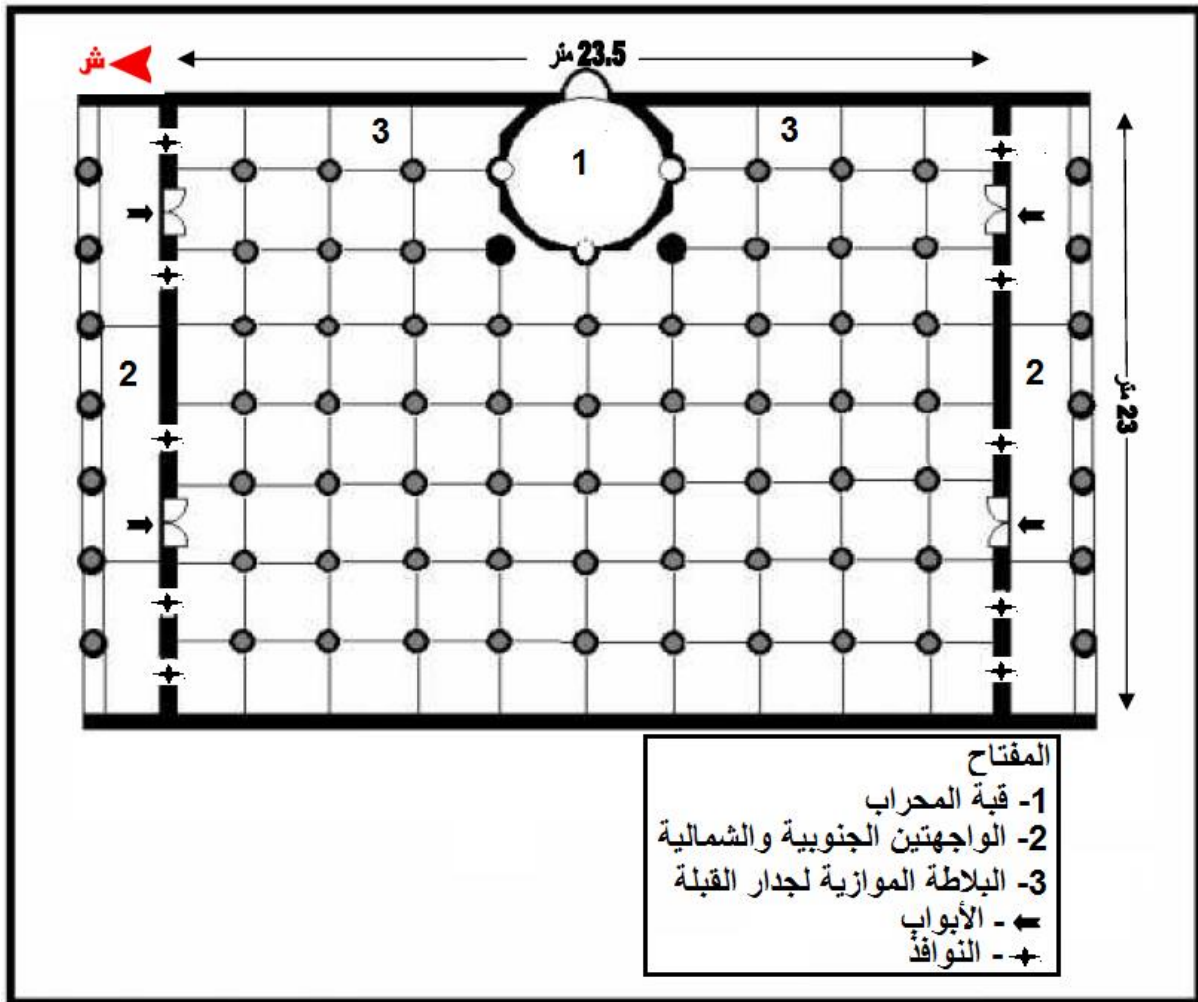
لا توجد في المسجد غرفة خاصة بالإمام يختلي فيها لإعداد الخطب أو الدروس.

-**التسقيف:** سُقِفَ المسجد بقباب بسيطة من الخارج لا تختلف في شكلها عن القباب في العمائر المدنية الأخرى و تظهر من الداخل على شكل قباء متقاطعة عددها 65 قبة محمولة على 57 عمودا أسطوانيا، وجعل في قباب زوايا الجامع فتحات للتهوية والإنارة. أما القبة الرئيسية أو قبة المحراب فقد حملت على خمسة أعمدة أكبر قطرا من الأخرى الحاملة للسقف، رُوعي في إنجازها الانتقال من المربع إلى المثلث ثم الدائرة بارتفاع قدره خمسة أمتار.

تظهر قبة الجامع من الخارج مضلعة الشكل فوق قاعدة دائرية مضلعة تتخلل القبة فتحات صغيرة مربعة للتهوية. (الصورة 16)

- **الأعمدة والأقواس:** حمل السقف الداخلي على اثنان وستون عمودا أسطوانيا الشكل من الحجر والجبس المحلي بارتفاع نحو ثلاثة (3) أمتار يعلوها شبه تاج توضع عليه العقد، وجعلت البوائك¹ متقاطعة شرق غرب و شمال جنوب وجعلت العقود متجاوزة ومنكسرة بارتفاع يقدر بخمسة (5) أمتار. (الشكل 26)

¹ البوائك م.بانكة مصطلح أثري معماري للدلالة على سلسلة العقود المتتالية محمولة على صف الأعمدة أو الدعامات .أنظر:عاصم محمد رزق، مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط.1-2000، ص.32



(الشكل رقم 26) المخطط الحالي لجامع سوق الوادي

عن الطالب

2.1. جامع العدواني بقرية الزُّقْم:

أ- الموقع و التأسيس:

تعتقد الكثير من المصادر المحلية بأن قرية الزُّقْم هي أقدم قرى سوف و تذكر أنها أنشأت نحو 675هـ/1277م¹ وأن جامعها المعروف اليوم بجامع العدواني هو الأقدم في عموم منطقة سوف وتستند هذه الرواية على قدم الوجود البشري الذي كانت تعج به بلاد سوف و لا يوجد أي دليل مادي أو شواهد عمرانية أو وثيقة تاريخية تثبت صحة تلك الفرضيات ، بل نجد صاحب الصروف يذكر أن مسجد الزُّقْم الأول تأسس في 1560م والقرية القديمة تأسست في 1580م وهذا هو الأقرب للتصديق لأن الكثير من المصادر تشير إلى أن بداية الاستقرار والتعمير بمنطقة سوف كان في القرن 11هـ/ 16م وظهور البناء بالحجارة كان في القرن 12هـ/ 17م يذكر العوامر أن قرية الزقمة القديمة هُجرت سنة 1296هـ/1782م² ، فإذا صحت هذه الرواية فإن جامع العدواني الحالي ليس هو الأقدم لأنه ليس منطقيا أن يؤسس الجامع خارج البلدة ؟!

ب- وصف الجامع:

لم يبق اليوم أي دليل أو أثر للجامع القديم الذي هدم كلياً سنة 2005م ويذكر Duveyrier في سنة 1227هـ/1813م أن المئذنة القديمة (الأولى) كان وبلغ ارتفاعها 9 م ومن خلالها يمكن رؤية نيران مدينة الوادي.³ وكل ما بلغنا بعض صور البطاقات البريدية القديمة تعود لمطلع القرن الـ20م للجامع الذي يُعتقد أنه جامع العدواني! والتي تُظهر الجامع مسقوف بقباب صغيرة بسيطة تتوسطها قبة بيت الصلاة نصف كروية الشكل أُقيمت فوق ثماني الأضلاع.

¹ أحمد ريغي، قصر عدوان " صفحات مطوية من تاريخ بلدة الزقمة " مخطوط غير مطبوع، ص.32.

² إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ص.213.

³ Henri Duveyrier, Sahara Algérien et Tunisien, Journal de route, Augustin Challamel Editeur, Paris 1905, p.124

تعلو الجامع مئذنة ضخمة مربعة الشكل في ركنه الشمالي الشرقي منجزة من كتلة واحدة (البدن)، زخرفت واجهاتها بتشبيكات حديثة مخرمة تنتهي بشرفات ركنية، وشرفة الآذان تنتهي بجوسق، كما نلاحظ ثلاث مآذن صغيرة في الأركان ارتفاعها حوالي 3م يفتح في كل ضلع منها قوسان ومسقوفة بقبة صغيرة، هي أشبه بالجواسق، ويبدو أن غرضها تزييني، فهي تشبه في شكلها و حجمها مآذن جامع السوق في مدينة الوادي¹. (الصورة 17).

3.1- الجامع الشرقي بقمار: ²

أ - الموقع و التأسيس : هو المسجد الجامع الأول لحاضرة قمار يُعتقد أنه بُني في 1005هـ / 1597م، يعتبر أول معلم عمراني يُؤسس في وسط البلدة القديمة التي قامت على نحو 40 حوشا ليكون النواة الأساسية في تخطيطها كما يعتبر عامل وجودها و استمرارها، ويعتقد أن سيدي المسعود الشابي هو من وضع أسسه، بالإضافة إلى الوظيفة الدينية التي كان يؤديها الجامع الشرقي فقد صار يمثل مركزا تربويا و اجتماعيا لأهل البلدة إلى حين تأسيس الزاوية التيجانية مع نهاية القرن الحادي عشر الهجري الموافق للثامن عشر الميلادي.

كان الجامع القديم بسيطا في تخطيطه ونمط بنيانه ، يتشكل من قاعة للصلاة مربعة الشكل تقريبا يقدر طول أضلاعها 10×10م وقبابه بسيطة الشكل قليلة الارتفاع، يشتمل على مدخل رئيسي يفتح على الرحبة في الجهة الجنوبية حيث كانت توجد بئر للماء تستغل للوضوء، وكانت بيت الوضوء منفصلة عن المسجد بمحاذاة الركن الجنوبي الغربي منه، وفي الركن الشمالي الغربي للجامع أنشأت مصطبة مرتفعة نسبيا عن بيت الصلاة يُصعد إليها بدرجات معدودة لتكون بمثابة المئذنة التي ينادى منها للصلاة³.

¹ قد يكون جامع الزرقم جدد في نفس الفترة مع جامع سوق الواد وقد يكون البناء عمر قاه

² كل ما يتعلق بالجامع الشرقي لقمار أنظر: حسونة عبد العزيز ، النسيج العمراني لمدينة قمار بمنطقة سوف،دراسة أثرية ومعمارية،مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار الجزائر 2010/2009، ص.71.

³ هذا ما أمكن جمعه من معلومات من المصادر الشفهية عن شكل وعمار الجامع القديم.

ت- وصف الجامع:

جدد الجامع عدة مرات كان آخرها في سنة 1387هـ / 1968م بحيث أزيلت كل معالمه الأصلية و أعيد بناؤه بشكل كامل، و الجامع الحالي يتكون مظهره الخارجي من:

- واجهات الجامع :

للجامع واجهتان تفتح الرئيسية منهما على الجهة الجنوبية قبالة رحبة الجامع بها مدخلان رئيسيان يعلوهما رواق محمول على أربعة عقود منكسرة وخمسة أعمدة بسيطة أما الثانية تقع في مؤخرة المسجد داخل باحة الجامع الخلفية تحملها أربعة عقود.

- **الأبواب:** للجامع ثلاثة أبواب رئيسية، يفتح اثنان مباشرة على الشارع في الناحية الجنوبية، أما الثالث فيفتح في مؤخرة المسجد وهو يتعامد مع البلاطة الثانية المحاذية للجدار الجنوبي. توجد أبواب ثانوية أحدها يفتح على ممر ضيق في الجهة الشمالية للمسجد يربط بين الساحة الشرقية و الميضاة، موضعه في مؤخرة المسجد أسفل المصطبة، أما الثاني فيفتح على رحبة الجامع وموضعه في الطرف الأيسر لحائط القبلة أما الثالث والأخير فيفتح بجانب المنبر على غرفة مخصصة للإمام .

- **النوافذ:** يتوفر المسجد على ثلاث عشرة نافذة موزعة كما يلي: أربعة في حائط القبلة وخمسة في الحائط الجنوبي، وثلاثة في الحائط الشمالي، واثنان في الحائط الخلفي على جانبي المدخل يتراوح أطوال الواحدة منها ما بين (1.50م × 1.50م)، تتكون كل النوافذ من ساترين من الخشب والزجاج الأبيض الشفاف كما دعت من الخارج بتشبيكات معدنية حديثة خالية من مظاهر الزخرفة .

- **المآذن:** كباقي منطقة سوف لم تكن في قمار الحاجة ملحة لبناء المآذن في المساجد نظرا لقلّة ارتفاع العمران و قلّة السكان لذلك كان يكفي إنشاء مصطبة مرتفعة نسبيا عن سطح المسجد ينادى منها للصلاة وهذا ما كان عليه جامع بلدة قمار قديما، ومع توسع

ال عمران وزيادة الكثافة السكانية صارت المئذنة ضرورية في المساجد وزاد ارتفاعها لكنها حافظت على النمط المغربي المربع الشكل.

يشتمل جامع سيدي المسعود على مئذنتين تعدادا نموذجيا لمآذن المدينة، إذ تتميز المئذنتان بشكلهما المربع طول ضلعهما 2.8م × 2.8م، يعلو كلا منهما جوسق ينتهي بقبة صغيرة ، يصل ارتفاعهما إلى نحو 11م من سطح الأرض ، زخرفت واجهاتها الأربع بأقواس صماء متقاطعة ، والظاهرة المعمارية اللافتة للانتباه أن المئذنتين أنشئت فوق سقف المسجد تحمل كل منهما أربعاً من دعائم قاعة الصلاة و ليس لهما قاعدة مغلقة متصلة بالأرض ، ويمكن الصعود إليهما من سطح الجامع بواسطة سلالم منقولة .

- **قبة المحراب :** سقف المسجد بقباب بسيطة الشكل لا تختلف عن القباب في العماائر المدنية الأخرى، أما القبة الرئيسية فقد جعلت وسط الجامع محمولة على أربعة أعمدة أكبر قطراً من نظيرتها التي تحمل سقف الجامع، روعي في إنجاز القبة الانتقال من المربع إلى المثلث ثم الدائرة بارتفاع نحو 4 م عن السقف زخرفت بنقوش جصية هندسية، وتظهر القبة من الخارج تتوسط المئذنتين في منتصف الجامع مضلعة الشكل فوق قاعدة مثمنة . (الصورة 18)

- **الميضأة :** تقع الميضأة خلف بيت الصلاة في الركن الشمالي الغربي ، جعل مخططها في شكل حرف (L) اللاتيني على مساحة خمس وعشرين متراً مربعاً، تتكون من عدد من المراحيض المتلاصقة وجعلت المطهرة الجماعية في شكل حوض مستطيل في الجانب الآخر.

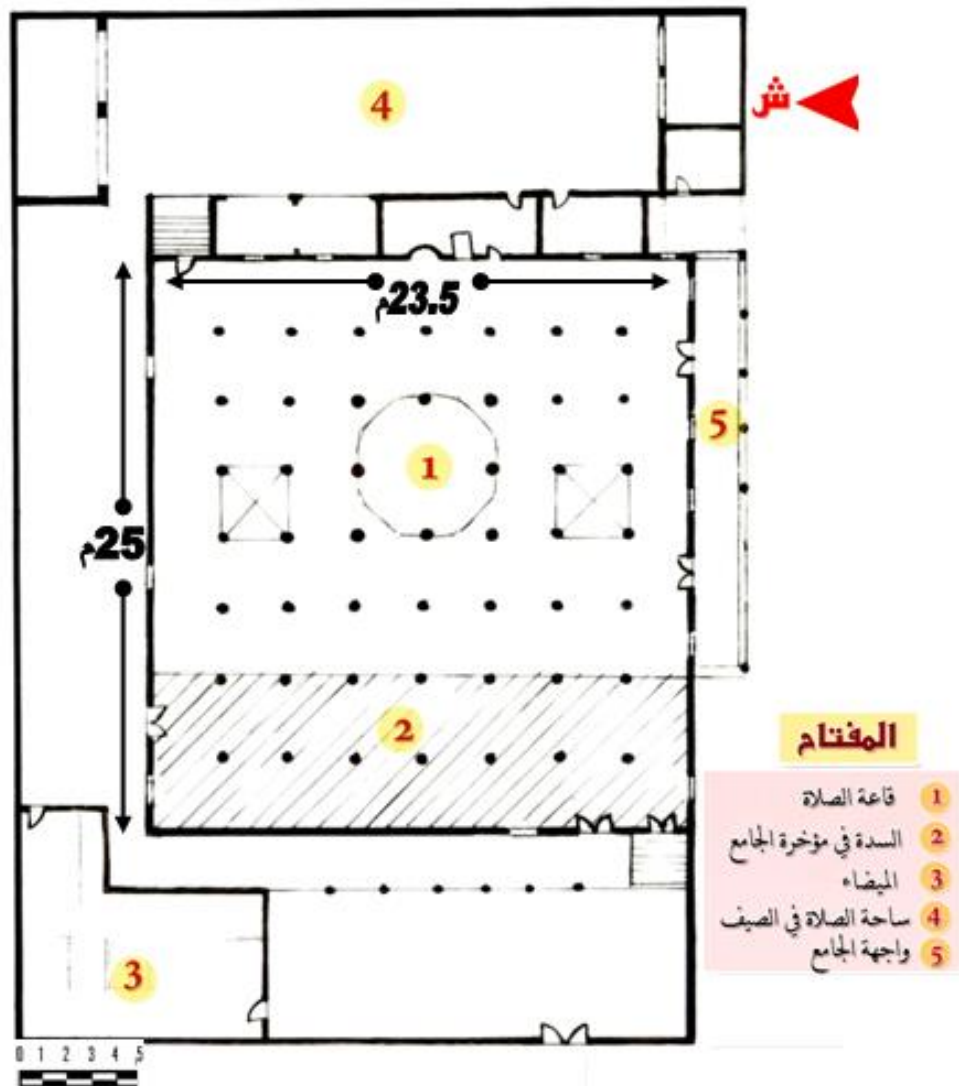
- **صحن المسجد :** جعل للمسجد في جهته الأمامية (الشرقية) ساحة فسيحة تستغل للصلاة أثناء الليل في فصل الحر، جعل على مجنبتها في الجهتين الجنوبية والشمالية ساباطان وثلاث غرف تستغل لجلوس الكبار و تعليم الصغار القرآن الكريم ومبادئ الفقه الإسلامي.

أما المظهر الداخلي يتكون من:

- **بيت الصلاة:** مربعة الشكل تقريبا على امتداد 25م من الغرب إلى الشرق و23.5م من الشمال إلى الجنوب وهو طول جدار القبلة، تتشكل من ثمان بلاطات عمودية على جدار القبلة تتقاطع مع ثمانية أساكيب موازية له، أما السقف فقد حمل على ثمان وأربعين عمودا اسطوانيا الشكل وعقود منكسرة ومتجاوزة بارتفاع يقدر بـ 5 أمتار. ومما تجدر الإشارة إليه أنه أضيفت في مؤخرة بيت الصلاة سدة على امتداد أسكوبين، لتكون بمثابة طابق أول للزيادة في طاقة استيعاب المسجد للمصلين الذي يقدر بنحو 1200 مصلي، يُمكن الولوج إليها بدرج من الخارج.

- **المحراب :** يتوسط جدار القبلة للجامع على حنية مجوفة تتوغل بعق متر واحد داخله ذات عقد متجاوز يبدو وكأنه محمول على أربعة أعمدة تزيينية، عمودين دقيقين في كل جانب ويعلو هذه الحنية إطار من زخارف جصية غائرة لأشكال هندسية يغلب عليها نجميات تبدو أنها من إنجاز نفس البناء الذي أشرف على بناء جامع السوق في الوادي. (الصورة 19)

- **المنبر :** للجامع منبر خشبي متحرك جعلت له كوة على الجانب الأيمن لكوة المحراب يتميز بقلعة ارتفاعه ، يتكون من ستة درجات صغيرة ذي شكل بسيط خال من أدنى مظاهر الزخرفة ما عدا قوس حدوية جعلت كمدخل له. كما يفتح في حائط القبلة باب غرفة الإمام التي تفتح بباب آخر على ساحة غير مسقوفة مخصصة للصلاة في وقت الحر. (الشكل 27)



(الشكل رقم 27) المخطط الحالي للجامع الشرقي بقمار

من عمل الطالب.

4.1. مسجد بيت الشريعة ببلدة قمار (نموذج لمساجد الأحياء):

أنشأت في مدينة قمار خلال مراحل تطورها المتتالية العديد من مساجد الأحياء، التي كانت في الأصل عبارة عن زوايا أو مدارس ونظرا لزيادة عدد السكان حولت إلى مصليات أو مساجد، لذلك لم يكن تخطيطها الأول مستجيبا لمواصفات المساجد . و قد لا تختلف مساجد الأحياء عن بعضها البعض من حيث شكلها العام ولا من حيث مساحتها ومرافقها ومن أمثلتها مسجد بيت الشريعة.

كما سبق الإشارة إليه فقد تأسست بيت الشريعة في سنة 1085هـ/1674م من طرف أحد أحفاد مسعود الشابي في الجهة الغربية من البلدة لتكون مدرسة وبيت لعابري السبيل ، وفي نهاية القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي أقام عرش أولاد أحمد مساكينهم بجواره ليصير حيا كاملا وجعل بيت الشريعة مسجدا للصلوات الخمس ، وقد عرف عدة تغييرات وتعديلات كان آخرها سنة 1974م حيث أقيمت بيت صلاة جديدة وترك المسجد الأول الذي بني في مطلع العشرينات من القرن 20 ليكون بمثابة مدرسة قرآنية.

وصف المسجد القديم:

أ- **بيت الصلاة** : جعلت بيت للصلاة مربعة الشكل تقريبا عرضها من الشمال إلى الجنوب نحو 11م وعمقها من الشرق إلى الغرب 9.70م، قسمت على خمسة بلاطات وأربعة أساكيب موازية لجدار القبلة وأهم مكوناتها :

- جدار القبلة: هو جدار قليل الارتفاع بعلو مترين ونصف (ارتفاع بيت الصلاة)، تتعتمد عليه البوائك الأربعة المشكلة لبلاطات بيت الصلاة، و في وسطه تقريبا جعلت كوة المحراب و فتحت على الجانب الأيسر للجدار نافذة على ارتفاع نحو 1.70م.

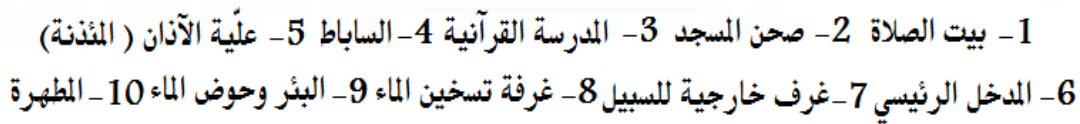
- كوة المحراب: جعلت في حائط القبلة حنيّة مُجَوَّفَة بعمق 0.90 م وعرضها بنفس عمقها، أما الارتفاع يبلغ 2.00 م يعلوها عقد نصف دائري بدون إطار أو زخرفة.
- السقف: سقف المسجد بـ 24 قبة ثلث كروية الشكل أو أقل أما قبة المحراب (القبة الرئيسية) فإنها نصف كروية تماما روعي في إنجازها الانتقال من المربع إلى الدائرة بإنشاء حنايا ركنية. (الصورة 20)
- العقود: تتشكل بيت الصلاة من خمسة بلاطات وأربعة أساكيب متقاطعة البوائك مشكلة من عقود حدوية ارتفاعها 0.90 م وعرضها حوالي 1.63م، حُملت على 12 عمودا أسطوانيا الشكل يبلغ قطر الواحد منها 0.55 م وارتفاعها نحو مترين.
- الأبواب: جعل للمسجد مدخل واحد في مؤخرة بيت الصلاة بعرض 1.25 م و ارتفاع 2.20م، يتكون الباب من مصراعين يبدو أنه حديث الصنع خال من كل مظاهر البذخ أو الزخرفة.
- النوافذ: جعلت على جانبي المدخل نافذتان صغيرتان ارتفاعها نحو 0.80 م وعرضها 0.60 م، كما أضيفت ثلاث نوافذ أكبرها التي في حائط القبلة على يسار كوة المحراب، أما الآخرين جعلوا في الحائط الجنوبي ارتفاعها 1.20 م وعرضها 1.00م. كل النوافذ لا تشتمل على زجاج وجعلت لها تشبيكات معدنية متقاطعة ليس بها زخارف.
- ب- **الصحن:** جعل في مؤخرة بيت الصلاة على مساحة 12×13م تكتنفه أروقة (ساباطات) على جهتيه الجنوبية والغربية، وغرفة في جهته الشمالية بينما يفتح المدخل الرئيسي للمسجد في الرواق الجنوبي.

ج- بيت الوضوء: كانت موجودة خارج المسجد مكونة من غرفة تسخين الماء تعلوها مدخنة ، تليها المطهرة والمراحيض التي جعلت في شكل غرف فردية صغيرة متقابلة مع بعضها البعض مساحة كل منها 1م × 1.50م، وكان الماء يجلب في الأواني بالأيدي من بئر الرحبة الواقعة إلى الغرب من المسجد .

د- المئذنة : لم تكن للمسجد مئذنة ظاهرة ينادى منها للصلاة ، وإنما جعلت له مصطبة مربعة الشكل أطوالها 1×1م في مستوى ارتفاع السقف يصعد إليها بواسطة درج على الحائط الجنوبي بعرض 0.90 م تؤدي إلى سطح بيت الصلاة .

أما المسجد اليوم فهو مغلق لم و في حالة إهمال تام وحولت الصلاة إلى مُصلى جديد أنجز أواخر الثمانينات وهناك مشروع لهدم بيت الصلاة القديمة بغرض توسعة صحن المسجد الحالي وتجديد بيت الوضوء. (الصورة21)

تميزت معظم مساجد الأحياء في منطقة الوادي بنفس التخطيط تقريبا مع اختلاف موضع بعض الهياكل كصحن المسجد أو المئذنة أو الميضاة وغيرها. (الشكل 28)



عن : الطالب.

2. الزوايا:

ظهرت حركة التصوف في العالم الإسلامي خلال العصر العباسي مع نهاية القرن الخامس الهجري، فظهرت طرائق ومناهج مختلفة في التصوف لكل منها شيوخه ومريديه¹، لتظهر فكرة الاعتكاف والعزلة عن الناس أو الانزواء في ركن من المسجد للتعبد ودراسة القرآن ومن ثمَّ ظهر مصطلح الزاوية.

- الزاوية لغةً من زوى الشيء أي جمعه وقبضه والزاوية من البيت أي رُكْنُهُ و الانزواء هو الانعزال في زاوية بعيدا عن الناس وهناك من يقول هو انضمام البعض إلى البعض في حلقة الدرس.

- أما اصطلاحاً فالزاوية يقصد بها ناحية من المسجد تُلقى بها الدروس، ولما انتشر التدريس خارج المساجد ولا سيما بالمدارس المخصصة لتدريس علوم الدين أُصطلح عليها الناس أسم الزاوية كما اصطَلَحوا على من يلزم الدروس فيها باسم الزاوي أو الزواوي، ثم عرف العالم الإسلامي منذ القرن 6هـ/12م نوعاً آخر من الزوايا التي اتخذها أرباب الصوفية مراكز لهم يلتقون فيها بمُرِيدِيهِمْ أو الراغبين سلوك طريقتهم عرفت بالخانقاه، فتحوّلت الزاوية من مهمتها العلمية إلى مركز لأصحاب هذه الطرق وأخضعت الإقامة فيها لتقاليد لا علاقة لها بالعلم والعلماء ومعماريًا عبارة عن مسجد صغير لا مئذنة له ولا منبر، فيه ضريح لأحد الأولياء أو الصالحين، تقام فيها الصلوات اليومية الخمس وتُلحق بها قاعات وغرف مخصصة لشيخ الطريقة وخدمه والمريدين ولاستقبال المتصوفين الساعين للزهد والعزلة²، إذا الزاوية هي بناية ذات طابع ديني ثقافي يقيم فيها الشيخ الصوفي ويعتكف فيها للعبادة والأوراد، ويلتف حوله طلبة ومريدون، يخدمه متطوعون نذروا أنفسهم لخدمة الزاوية³.

¹ عثمان محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة الكويت 1988، ص218.

² عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مطبعة مدبولي القاهرة، ط.1-2000، ص128

³ الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و7هـ، دار الهدى للطباعة عين مليلة 2004، ص.223

انتقلت حركة التصوف إلى المغرب الإسلامي في القرن 5هـ/11م وظهر العديد من رجالاتها كأبي مدين شعيب¹ وأبي الحسن الشاذلي² ومنهما تكاثرت الطرق الصوفية وتفرعت³.

أول ما استُعمل مصطلح الزاوية في بلاد المغرب في القرن 7هـ/13م و يعد الغبريني صاحب كتاب " عنوان الدراية " أول مصدر في المغرب الأوسط يذكر مصطلح الزاوية عند ذكره للعلامة البجائي أبي يحيى زكرياء الزواوي المتوفى سنة 611هـ /1214م⁴، وعرفت الزوايا انتشارا واسعا في الجزائر في الجزائر خلال العهد العثماني خاصة في القرن 10هـ/16م⁵، لقد انتشرت الزوايا في المدن والأرياف، في الجبال والصحاري وعاش المتصوفة مبتعدين عن صخب الحياة مؤثرين العزلة والعبادة، فإذا اشتهر أحدهم بين الناس أسس له مركزا يستقبلهم فيه ويعلم الطلبة ويكبر المركز بتبرعات المحسنين ويصبح اسم المتصوف علما على المكان ويسمى زاوية سيدي فلان، وإذا مات جعل ضريحه هناك، ويرث الأبناء والأحفاد قدسية المكان وتنتشر سمعته في كل مكان⁶، وصارت الزوايا تنقسم في الجزائر إلى ثلاثة أصناف:

- زوايا المشايخ: وهي ملكية خاصة وصاحبها في أغلب الأحيان هو المؤسس لها مثل الزاوية البلقايدية بوهران.

¹ أبو مدين شعيب أصله من أشبيلية (الأندلس)، ولد سنة 1116م أنتقل إلى طنجة ثم فاس وأرتحل إلى المشرق العربي حيث أخذ الطريقة عن عبد القادر الجيلاني، وعند رجوعه أستقر ببجاية ومنها إلى تلمسان حيث توفي سنة 1179م وضريحه بالعباد، تعرف طريقته بالطريقة المدنية.

² أبو الحسن الشاذلي أصله من المغرب الأقصى، ولد بسبتة عام 593هـ تحول من علم الكيمياء إلى علم التصوف بعد أداءه لفريضة الحج التقى بالصوفية في العراق وأخذ عنهم الطريقة، أستقر بشاذلة قرب مدينة تونس ونُسب إليها وفيها نشر التصوف ومنها تفرعت تسع عشرة طريقة. أنظر: عبد الجواد السقاط و أحمد السليمان، التواصل الصوفي بين مصر والمغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني المغرب 2000، ص. 31

³ لعجيلي التليلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية، منشورات كلية الآداب مؤبوبة 1992، ص. 29

⁴ أبو العباس الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح. عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط. 2-1979، ص. 129

⁵ عبد العزيز شهيبي، الزوايا والصوفية والعزابة والإحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر والتوزيع، د. ب. ط. ص. 17

⁶ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج. 1، ص. 262-263

- زوايا المرابطين: تعتبر ملكية جماعية تحبس مواردها على طلبة العلم الذين يتقاسمون مواردها من الأوقاف وغيرها مثل زاوية سيدي عمرو الشريف بدلس.

- زوايا العلم : ويتمتع الطلبة فيها باستقلالية في تسييرها وتنظيم حلقات التدريس وتحفيظ القرآن مثل زاوية سيدي عبد الرحمان اليلولي بعزازقة (القبائل الكبرى)¹ وتعتبر بلاد زاوية و بجاية من أغنى مناطق الجزائر بالزوايا، فقد تصل إلى خمسين زاوية². كما تعد الرحمانية³ الطريقة الأكثر انتشارا في المغرب الإسلامي ولديها في الجزائر حوالي 177 زاوية منتشرة في معظم البلاد باستثناء الجهة الغربية⁴

أما منطقة سوف فنظرا لموقعها المنعزل وجغرافيتها الصعبة فقد ظلت لفترة طويلة تمثل ملاذا و ملجأ للهاربين من البلاد المجاورة، أو من يبحث عن العزلة والتخفي فكانت أرضا للدعوة استقطبت الكثير من الفرق الدينية والطرق الصوفية.

تعتبر الشّابية أولى الطرق الصوفية دخولا للمنطقة من خلال الزيارات المتكررة لسيدي المسعود الشّابي فهو من أسس أولى المساجد الجامعة التي شكلت نُويّات للحواضر الأولى بالمنطقة، إلا أن الطريقة الشّابية بموت المسعود الشّابي سرعان ما أنحصرت نفوذها بسبب دخولها في صراعات سياسية مع حكام تونس والجزائر⁵. ونشطت العلاقات بين بلاد سوف وإقليم الزاب الشرقي فصارت الزاوية الرحمانية لخنقة سيدي ناجي تستقبل طلاب العلم من أهل سوف.

ومن أشهر الزوايا بمنطقة سوف:

¹ علي حملاوي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، موفم الجزائر 2006، ص. 223.

² نفسه، ص. 265.

³ تنسب الطريقة الرحمانية إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمان القشوطي الأزهرى المولود بمنطقة جرجرة سنة 1126هـ الذي استقر برواق المغاربة بالجامع الأزهر لنحو ربع قرن وتتلّمذ على محمد بن سالم الحفناوي الذي أخذ عنه الطريقة الخلوتية وعمل بعد عودته سنة 1183هـ على نشرها إنطلاقا من زاويته في قرية آيت إسماعيل ببلاد القبائل وعرفت الطريقة باسمه وعرفت انتشارا كبيرا في وسط وشرق وجنوب الجزائر وكذلك بلاد الجريد بالجنوب التونسي أنظر: صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت 2002، ص 155

⁴ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع 1830-1954، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط. 1998، ص. 294.

⁵ علي الشّابي، تاريخ الشّابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار النقوش العربية، تونس، ط. 1-2015، ص. 357.

1.2- الزاوية التيجانية بقمار:

تعد الزاوية التيجانية بقمار أول زاوية تأسست للتيجانيين في العالم الإسلامي¹، ولكونها أهم معلم أثري في منطقة سوف لِمَا اشتملت عليه من عمائر ومرافق تميزت بطرازها المغربي الإسلامي الأصيل في هندستها وزخرفتها التي مازالت تحافظ على الكثير منها إلى اليوم فقد صنفت ضمن التراث الوطني المحمي سنة 1982.

1.1.2- التأسيس والتطور:

لقد كانت بلدة قمار بمثابة المركز الديني لعموم منطقة سوف فكانت قبلة للكثير من الطرق الصوفية آخرها الطريقة التيجانية الأحدث ظهورا.

تأسست الزاوية التيجانية بقمار في سنة 1204هـ / 1789م، بأمر من مؤسس الطريقة الشيخ أحمد التجاني*²، على مساحة 81 م² من الصحن الشرقي لبلدة قمار، خارج حدود البلدة القديمة، وبقيت مدة ثمانون عاما (1789-1869) على شكل قاعة مربعة (9مx9م) ، تؤدي فيها الصلوات الخمس، والذكر الجماعي والأوراد الخاصة بالطريقة (الوظيفة)³. (الصورة 22)

- كانت أول توسعة للزاوية في سنة 1869 ببناء مسجد سيدي عمار، والمقر الاجتماعي للزاوية المكون من طابقين أرضي وعلوي، فكانت أول بناء في منطقة سوف وثالث معلّم

¹ تلتها زاوية فاس بالمغرب (1215هـ/1800م) فزاوية تماسين قرب نقرت (1218هـ/1803م) ، ثم زاوية عين ماضي بالأغواط (1231هـ/1816م).

* احمد التجاني ولد بعين ماضي سنة 1150هـ/ 1737م تتلمذ على يد محمد بن عبد الرحمن الأزهرى مؤسس الطريقة الرحمانية بالجزائر ، تنقل سنة1758م إلى فاس وكان يتردد على تلمسان والأبيض سيدي الشيخ ،قام بأداء فريضة الحج سنة 1172هـ/1773م وبعد عودته بدأ الدعوة لطريقته الجديدة ما جعله يتعرض لمضايقة الأتراك في تلمسان فأستقر نهائيا بالمغرب حيث توفي بفاس سنة 1230هـ/1814م .

² أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10-14هـ/16-20م ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط 2 ،الجزائر 1985، ج.1 ، ص،516 . أنظر كذلك : مفتاح عبد الباقي ، أضواء على الشيخ أحمد التجاني وأتباعه، الجزائر1408هـ، ص 148.

³ اعتمدنا في هذه المعطيات على مصادر الزاوية منها مخطوطات موجودة في مكتبة الزاوية وكذلك الرواية الشفهية لأتباع الطريقة من لديهم اهتمامات تاريخية.

في قمار ينجز من طابقيين، و تم تزيين القبة الكبرى للمقر الاجتماعي بزخارف ونقوش جميلة من إبداع الفنان أحمد بن الطاهر بن بالقاسم التيجاني¹ والذي تعلم عليه عمر قاعة القماري .

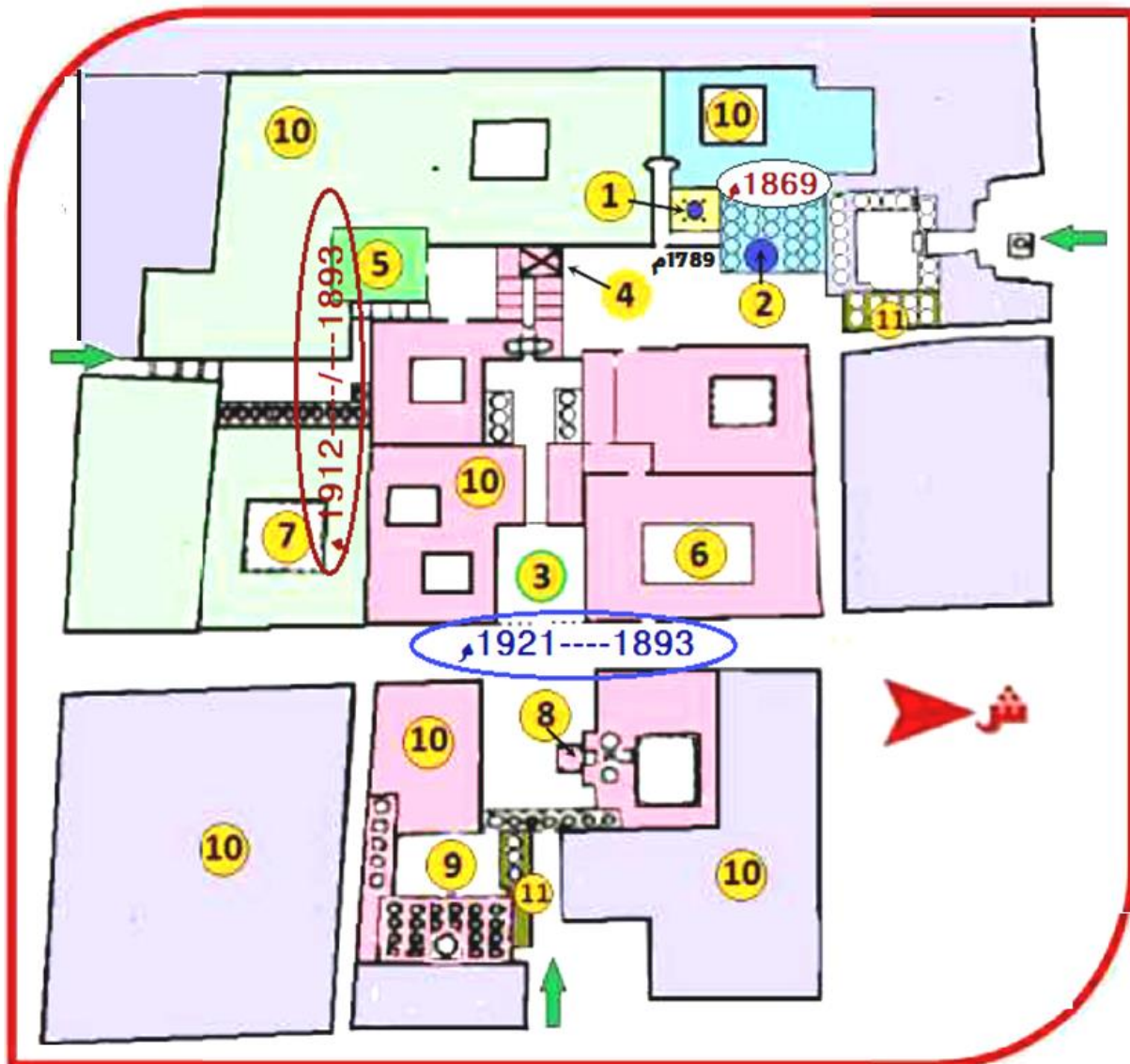
- كانت التوسعة الثانية وفي أواخر القرن 14هـ/19م ببناء مقر اجتماعي جديد للزاوية جنوب المقر الأول، جعلت مدخله "الدار الخضراء" التي كانت توظف لاستقبال الزوار، وتدرّس الفقه، (وهي حاليا مخصصة كمكان لتعليم القرآن الكريم)، كما أنجز " الحوش الشرقي" سنة 1330هـ/1912م .

- في التوسعة الثالثة تم إنجاز مجمع عمراني ضخم يمتد من قصر القبة الهرمية غربا، إلى المسجد الشرقي مرورا بفضاءات الاستقبال، ومدخل الجنان المنقوش بالزخارف الجصية في الفترة مابين (1893 - 1920م) بإشراف محمد العروسي²، وتم وفي سنة 1317هـ/1900م في الجهة الموازية لهذا المجمع إنجاز " حُوش الأسياد " أو دار السادة التيجانيين و ملحق دار الضيافة المخصص للمجالسات الأدبية والثقافية .

صارت الزاوية مجمعا ضخما يتكون من قسمين يفصل بينهما الشارع الرئيسي في كل منهما مسجد، إضافة إلى ثلاث دور كبيرة وقسم علوي جعل له سقف هرمي ألحقت به غرف صغيرة بالإضافة إلى المكتبة العرفانية التي احتوت على نفائس الكتب المخطوطة ، كما جعل في كل قسم منها مدافن خاصة بمشايخ الزاوية و كما أحيطت بدور سكنية خاصة بعائلات الزاوية.(الشكل 29)

¹ يقال أن أصله من فاس ولكنه أستقر بعين ماضي معقل التيجانية الأول .

² سيدي محمد العروسي أصله من تماسين لم يتول خلافة الطريقة وفضل الإقامة في زاوية قمار حيث توفي و بها دفن سنة 1920م ، ويُعرف أولاده وأحفاده بلقب بلعروسي.



- 1- المقر الأول للزاوية التيجانية (ضريح أحمد عمار) 2- مسجد الزاوية 3- المدخل الرئيسي للزاوية
4- دار الخلوة (ذات السقف الهرمي) 5- الدار الخضراء 6- دار السادة التيجانية 7- الحوش الشرقي
8- قوس مدخل الجنان 9- مسجد سيد حمّـة العروسي 10- مساكن إجتماعية 11 - قبور أهل الزاوية
← - المداخل الثانوية للزاوية

(الشكل رقم 29) مخطط تقريبي الزاوية التيجانية ومراحل توسعها

عن الطالب

وقد تميزت الزاوية بكونها أول معلم ديني بُني من طابقين في منطقة سوف بالإضافة إلى روعة هندستها المعمارية التي غلب عليها الطابع المغربي الأصيل، و رغم أنها لم تعرف العمران الفعلي إلا في القرن 14هـ/19م، فقد استطاعت الزاوية التيجانية أن تضاهي روعة الفنون والعمائر التي ميزت حواضر المغرب الإسلامي الكبرى وخلدت الكثير من مآثرها، فعندما تقف أمام باب الجنان الذي يعرف بقوس النصر بزخارفه الرائعة وبوابته الضخمة يُخَيَّلُ إليك أنك تقف أمام بوابة جامع سيدي بومدين أو سيدي الحَلَوِي بتلمسان ، وعندما تشاهد قبة مسجد سيدي عَمَّار تظن أنها نسخة مصغرة لقبة جامع عقبة بالقيروان، وعندما تقف وسط صحن حوش أسيادنا المحاط بالأقواس الحَدَوِيَّة المُتَجَاوِزة ودعاماتها المربعة تظن وكأنك وسط إحدى مدارس أو قصور تلمسان، أما السقف الهرمي الذي يعلو دار الخلوة فرغم كونه أنشئ من الجبس فإنه يوحي إليك بالأسقف الهرمية المغطاة بالقرميد الأخضر التي تعلو العمائر في تلمسان أو فاس أو مختلف عمائر المغرب الإسلامي .

2.1.2- أهم عمائر الزاوية :

أ- **جامع أحمد عمار**¹: أسسه الخليفة² محمد العيد الأول مابين (1869- 1870م) يعتبر من أقدم المنشآت التي لم تطرأ عليها تغييرات كثيرة ، فرغم عمليات التجديد إلا أنه حافظ على مظهره العام، و يقتصر المسجد اليوم على بيت للصلاة ليس لها لواحق حتى الميضاة جعلت منعزلة عنه و يتكون المسجد من :

- بيت الصلاة ذات شكل مربع تقريبا 18م × 17.5م أهم مكوناتها :

¹ هو أحمد عمار بن محمد الحبيب بن أحمد التيجاني، ثالث خليفة للطريقة بعين ماضي بالأغواط، توفي ودفن بعمار سنة 1314هـ/1897م

² الخليفة هو مرتبة في هرم السلم الإداري للطريقة الصوفية الذي يبدأ بشيخ الطريقة فالخليفة ثم المقدمون ثم الأخوان المريدون.

- جدار القبلة : يبلغ طوله نحو 18م يحتوي على عدة فتحات منها باب حديث الإنشاء جعل في الجانب الأيسر بالإضافة إلى كوة المحراب بعمق 1م يعلوها عقد متجاوز تَوَطَّرَه زخارف هندسية على جانبيه 4 كوات أو نوافذ صماء كما تعلو عقد المحراب نافذتان صغيرتان .

الملاحظ أن كوة المحراب لا تتوسط جدار القبلة تماما بل نجدها تتعامد مع الصف الثاني من الأعمدة من الجنوب ولا تتعامد مع البلاطة الوسطى ما يعطي الانطباع بأن الجامع قد عرف توسعة في جهته الشمالية أي بزيادة بلاطة. (الصورة 23)

- السقف: سقف الجامع بقباب بسيطة الشكل قليلة الارتفاع تتقدمها قبة المحراب الملاصقة لجدار القبلة و التي يتجاوز قطرها 6م وقد روعي في إنجازها الانتقال من قاعدة مربعة إلى المثلث إلى الدائرة .

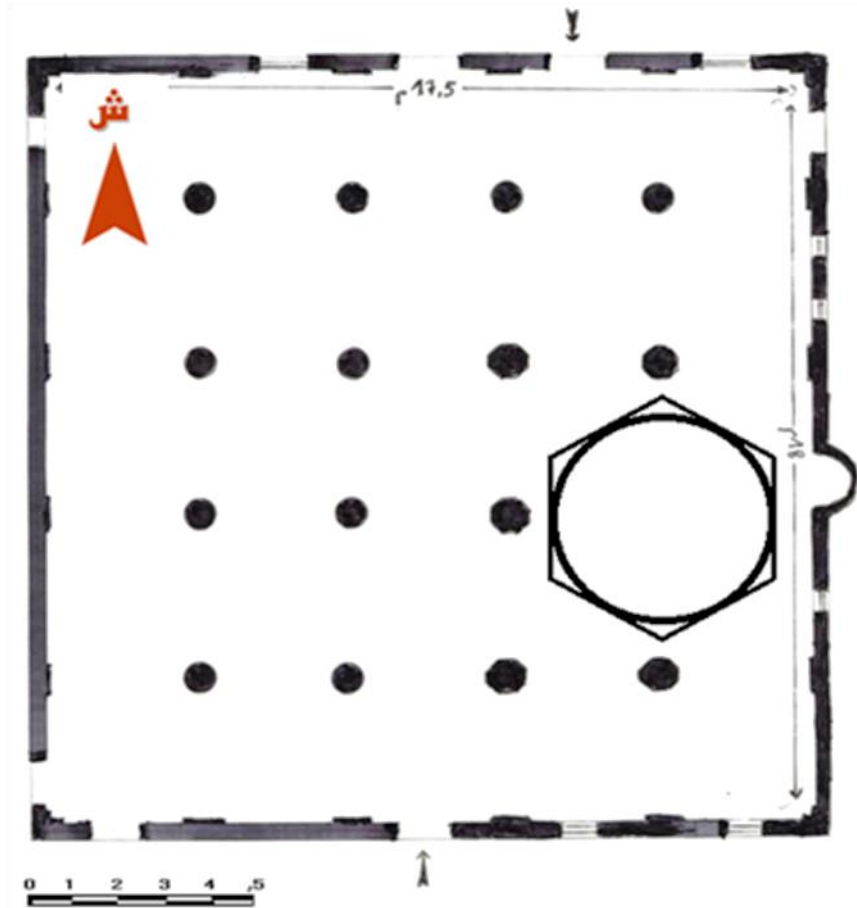
- قبة المحراب: تميزت القبة بزخارفها الجصية الرائعة المتمثلة في أشكال هندسية أهمها دوائر متداخلة تغطي حنايا المربع وعقود صماء ذات زخارف مفصصة ومربعات صغيرة، بينما قلنسوة القبة فقد زخرفت بألوان مائية في شكل فصوص ذات ألوان مختلفة غلب عليها اللون الأزرق إلا أن معالمها أخذت تندثر بفعل الرطوبة .

- العقود والأعمدة: رفع سقف الجامع بواسطة بوائك متقاطعة مشكلة من عقود حدوية متجاوزة الشكل حملت على 15 عمودا أسطوانيا باستثناء خمس منها، وهي التي تحمل قبة المحراب فقد جعلت مضلعة الشكل وجعلت المسافة التي تفصل بينها تتراوح ما بين 2.7م و 3م .

- الأبواب والنوافذ: يشتمل المسجد على سبعة 07 أبواب ،اثان رئيسيان يستعملان إلى حد اليوم ،أما بقية الأبواب فأغلبها صغيرة و مستحدثة منها واحد في جدار القبلة من الجهة اليسرى والأخرى في المؤخرة .

وبالنسبة للنوافذ فعددها أربع، اثنتان كبيرتان نسبيا أطولهما (1 × 1.5م) توجدان في الجدار الشمالي، والأخريان صغيرتان (0.5 × 0.7م) جُعِلتا مرتفعتين في الحائط الجنوبي، كما فتحت ثلاث نوافذ اصغر من السابقتين في جدار القبلة.

الملاحظ في هذا الجامع أن عدد الأبواب أكثر من النوافذ ويمكن تفسير ذلك بكون الجامع محاط بالمساكن من جهتيه الجنوبية والغربية وقد يبرر ذلك تعدد المداخل حيث نجد كل منها يفتح على منزل من منازل أهل الزاوية. و يبقى أهم هذه الأبواب ذلك الذي في الجدار الجنوبي ويفتح على الرواق المحاذي لضريح أحمد عمار بن الحبيب حيث يفضل الأحاباب الدخول منه. (الشكل30)



(الشكل الرقم 30) مخطط مسجد أحمد عمار بالزاوية التيجانية بقمار

عن: الطالب

ج-القاعة الهرمية وملحقاتها:

تعرف القاعة الهرمية بدار الضيافة وتعد من أروع معالم الزاوية سواء من حيث التصميم أو من حيث الزخرفة حتى جازت تسميتها بالقصر، جاء تأسيسها من طرف سيد حمّ العروسي في الفترة ما بين (1310-1338هـ/1893-1920م) وتتكون من قسمين:

- القاعة الكبيرة : وهي مربعة الشكل تقريبا طول أضلاعها (6 م × 6.5 م) جعلت لها خمس نوافذ واحدة على الجدار الشمالي حيث تفتح على ساحة مجمع الزاوية، والباقي تفتح على البهو الجانبي، وقد جعل سقف القاعة بشكل هرمي. ومن الداخل غطي سقف القاعة وكل جدرانها بزخارف جصية و بالألوان اختفت الكثير من معالمها الأصلية بفعل الرطوبة (الصورة 24).

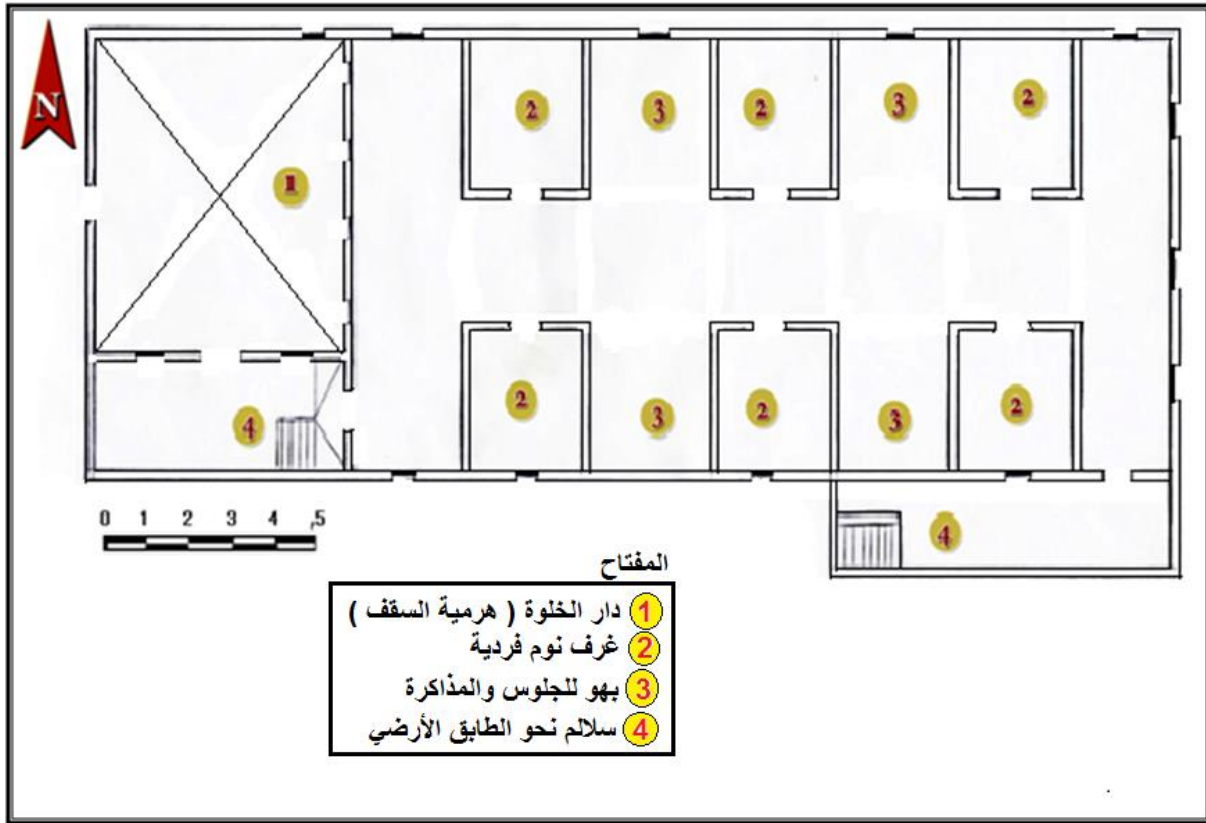
جعل للقاعة باب صغير في الجدار الغربي يؤدي إلى مرحاض وقاعة صغيرة اشتملت على مدفأة و سلالم تؤدي إلى سطح المبنى الاجتماعي، كما يوجد باب آخر يؤدي إلى دهليز أسفل الزاوية¹.

- الغرف الصغيرة : جعلت إلى جانب القاعة الكبيرة ست غرف صغيرة، ثلاثة في كل جانب و أنشأت بشكل متناوب مع قاعات أخرى مفتوحة يبدو أنها مخصصة للجلوس، يفصل بينها رواق ويبدو أن هذه الغرف جعلت كإقامات فردية، والشيء الملاحظ أن الغرف غير متساوية في المساحة و تتراوح ما بين (8.5/10م) أضيف في النصف الثاني من القرن الماضي غرف مشابهة لهذه الغرف في الطابق الأرضي وبنفس العدد ست غرف.(الصورة 25)

¹ اشتملت الزاوية على ممرات تحت أرضية (أنفاق) جعلت خصيصا للحريم والنساء للتنقل بين المباني الخاصة خلال مواسم الزيارات حيث يكثر الوفود والأجانب ، يقدر عددها بثلاثة أنفاق .

و يمكن الصعود إلى مبنى القبة الهرمية ولواحقها بدرجين أحدهما دائري يصعد مباشرة أسفل القاعة الكبيرة، وثانيهما يصعد من الجهة الشرقية للغرف الصغيرة.

- رغم أنه لم تتضح الوظيفة الحقيقية لهذا القصر ولكن يبدو من خلال شكله ومرافقه أنه يشبه تخطيط المدارس الداخلية التي أشأت في الحواضر الكبرى والتي عادة ما تشتمل على قاعة للدروس أو أكثر وقاعات صغيرة للمذاكرة أو للمجالسات العلمية و إقامات للطلبة . (الشكل 31)



(الشكل رقم 31) مخطط القاعة الهرمية بالزاوية التيجانية بقمار

عن: الطالب

ج- دار الأسياذ أو دار السادة التيجانيين:

اشتملت الزاوية التيجانية على عدة منشآت مدنية تمثلت في الدور السكنية الخاصة بعائلات الزاوية والتي جعلت في شكل مجمع في الجهة الغربية من الزاوية بالإضافة إلى ثلاث دور كبيرة الدار الخضراء ، الحوش الشرقي وأكثرها ترفاً وأروعها هندسة دار السادة التي أشرف على إنجازها الشيخ سيدي العيد نجل الخليفة محمد الصغير سنة 1900م وكانت على غرار العماائر الإسلامية الكبرى .

تتكون دار السادة من ثلاثة أقسام متلاصقة هي بهو الإستقبال في الجهة الغربية و حوش الخدم في الوسط و الحوش الرئيسي في الجهة الشرقية .

الحوش الرئيسي: يمكن الولوج إليه من الشارع الرئيسي عبر باب ثانوي عرضه 1.85م الذي يفضي مباشرة عبر درج إلى الصحن.

يتميز صحن الدار بأتساعه يتراوح طوله بين 17.90م من الشرق إلى الغرب و17.70م من الشمال إلى الجنوب ، تحيط به أروقة من جهاته الأربع ، تحمل كل منها بائكة مشكلة من خمسة عقود منكسرة ومتجاوزة أكبرها الوسطى ، ترتكز العقود على أربع دعامات مضلعة الشكل، واثنان ركنيتان بشكل زاوية قائمة. يفصل بين الدعامة والأخرى مسافة تقدر ب 1.90م ماعدا تلك التي تحمل العقد الأوسط فتقدر مسافتها 2.20م. (الصورة 26)

يتقدم الرواق مجموعة من الغرف ذات مقاسات وأشكال مختلفة ، تتميز الغرفتان الواقعتان في الجهتين الشمالية والجنوبية بكبرهما يقدر طول كل منهما 8.20م وعرضها حوالي 6 م تفتحان على الصحن بواسطة باب مكون من دفتين بعرض 1.30م وارتفاع 2.50م و نجد على جانبيهما نافذتان عرض كل واحدة 1.2م وارتفاعها 1.9م . احتوت كل غرفة على مقصورتين مربعتي الشكل يقدر طول ضلعها 3م×3م ، جعلت مداخلهما مقابلة للنافذتين. أما الغرفة الواقعة على الجهة الغربية يقدر طولها ب8م وعمقها 4.50م

،تحتوي مقصورتان بعرض 2.50م ،تفتح بها نافدتان عرضهما 1.20م وإرتفاعهما 1.30م ،أما الغرفة الواقعة في الجهة الشرقية طولها 5.50م وعمقها 2م .

تكتنف الغرفة الجنوبية غرفتان جانبيتان ،الغرفة الشرقية منهما مستطيلة الشكل يقدر عرضها بـ 3.50م وعمقها بـ 6م ،أما الغرفة الغربية فهي مربعة تقريبا ويقدر طولها 5.50م وعمقها 6م وتتوسط هذه الأخيرة دعامة مربعة طول ضلعها 0.50م ، تشمل الغرفة على خابيتين كبيرتين كانتا تستغلان لتخزين التمر ويحد الغرفة في جانبها الغربي مخزن كبير مقسم إلى جزئين مخصص لتخزين الحبوب .

كما تكتنف الغرفة الشمالية غرفتان مربعة الشكل تقريبا طول ضلعيهما 3.20م×3م .

توجد في الركن الشمالي الشرقي للحوش دورة المياه مشكلة من مرحاض وميضأة .

ومما تجدر الإشارة إليه أن البوائك زخرفت بشريط من الزخارف الجصية ذات أشكال هندسية قوامها دوائر وزهريات ،كما زخرفت العقود الوسطى لكل بائكة بإطار جعل في ركنيه زخرفة دائرية

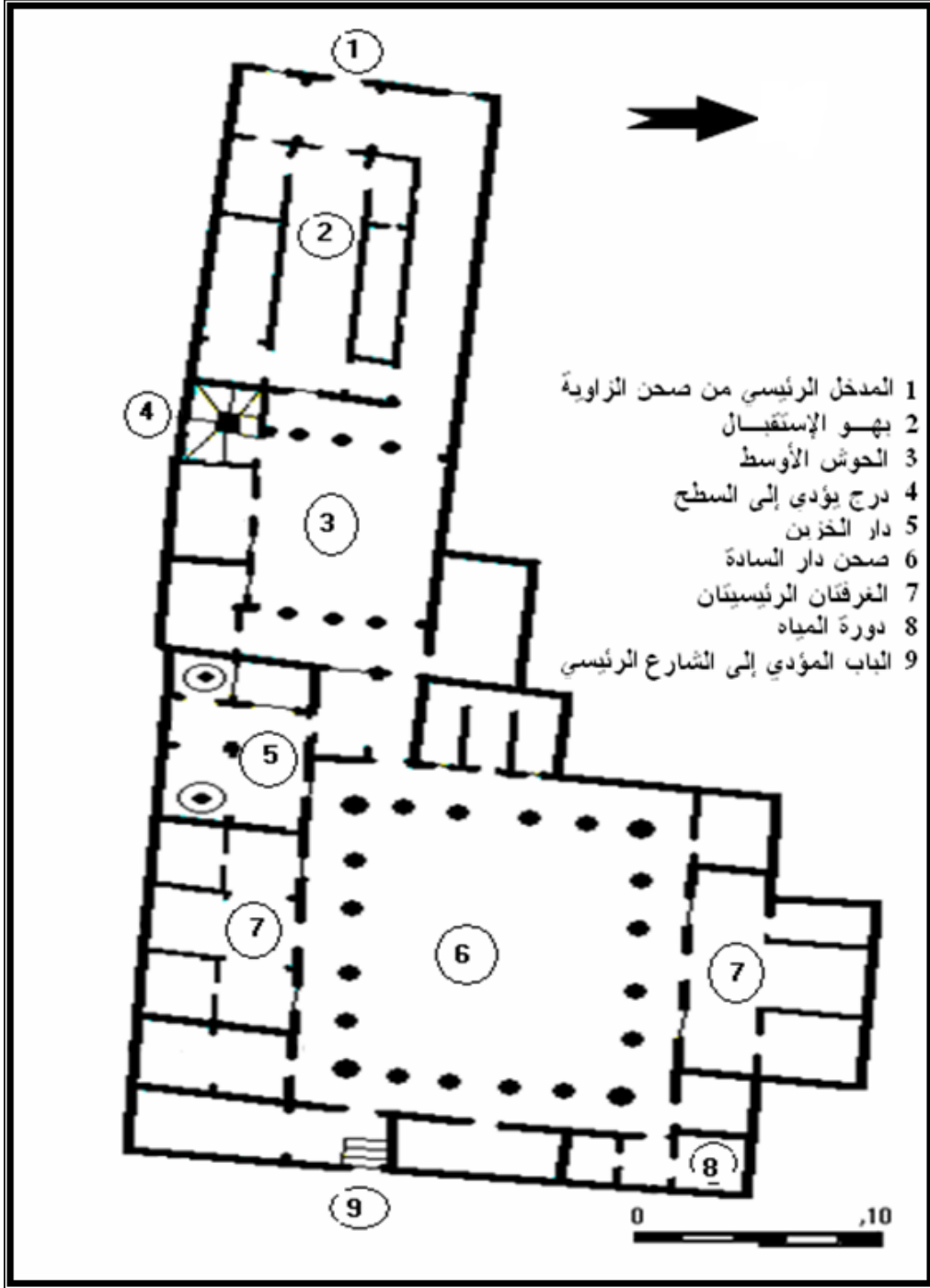
يوجد في الجهة الغربية بالقرب من دار الخزين ممر يؤدي إلى فناء أقل إتساعا مربع الشكل تقريبا أطواله 11م×13م ،يكتنفه على الجهتين الغربية والشرقية رواقان تحتوي بائكة كل منهما على أربعة عقود منكسرة محمولة على دعامات مربعة الشكل طول ضلعها 0.50م . وتفتح على الفناء ثلاث غرف متفاوتة الأحجام أكبرها الموجودة في الجهة الشمالية مربعة تقريبا أطوالها 6م×4.50م ،ويوجد في الركن الجنوبي الغربي من الفناء مدخل يؤدي إلى درج دائري يؤدي بدوره إلى سطح الدار .

بهو الاستقبال: يمكن الوصول إلى بهو الاستقبال عبر فناء أوسط، وهو عبارة عن قاعة فسيحة مستطيلة الشكل يقدر امتدادها من الغرب إلى الشرق بـ 8م×4م جعل له نافذة كبيرة في الجهة الشرقية يصل عرضها 1.5م وأرتفاعها 2.5م، و يوجد في الجهة

الغربية مدخل يفضي إلى قاعة أخرى تتقدم البهو والتي بدورها تفتح على ساحة الزاوية الرئيسية بواسطة بوابة ضخمة مكسوة بصفيحة معدنية ارتفاعها 3م وعرضها 2.50م ، وقد زين إطار الباب بمربعات خزفية أطوالها 15سم × 15سم ذات زخرفة نباتية على خلفية بنية فاتحة يحيط بها شريط هندسي أزرق ، وقد سقف البهو بقبو مستطيل .

تتصل بالبهو على جوانبه قاعات أخرى أقل اتساعا ، كما زين بنوافذ صغيرة صماء كما زخرفت كامل جدرانه وسقفه بألوان مائية زاهية غلب عليها اللونان الأزرق والأخضر تمثلت مواضيعها الزخرفية في دوائر مشكلة من فصوص وأطباق نجمية صغيرة بالإضافة إلى زخرفة الأرابسك المتكونة من الأوراق والأزهار الصغيرة ، كما يلاحظ زخرفة كتابية داخل شريط من الدوائر تضمنت أسماء الله الحسنى .

كانت دار السادة تستقبل كبار الضيوف من مشايخ الطريقة الوافدين من تماسين أو من عين ماضي ويمكن تبين ذلك من خلال فخامة الغرفتين الرئيسيتين وكذلك الدار الملحقة المخصصة للخدم، وأيضا من البهو المستطيل والذي كان بمثابة قاعة تشريفات أو تكريم ويظهر ذلك من زخارفه المتنوعة و بوابته الفخمة. (الشكل 32)



(الشكل رقم 32) مخطط لدار السادة وأقسامها بالزاوية التيجانية بقمار

عن الطالب

2.2 - الزاوية الرحمانية سيدي سالم بالوادي:

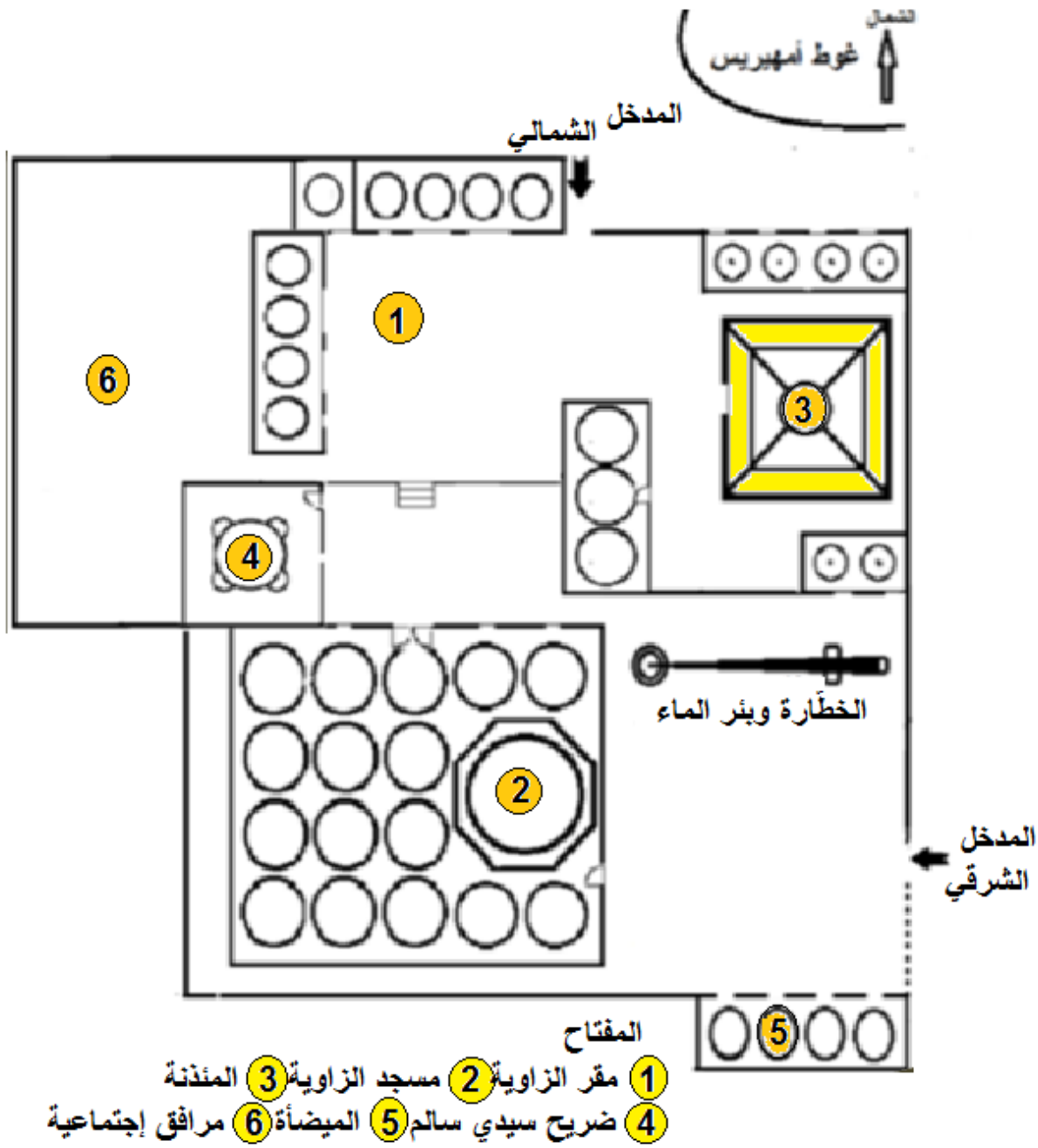
أ- التأسيس:

كان دخول الطريقة الرحمانية إلى منطقة سوف على يد الشيخ سيدي سالم الأعرج بن محمد بن نصر بن عطية بن الزايد بن سيدي المجدوب دفين القيروان، ولد سنة 1176هـ/1762م، هو مؤسس أول زاوية للطريقة الرحمانية بمنطقة سوف والمتوفى سنة 1277هـ/1812¹. الذي أخذ الطريقة عن سيدي علي بن عمر البُرْجي أحد تلامذة² محمد بن أحمد بن يوسف بن عزّوز البُرْجي، المولود بالبرج قرب طولقة حوالي 1170هـ/1757م، أخذ الطريقة الرحمانية عن محمد بن عبد الرحمن الأزهري المعروف ببو قبرين، أنشأ زاوية لنشر العلم والدين في قرية البرج بالزّاب الغربي، مات إثر عودته من الحج بوباء الطاعون سنة 1233هـ/1818م و الذي أوصاه ببناء الزاوية في الوادي، والذي وضع نواتها في بادئ الأمر من بيت سعف النخيل ثم صارت زاوية كاملة المعالم في حدود سنة 1235هـ/1819م، وعرفت في عهد خليفته العالم الجليل محمد الصالح تطورا وجعل لها مدرسة لتحفيظ القرآن و تعليم الدين. وأضيف لها المسجد سنة 1246هـ/1830م³، وبعده بسنوات كان تشييد مئذنته، وصارت زاوية سيدي سالم مُركَّبًا يتكون من جامع، ومقر الزاوية المدرسة الذي احتوى على مكتبة علمية قيمة وضريح الشيخ المؤسس وبعض أولاده وأحفاده إضافة إلى المرافق الاجتماعية الخاصة، وأهم هياكلها المئذنة الشهيرة. (الشكل 33)

¹ تولى رئاسة الزاوية بعد وفاة سيدي سالم ولده أنظر: صلاح مؤيد العقبي، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق، بيروت 2002، ص.734

² عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ط2. 1980. ص.232 و ص.362

³ رشيد سامي، منارة سيدي سالم بوادي سوف "معلم وتراث"، مطبعة مزوار، 2009، ص.6.



(الشكل رقم 33) مخطط تقريبي لزاوية سيدي سالم في مطلع القرن الـ20م

إعادة تصور من إنجاز الطالب*

* مخطط تقريبي تم إنجازه بالاعتماد على الرواية الشفهية وبعض الصور الفوتوغرافية القديمة والأخ سالم عز الدين.

ب- مئذنة زاوية سيدي سالم:

- المئذنة الأولى: لا يُعرف بالضبط تاريخ تشييد المئذنة الأولى للزاوية و ترجح الروايات الشفهية أن إنشائها كان في حوالي 1256هـ/1840م، لكنها لم تعمر طويلا وهدمت، وما وصلنا من صور عنها تُظهر أنها لم تكن تختلف في شكلها الخارجي عن مآذن منطقة الجنوب الشرقي في ذلك الوقت (منطقة الزّاب الغربي أولاد جلال، أم الطيور) ، خاصة تلك الأخيرة التي أنجزت في فترة متقاربة معها¹ إلا أنها أكثر منها جمالا وزخرفة، كما يعتقد أنها أنجزت بالطين واللّبن المجفف تحت الشمس !! يظهر ذلك من خلال صورة رسمت باليد وردت في إحدى البحوث الفرنسية.² (الصورة 27)

تُظهر الصُّور شكل المئذنة القديمة عبارة عن كتلة واحدة ذات قاعدة مربعة الشكل تأخذ في الضيق نحو الأعلى حيث تنتهي بشرفة بمثابة الجوسق تعلوها قبة صغيرة و تفتح على كل ضلع منها نافذتان معقودتان بقوسين منكسرين. (. (الصورة 28) اشتمل قسم المئذنة الأسفل على زخارف عمائرية تمثلت في وجود ثلاثة أقواس صماء أسفل كل ضلع تعلو كل قوس زخرفة علامة زائد(+) وفي منتصف البدن شريط بمثابة قاعدة لبائكة من أربعة أقواس صماء وأسفل كل منها تتدلى زخرفة صليبية معقوفة³، كما تتخلل جدران المئذنة نافذة صغيرة على كل ضلع بغرض إنارة السلم المؤدي لأعلى المئذنة.

- المئذنة الحالية:⁴ منذ إنجازها سنة 1314هـ/1896م ظلت شامخة في سماء مدينة الوادي شاهدة على أصالة المنطقة وعراقة تاريخها.

¹ أنشأ جامع أم الطيور سنة 1858م وهدمته السلطات الاستعمارية سنة 1884م. حسب صورة من الأرشيف الفرنسي .

² الشيء الذي جعلنا نعتقد أنها بنيت بالطين أنها لم تصمد طويلا فبمجرد استقرار الإدارة الاستعمارية بوادي سوف سنة 1882م طلب الحاكم العسكري من شيخ الزاوية مصباح بن سيدي سالم هدمها لأنها صارت تشكل خطرا على السكان لكثرة تصدعاتها، بينما المئذنة الحالية يفوق عمرها القرن وما زالت قوية لأنها بنيت بالحجارة ومادة الجبس المنتجة محليا. أنظر:

JACQUOT (Grenoble), Sculptures cruciformes sur une Mosquée saharienne, Bulletin de la Société préhistorique de France, tome IX, Paris, janvier 1912, p.p.353-354.

³Le Monde illustré journal hebdomadaire, N°797 16 em Ann ée 1872/07/20. P.45

⁴ كل المقاييس الواردة في الوصف مأخوذة عن : رشيد سالم، منارة سيدي سالم بوادي سوف، مطبعة مزوار، الوادي، ط.1 2009، ص.14-16.

أسند بناء مئذنة زاوية سيدي سالم الحالية لسيد البنائين في عصره في عموم المنطقة وكل الجنوب الجزائري لَمَعْلَم¹ "عُمر قَاقَه لَقَماري"² واستغرق في بنائها سنتين (1312-1314هـ / 1894-1896م).

يبلغ ارتفاع المئذنة عن سطح الأرض 18.70م يُصعد إليها بدرج يدور حول نواة مركزية يتكون من 66 درجة، يمكن أن نلاحظ من خلال شكل المئذنة أنها جاءت على نمط المآذن المغربية مربعة الشكل والتي اتخذت من مئذنة جامع عقبة بالقيروان نموذجا فهي تتركب من ثلاثة أجزاء وهي: (الصورة 29)

- القاعدة : مربعة الشكل، ارتفاعها نحو 7.90 م، طول كل ضلع منها 4.90 م، تنتهي عند شرفة في منتصف المئذنة تقريبا مُشكلة من درابزين من الجبس بعرض 1.15م وطول كل ضلع فيه 5.60م.

- البدن: مربع الشكل طول كل ضلع فيه 4.00 م، يبلغ ارتفاعه نحو 7.30 م، ينتهي في أعلاه بزخرفة من ثلاثة أقواس صماء على كل واجهة منه ، جُعل في كل ركن من الأركان الأربعة شُرافات ركنية .

- الجوسق³: وهو تاج المئذنة وأعلاها يبلغ ارتفاعه 3.60 م، طول كل ضلع فيه 1.50 م تفتح فيها قوسان عرضا الواحدة منها 0.50 م . تعلو مربع الجوسق قُبَيْبَة صغيرة نصف كروية الشكل.

¹ لَمَعْلَم بسكون الميم وفتح وتشديد اللام هو مصطلح يطلق على العامل الفنان في البناء بمعنى (Ma çon) بالأجنبية.

² عمر (قاقَة) بن محمد بن إبراهيم، برع في فن النقش على الجبس و صار مع مطلع القرن الـ 20م نقاش الزاوية التجانية الأول ، أبهر الفرنسيين آنذاك بعبقريته، وبساطة الوسائل التي كان يستعملها، والتي لا تزيد عن توظيف أجزاء من برونسه الذي يلبسه ليحدّد مقاسات الأقواس، وأجزاء القَبَّة، وتشكيلات النقش الهندسية ، ساهم في بناء ونقش قصر البريد المركزي بالجزائر العاصمة 1910-1913م كما شارك في أعمال ترميم ونقش قصر الشعب سنة 1916م وتكريما له عُيِّن سنة 1920/02/12 عضوا في أكاديمية البناء والفنون الجميلة بباريس. توفي سنة 1944م بعد أن ورث فن النقش لأبنه التجاني وأحفاده من بعده.

³ الجوسق (ج.جواسق) لغة هي كلمة فارسية معربة معناها القصر الصغير أو الحصن أو البرج، اصطلاحا هو الدورة الأخيرة من المئذنة والتي تحمل عادة على أعمدة، واستعملت التسمية من العهد المملوكي بمصر.

الفصل الخامس: العمارة المدنية والدفاعية

في منطقة سوف

أولاً: العمارة المدنية.

1. عمارة المساكن
2. عمارة الغوط في سوف
3. عمارة الأسواق

ثانياً: العمارة الدفاعية:

1. سور مدينة الوادي

أولاً: العمارة المدنية:

1. عمارة المساكن :

يُعتبر المسكن أحد الضروريات الأساسية للفرد المسلم، والمسكن من نعم الله العظيمة على عباده حيث يقول الحق سبحانه:

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ، وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَائِلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾¹.

فالله تعالى قد أتم نعمته على عباده وجعل لهم من البيوت سكناً لهم يأوون إليها ويستترون بها. والسكن في اللغة من السكون أي الثبوت والهدوء ويقال سكن فلان كذا أي أستوطنه وأتخذ مأوى ومسكناً والجمع مساكن²، والمسكن هو البيت، الدار، المنزل و الحوش على حسب الاختلاف الاصطلاحي بين المناطق ، كما اتخذت البيوت العربية عدة مسميات باختلاف مادتها فمنها الخباء الذي يصنع من الصوف، النجاد من الوبر، الفسطاط من الشعر،... و الأفنة من الحجر والشدة من الطين³.

هذا بالنسبة للمشرق الإسلامي أما بالنسبة للمغرب الإسلامي فقد لا تختلف مادة الإنجاز ولكن اختلفت المسميات تبعاً لاختلاف اللغة واللهجات المحلية.

¹ النحل الآيات 81، 80

² ابن منظور، لسان العرب، مج.3، ص2052

³ عاصم محمد رزق، نفس المرجع، ص.38

بدأت ملامح العمارة المدنية تتضح في بلاد سوف حين لجأ مستوطنوها الأوائل إلى إنجاز مساكن تقيهم أشعة الشمس الحارقة وقر الشتاء وقسوة المناخ والطبيعة الصحراوية مما توافر لديهم من مواد أولية، والتي ظهرت على مراحل في أربعة أشكال رئيسية :

1.1- العريش¹:

العريش نوع من الأكواخ المنقولة كان يتخذها بربر زناته في حلهم و ترحالهم تعرف بالأمازيغية (ماباليا Mapalia)² وأكثر ما تكون من القصب والخشب³ وأغصان الأشجار والقش، وقد ذكر العدوانى أن سيدي المسعود الشّابي استضافه محبوب وعمران من سكان جلهمة في عريش لهما يسكنان فيه⁴، ومع انتشار غراسة النخيل صارت الأكواخ تتجز من جذوع النخل و الجريد وصار اسمها زريبة أو سقيفة حيث وصف العياشي في رحلته خلال القرن 11هـ / 17م بلاد سوف بقوله: "وسكنى أهل هذه البلاد في زرايب من جريد النخل فإليها يأوون وبها يخزنون".⁵ (الصورة 30)

2.1- دار الكاف أو الكهف :

الكهف أو الكاف "بإسقاط الهاء " ظهرت عمارة الكهوف مبكرا في بلاد المغرب خاصة لدى للقبائل التي تعيش في الجبال وتتخذ منها مأوى الكهف يكون على شكل كوة أو غار يحفر عند منحدر الجبل بعمق يصل من أربعة إلى خمسة أمتار وارتفاع مترين تقريبا أو على وجه الأرض في شكل غيران بعمق حوالي ثمانية أمتار، ينزل إليه بأدراج وقد يشتمل الغار على غرف يتوقف عددها ومساحتها على طبيعة الحجر ومدى صلابته.

¹ العريش: (ج.عُرُش) من العَرُش أي البيت أو السقف الذي يُسْتَقَل به ،

² عبد العزيز غوردو ، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب،،الكويت ، ط.2، 2011، ص. 17.

³ الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص.597.

⁴ محمد العدوانى، المصدر السابق، ص.125.

⁵ بلحميسي مولاي، المرجع السابق ، ص 93.

يمكن أن تكون فكرة حفر الغيران في منطقة سوف موروثاً عن بربر زناته الذين جلبوها من الجنوب التونسي أو من منطقة الجبل الغربي في ليبيا. حيث يذكر البعض أنه في الفولية الجهة الشمالية من سوف كانوا يعيشون في كهوف تحت الأرض، وظل بعضها مستعملاً حتى السبعينات من القرن الماضي¹.

وقد عرفت دار الكاف انتشاراً في غيطان النخيل، فكانت تحفر على مستوى متوسط من عمق الغوط أسفل الحزام الصخري الأول (طبقة اللوس) بحيث تشكل الحجارة سقفاً طبيعياً، وقد يُسيج مدخلها بحاجز من جريد النخل .

كانت دار الكاف تستخدم غالباً لتخزين المحاصيل الفلاحية أو لوضع أدوات العمل (الصورة 31)

3.1. الخيمة :

تسمى الخيمة في بعض المناطق الجزائرية بـ (بيت الشَّعْر) لأنها عادة ما تصنع من وبر الإبل أو أصواف الأغنام . كانت الخيام شائعة الاستعمال لدى ساكنة سوف من العرب الأوائل حيث يذكر العدوانى أن عدوان وطرود أثناء تقاتلها على عيون النازية كانوا يقيمون في خيام، وإلى وقت قريب ظلت بعض الأعراس كالربيع والشعانبة تحافظ على استعمال بيت الشعر وتركيبها خاصة في الأفراح والمناسبات.²

4.1. الحوش :

يُعرف المسكن العائلي التقليدي في عموم منطقة سوف بالحُوش.

الحُوش في اللغة من حاش الشيء و ضمه أو جمعه أي جعله في الوسط ، ومن هنا فكل منزل له فراغ في الوسط يسمى حوش ويقال المَحَاشَة أي أثاث البيت³ .

¹ تنتشر سكنى الكهوف على مرتفعات مطماطة التونسية وكذلك بمنطقة جبل نفوسة بليبيا .

² Ahmed Najah, Le Souf des Oasis, p.92.

³ ابن منظور ، المصدر السابق ، المجلد 2 ، ص 1050 .

شاع استعمال مصطلح الحوش في الجنوب الجزائري، مع اختلاف في المعنى، ففي مناطق كثيرة خاصة في الزيبان ببسكرة أو بإقليم توات بالجنوب الغربي نجد المقصود من تسمية الحوش هو الفناء أو صحن المنزل أو الدار¹ بينما في منطقة سوف تطلق التسمية على كل المسكن وعوض أن نقول "منزل فلان" نقول "حوش فلان" في حين تسمى الغرف المحيطة بالفناء "الدار" فنقول دار النوم، دار السقيفة، دار الخزين، وهكذا.. (الصورة 32)

تحولت منطقة سوف منذ القرن 4/11م إلى مركز لتوافد قبائل شتى من مختلف المناطق خاصة من إقليم طرابلس وبلاد الجريد في الجنوب التونسي وحتى من إقليمي الزيبان و النمامشة ، وكانت أكثرها من قبائل عدوان و طرود العربيتين ونزلوا بجوار سكانها الأوائل من بربر زناته ليشكلوا معهم تجمعات سكنية عديدة ومتفرقة حتى عُرفت منطقة وادي سوف بـ" بلاد الألف قرية"²

وتذكر المصادر أن تأسيس الحواضر الحالية في منطقة سوف بدأ بحلول القرن الـ16م و ظهرت في شكل تجمعات سكنية أقيمت حول مسجد جامع ، بفضل مجهودات الطريقة الشاذلية التي عملت على دعوة السكان الأوائل للعودة إلى تعاليم الدين الصحيحة و أسهمت في تأسيس المساجد الجامعة الأولى التي استقر حولها الوافدون الجدد على بلاد سوف ثم عرف سكان المنطقة غراسة النخيل و حفر الغيطان واستخراج الحجارة ، وظهرت عمارة المساكن المبنية بالحجر والجبس و التي تعرف محليا بالحُوش.

لقد رُوِيَ في إقامة المنزل السوفي التقليدي عدة جوانب منها الطابع المناخي السائد، وعوامل الدين والعادات والأعراف والحشمة خاصة لصيانة حرمة المرأة ، بالإضافة إلى الجوانب الصحية المناسبة ، لذلك لانكاد نجد اختلاف كبير في نمط وتخطيط الحوش بين

¹ أحمد جعفري ، العمارة الإسلامية في أقاليم توات، مجلة" ترات " هيئة أبو ظبي للثقافة والإعلام، العدد 115 مارس 2009 ، ص. 122

² إبراهيم العوامر ، نفس المرجع، ص 28.

مختلف مناطق سوف إلا من حيث المساحة المستغلة أو بعض المرافق غير الرئيسية ، فقد عُرف بالبساطة في شكله وعمارته ، تكاد تتعدم فيه مظاهر الترف والزينة نظرا للظروف المعيشية الصعبة، و عندما يريد السوفي بناء منزل فإنه يستدعي بعض أهله أو جيرانه في شكل نظام التوزيع (العَوانة)، ويبدأ العمل فجرا وينتهي مساءً باكتمال البناء وأول ما ينجز الساباط و دار النوم أما السور الخارجي فقد ينجز بارتفاع لا يستر ما بداخله، وقد يستعيض السوفي بقلة الارتفاع بالحفر داخل صحن الحوش¹، وسيعرف الحوش لاحقا مع مرور الوقت تعديلات و إضافات في تخطيطه وهياكله تبعا لتطور وتغير نمط الحياة الاجتماعية للسكان .

- تخطيط وأقسام المنزل في منطقة سوف :

غالبا ما يتخذ الحوش شكلا مستطيلا أو مربعا تتراوح سعة صحنه ما بين 75 إلى 100م مربعة تحيط به غرف ضيقة، لأن سكان المنطقة عندما يريدون بناء الغرفة يتمدد أحدهم أرضا ليكون ذلك هو مقياسها عرضا أما أطوالها فتختلف، تقدر بحوالي 2 × 4 متر، أما ارتفاعها فيكون على قدر طول قامة الشخص الواقف حيث لا يتجاوز أربعة أذرع² في أغلب الأحوال أما الباب فارتحاله اقل من مترين ما يحتم على الداخل للغرفة الانحناء، ويلاحظ أن مساحة الغرف يتحكم فيها إلى حد ما تقنية التسقيف المتمثلة في القبة السوفية ذات الشكل المتواضع والبسيط والتي تُرفع مباشرة فوق الجدران.

¹ Laegeau Victor, Le Sahara Algérien les déserts de l'erg, librairie de Hachette Paris, 2 édition 1881 ;p.334

² الذراع : هو وحدة قياس جمعها أذرع ، وهو ما بين طرف المرفق إلى طرف الأصبع الأوسط ، ويختلف طول الذراع الشرعي حسب المذاهب الفقهية وقدره عند المالكية 53سم، انظر ابن منظور، المصدر السابق، المجلد 3، ص 1495، أنظر كذلك ،علي جمعه محمد، المكاييل والموازين الشرعية ،القدس للإعلان والنشر والتسويق ،ط2 القاهرة 2001،ص97

ولم يكن معروفا في منطقة سوف الدور ذات الأسطح أو المشكلة بالطوابق بخلاف القصور الصحراوية الأخرى التي يغلب عليها البناء من طابقين¹ إلا في فترات متأخرة مع نهاية القرن 13هـ/19م عندما شاع نمط التسقيف بالسدة المصنوعة من جريد النخل².

يتشكل التخطيط العام للحوش في سَوف من مرافق أساسية، على أن يُختار لكل منها موضعه بدقة في هندسة الحوش تبعا للعامل المناخي والضرورة الاجتماعية على النحو التالي:

1.4.1. السقيفة : تعرف السقيفة لغة على أنها " الصُفّة أو كل بناء سُفقت به صُفّة أو شبهها مما يكون بارزا"³.

إصطلاحا هي الممر الذي يصل بين المدخل من الشارع و وسط الحوش وتكون بشكل منكسر حتى يحجب الرؤية عما بداخل المنزل تماشيا مع قيم المجتمع المسلم و تعاليم الدين التي تحث على الستر والحشمة وعدم كشف حرّات المنازل .

عادة ماتكون السقيفة غير مسطحة مغطاة بالرمل و كثيرا ما تستغلها النسوة كمكان للجلوس لفترات قصيرة تتبادلن فيها الزيارات، يتناقلن آخر الأخبار أو يتعاونن على أداء بعض الأعمال المنزلية كطحن الحبوب الجافة من قمح أو شعير. وتقاديا للحرص بالنسبة للذكور من العائلة لجأت بعض العائلات إلى إضافة غرفة صغيرة جانبية عُرفت بدار السقيفة والتي تحولت بمرور الوقت إلى دار للضيافة للأجنبي عن العائلة⁴، وهذا يعود بالأساس إلى طبيعة العائلات السوفية المحافظة والتي ترفض الاختلاط .

¹ حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية وأثرية، موفم، الجزائر 2006، ص 241.

² السدة ، هي جريد النخل الذي يجمع إلى بعضه بشكل أفقي بواسطة خيط منين أو حبل تعددت استعمالاتها بين التسقيف أو للنوم في وسط الحوش أو داخل الحجرة كما تستعمل أحيانا كحاجز أو ساتر خارجي للحوش، انظر بن منظور، المصدر السابق، المجلد 3 ، ص 1970.

³ ابن منظور، المصدر السابق، المجلد الثالث، ص 2041

⁴ Ahmed Najah, op.cit.p92.

2.4.1. الساباط : هي كلمة عربية مشتقة عن الفارسية وردت في لسان العرب بمعنى "سقيفة بين حائطين أو بين دارين، جمعها سوابيط أو ساباطات"¹.

والساباط بالمفهوم المعماري المحلي عبارة عن رواق مغلق يفتح دائما على الشمال بقوسين حتى يكون مفتوحا على الهواء المعتدل صيفا²، كما يسقف بالقباب، وقد نجد في إحدى زواياه الكانون أو موقد الحطب ذو الشكل نصف الدائري والذي تعلوه مدخنة، كثيرا ما تلازم الساباط غرفه أو أكثر، تفتح عليه في مجنبتيه أو خلفه.

يمثل الساباط في المنزل السوفي مرفقا أساسيا لا يمكن الاستغناء عنه، وزادت أهميته بترسخ نمط الحياة الحضرية لدى السكان ، حيث لم يعودوا يقضون أغلب أوقات فصل الصيف في ضواحي البلدة كما اعتادوا في السابق³، كما لم تعد الكثير من النساء خاصة الكبيرات في السن يشاركن الرجل في استغلال الأرض وصرن يشغلن أنفسهن بأعمال منزلية مختلفة كحياكة الصوف والنسيج أو طحن الحبوب وغيرها، فكل الأشغال المنزلية تمارس بالساباط. (الصورة 33)

كان الساباط يمثل إجتماع العائلة ومكان القيلولة، فهو الأكثر برودة صيفا، وفيه تنصب الحَمارة⁴ التي تعلق عليها قربة الماء للشرب* (الصورة 34)

¹ ابن منظور، نفسه، المجلد الثالث، ص 1923

² تعرف التيارات الهوائية القادمة من الشمال محليا بالظهاوي وتتميز ببرودتها صيفا وشتاء لذلك تقوم بدور معاكس للريح القبلي أو الشهيلي .

³ André Voisin, op.cit.p.109.

⁴Eberhardt I., Victor Barrucand ,Dans l'ombre chaude de l'Islam ,Imprimerie A .Diary, Paris 1926 , p251.

* الحَمارة هي ثلاثة أعواد من جريد أو خشب يُشدُّ بعض أطرافها إلى بعض ويخالف بين أرجلها تعلق عليها القربة لِتُرَدَّ الماء ،أنظر : ابن منظور، المصدر السابق،المجلد 2، ص992.

يلاحظ أن الساباط في سوف لا يختلف في سبب ظهوره عن الأروقة التي تنتشأ حول فناء البيت في القصور الصحراوية الأخرى كمنطقة الأغواط أي للتظليل ولكن يختلف عنها أنه لا يشمل إلا واجهة واحد من وسط الحوش¹.

3.4.1. دار الخزين: تعتبر العنصر الأبرز في عمارة الحوش السوفي، فهي مرفق ضروري يُدخَر فيها التمر والحبوب خاصة وكل مؤونة العام من شحوم ودهون وحتى أنواع من الخضر المجففة. عادة ما تتجز دار الخزين في الركن الجنوبي الغربي من الحوش بحيث يفتح بابها على الشمال أو تكون ملاصقة للساباط و تفتح عليه ما يجعلها أقل تأثراً بحرارة الصيف. (الصورة 35)

تتكون دار الخزين من عنصرين أساسيين هما :

☒ **الخابية :** الخابية أو الخابئة من خبأ الشيء أي ستره، وهي المكان الذي تخزن فيه مزروعات الأرض والغلل². لذلك تُرود دار الخزين عادة ببناء خابية أو إثنان داخلها. والخابية عبارة عن جسم اسطواني في شكل جرة ضخمة مصنوعة من الجبس مثبتة بالأرض ذات قاعدة عريضة ومسطحة، تجعل لها في الأعلى فتحة ضيقة نسبياً وتسد بغطاء من ليف النخيل لمنع دخول الحشرات أو الجرذان وتكون مرتفعة عن مستوى أرضية الغرفة يصعد إليها بدرجات، و يوضع بداخل الخابية قوت السنة من التمر فيبقى على حالته من الطراوة والنقاء دون أن يصيبه التلف، كما يجعل في أسفلها قصبية يخرج منها عسل التمر المضغوط الذي يُجمع في قُلة أو جرة صغيرة ثم يجمع في زير ليخزن بدوره³.

¹ حملاوي علي، المرجع لسابق، ص 247.

² ابن منظور ، نفس المصدر ،المجلد الثاني، ص 1085.

³ Cauvet C., Notes sur le Souf et les Souafa , B. S. G. Alger, 1934, p.66.

✕ **المخزن أو الحد :** يُجعل في رُكني الغرفة على طرف الخابية مخزن مربع تقريبا بمقاس (1م×1م)، تدخر فيه الحبوب من شعير أو قمح أو تمر النُهوش¹ وحتى الصوف، كما يخزن الزيت والشحوم والدهون المستخرجة من لبن الماعز في جرار صغيرة مصنوعة من الطين أو الجبس .

4.4.1. **المطبخ :** الكانون بالمصطلح المحلي، يكون في شكل غرفة ضيقة وكثيرا ما تكون ملاصقة للساباط أو تفتح عليه وقد تكون منفصلة عنه وموضعها عادة في الجهة الجنوبية أو الشرقية من الحوش و يزود الكانون في إحدى زواياه بموقد للحطب متصل بمدخنة على غرار ما عرف بالبيوت الإسلامية².

إلى وقت قريب ظل الكانون هيكلا ثانويا في تخطيط الحوش نظرا لمحدودية دوره، فهو يستغل إلا في الشتاء أو في مواسم الرياح، ويمكن إرجاع سبب عدم اهتمام العائلات بهذا المرفق الحيوي إلى بساطة المعيشة حيث يقضون أغلب أوقاتهم في الغوط و كان الغذاء غالبا من التمر أو كسرة الشعير يضاف إليه بعض اللبن أو الحليب والماء.

5.4.1. **غرف النوم :** يشتمل الحوش في العادة على غرفة أوغرفتين تخصص للنوم ليلا أثناء الشتاء، و إذا كَبُرَت العائلة وتعددت الأسر، فإنه يجعل لكل منها غرفة خاصة بها. عادة ما يكون موضع غرف النوم في الجهة الشمالية أو الشرقية من الحوش حتى تكون واجهتها مقابلة لأشعة شمس الشتاء الدافئة، وغالبا ماتكون الغرفة الواحدة مركبة من قسمين الغرفة و المقصورة .و إذا تعددت العائلات في الحوش الواحد تلحق بدار النوم عادة لكل عائلة غرفة صغيرة تُستغل للاستحمام أو الوضوء.

¹ النُهوش هو كل تمر غير أصيل أي ليس من الأنواع الأساسية فهو هجين والتي تعد نحو مائتي نوع أهمها دقلة نور، والغرس ،أنظر إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص 64.

² شافعي فريد، العمارة العربية في مصر، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970 ، ص433.

المقصورة : في اللغة من قَصَرَ الشيء أي عزله أو ستره ومنعه عن الأنظار¹، وهي غرفة تُلحق بدار النوم وتصلها بمدخل ضيق، كما تجعل فيها دُكَّانة من الجبس أو سدّة من الجريد محمولة على جذوع النخل، وتكون لها نافذة صغيرة لذلك فهي قليلة الإضاءة. تكون المقصورة خاصة بالزوجين دون الأولاد ، وتضع فيها الزوجة صندوق ملابسها وأدوات الزينة.

6.4.1. السويبيط : عرفت بعض المنازل السوفية في فترات متأخرة إنجاز غرفة في الجهة المقابلة للساباط عرفت بالسويبيط لأنها تقوم مقامه في الشتاء، يفتح السويبيط على الجهة الجنوبية ويكون في شكل غرفة صغيرة ذات مدخل معقود أحيانا تدخل منه أشعة شمس الشتاء الدافئة، يستغل لقضاء الأشغال المنزلية في الفصل البارد.

7.4.1. المرحاض: يعرف محليا باسم الخِرْبَة لأنها مكان مُوسخ للقذورات². يكون موضع المرحاض غالبا في الجهة الشرقية من الحوش وعادة ما يعزل عن بقية المرافق الأخرى، و يتشكل من غرفة ضيقة مربعة تقريبا تكون مفتوحة على الهواء غير مسقوفة حتى تصلها أشعة الشمس للضرورات الصحية³، ولا تتوفر على أدنى شروط المرحاض الحديث خاصة الماء الذي يجلب في وعاء عند الاستعمال⁴. وقد يلحق بالخربة أحيانا غرفة صغيرة بمساحة 1م/ 1.50م تستغل للوضوء أو الاستحمام.

8.4.1. صحن الحوش : هو الباحة التي تتوسط الحوش الذي تحيط بها كل العناصر الأخرى وتفتح عليها، عادة ما يكون الصحن غير مسقوف حتى يوفر النور والهواء، وقد قيل

¹ ابن منظور ، المصدر السابق، المجلد الخامس، ص 3647،

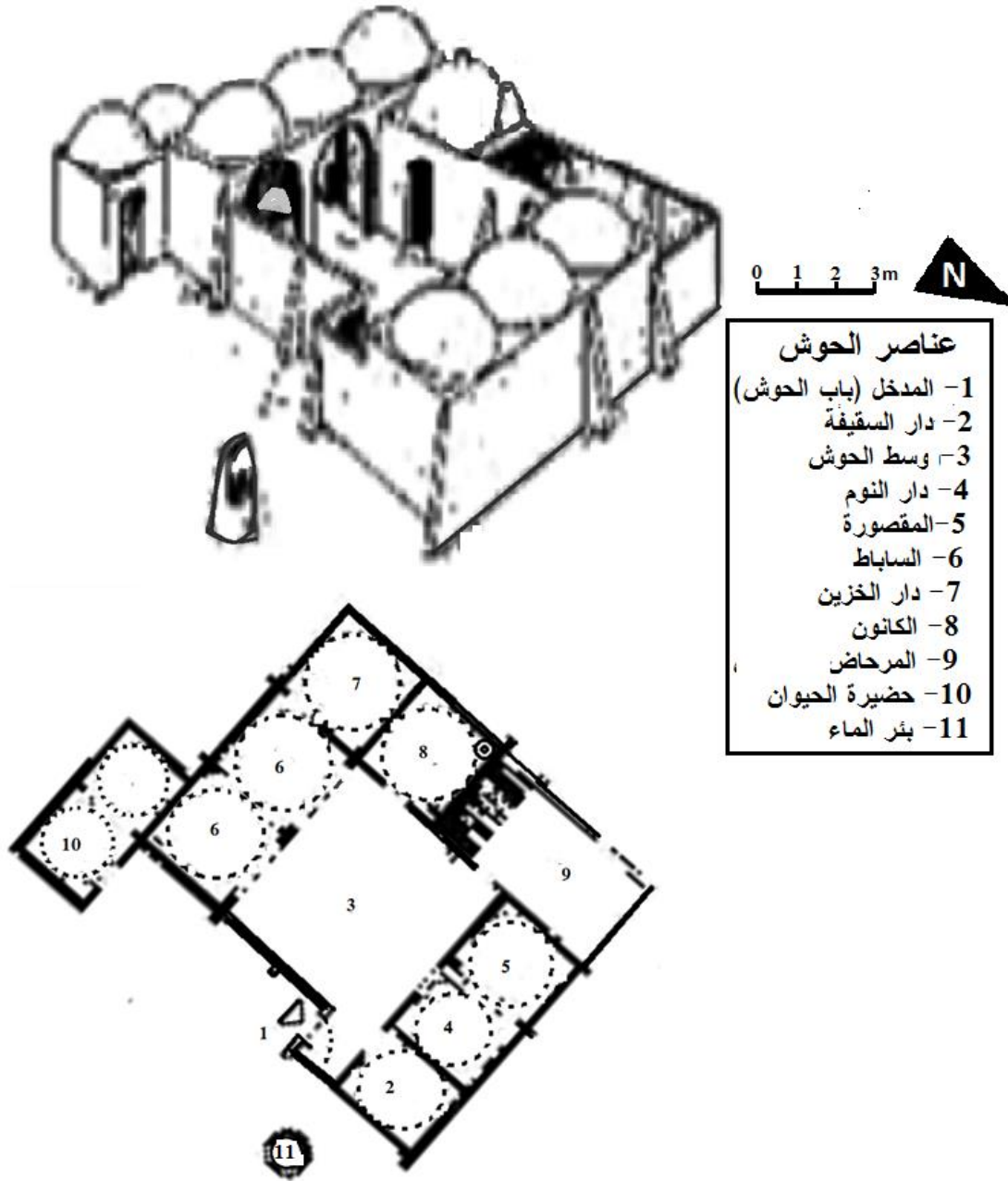
² الخربة جمعها خربات وهي موضع الخراب تطلق على المبنى المهجور، أو الذي على وشك السقوط، أنظر بن منظور، المصدر السابق، المجلد الثاني، ص 1121.

³ عادة ما يجعل المرحاض والإسطبل مكشوفين حتى تساعد الشمس على تجفيف الفضلات لتجمع وتنقل إلى المزارع لتستغل كسماد طبيعي للنبات .

⁴ لا يصح أن نسمي المرحاض التقليدي بدورة المياه لعدم وجود حنفيات في ذلك العهد.

قديمًا "البيت الذي تدخله الشمس لا يزوره الطبيب"¹ وتختلف مساحته تبعًا لمساحة الحوش ككل ولعدد الهياكل التي يتكون منها. (الشكل 34)

¹ بن عبد الله نور الدين، العمارة التقليدية بإقليم توات "القصر نموذجًا" دورية كان الإلكترونية، العدد 15، مارس 2012، ص. 122/128



(الشكل رقم 34) مخطط نموذجي للحوش في منطقة سوف

عن La Micro-urbanisation et la ville-oasis بتصريف

يعتبر وسط الحوش بمثابة الرحبة المصغرة للعائلة ففيه تجتمع الأسرة للتسامر والمبيت ليلاً في فصل الصيف، فبسبب ارتفاع درجات الحرارة في هذا الموسم تضطر العائلات السُوفية في وسط الحوش و لتفادي الحرارة المنبعثة من التربة وتجنباً لخطر الحشرات الضارة خاصة العقارب كثيراً ما ينصب سرير تقليدي يعرف بالسدة .

تصنع السدة من جريد النخل المنزوع السعف والمشدودة إلى بعضها أفقياً بشكل مستوي يرفع عن سطح الأرض لنحو 70 سم بواسطة حوامل من جذوع النخل أو الأخشاب أو حوامل حديدية تعرف بالدواب*.. (الصورة 36) .

✓ **الحوش الريفي:** يعتبر الحوش الريفي أسبق في الظهور من الحضري لأن السكان الأوائل شكلوا تجمعات محدودة العدد على أطراف الحواضر بالقرب من غيطانهم وكثيراً ما يُنشأ الحوش على طرف الغوط . فقد عرف الحوش الريفي كبديل عن دار الكاف أو السقيفة ويكون عادة على حواف الغوط أو خارجه. (الصورة 37)

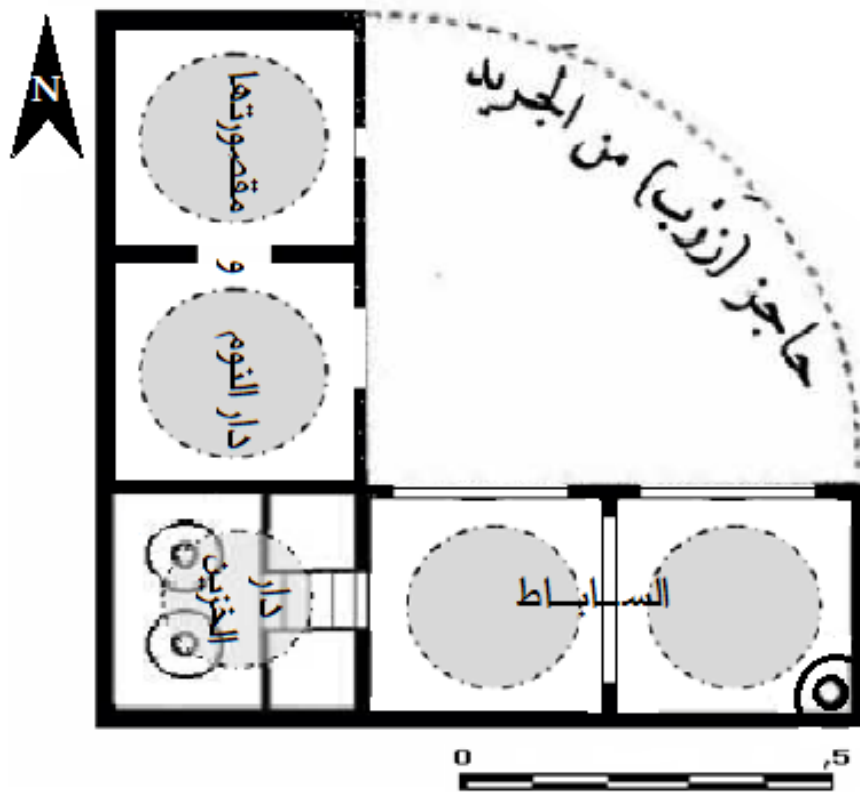
يقتصر الحوش الريفي عادة على ثلاثة مرافق أساسية، الساباط، دار الخزين، ودار النوم شتاءً و قد لا يكون مُسَوَّراً أو يحاط بحاجز من الجريد يستر ما بداخله لكنه لا يعتبر آمناً بحيث لا يمنع دخول الأجانب أو الحيوانات الضالة.*

كثيراً ما يضاف للحوش في الريف إسطبل أو مربط للحيوان يكون ملاصقاً للمرحاض و غير متصل بالمرافق الأخرى، فكثيراً ما تربي العائلات السوفية قرب حقولها بعض الماعز وحتى الدواب كالحمير والبغال لاستغلالها في أعمال الجر و السقي بالدلو*. (الشكل 35)

* تشبه الحملات التي توضع عليها السدة بالدواب م. دابة وهي الحيوانات المخصصة لرفع الأحمال .

* في فترات ليست بالبعيدة وقبيل العهد الاستعماري كانت نادراً ما تحدث عمليات السرقة أو السطو ، لأن سكان المنطقة كانوا مسالمين منكفئين على ذواتهم منشغلين بأعمالهم اليومية ، كما كانوا يتمتعون بالفراشة وتتبع الأثر ، و يستطيعون من خلال آثار الأقدام أن يحددوا كل المعطيات عن الشخص الدخيل (نسبه ،جنسه ، عمره إلخ...)

* خلال القرن العشرين كثر استعمال الدواب وعربات الجر في سوف كما شاعت عملية اقتناء وتربية الماعز في الحواضر وصار أسطبل الحيوانات مرفقاً أساسياً في تخطيط الحوش السوفي.



(الشكل رقم 35) مخطط نموذجي للحوش الريفي

عن الطالب

2. عمارة الغوط :

يقصد بمصطلح بلاد الجريد كل البلاد التي تسود بها غراسة النخيل والمنتجة للتمر، وتاريخيا كل المنطقة الممتدة من نفزاوة وجنوب تونس وبلاد الزاب وصولا إلى إقليم السوس بالجنوب المغربي بلاد تمتاز بتربتها الطينية ومناخها شبه الصحراوي الذي يلاءم على زراعة النخيل، إلا أن التسمية اليوم ظلت مقتصرة على الجنوب التونسي دون سواء نسبة إلى شط الجريد الذي يتوسطها. و بلاد سوف شكلت منذ القديم ملاذا وامتدادا جغرافيا واجتماعيا للجنوب التونسي ومنها استقبلت أولى الهجرات البشرية لتشكل لهؤلاء ملجأ وموطنا للاستقرار ويمكن أنهم استقدموا معهم الكثير من عاداتهم وحرفهم ومنها غراسة النخيل حتى صارت سوف تتسب لبلاد الجريد وهذا ليس من باب المبالغة إذا علمنا أن سوف تفوقت على الجنوب التونسي في أعداد النخيل المنتج التي قدرت بـ 450 ألف نخلة سنة 1960¹.

دخلت الغيطان (م.غوط) في عمارة بلاد سوف بل هي أساس عمارتها إذ كانت سبب استقرار سكانها بعد حياة الرعي و الترحال التي ألفوها ، حتى أنهم صاروا يقضون معظم أوقاتهم في غيطان النخيل خارج الحواضر الرئيسية يقومون على العناية بنخيلهم ويكافحون الرمال في عمل مستمر وشاق .

1.2- كيفية إنجاز الغوط:

الغوط هو واحة النخيل المنشأة في منخفض عميق شبه دائري قد يبلغ مئات من الأمتار طولا وعرضا، ويكون خصيصا لزراعة النخيل لتكون قريبة من مستوى سطح الماء قد تصل لعمق (10-20م) ثم يجعل للنخلة حوض عميق يخترق الحزام (طبقة اللوس) فوق الماء بحوالي نصف متر يعرف بالبحيرة ، وتتم عملية إنجاز الغوط عن طريق رفع

¹ المصدر : مديرية المصالح الفلاحية لولاية الوادي.

الرمال على الظهر بواسطة الزنبيل¹ أو الشارية² ، أما الحجارة التي تنتزع من الحزام فترفع بواسطة الشكمبو³ على ظهور البغال أو الحمير (الصورة 38).

يتم إخراج الرمال ووضعها على حواف المنخفض لتكون بمثابة الساتر لكسر حدة الرياح وتضاف لها أحيانا زرب أو حاجز قصير من جريد النخل، وعادة ما يُبتدأ العمل قبل الفجر حتى طلوع الشمس، وقد تستغرق عملية الحفر أشهرا أو سنوات على حسب المساحة المراد استغلالها وقد يستوعب الغوط الواحد أحيانا ما يناهز 100 نخلة، وتقتصر عملية رفع الرمل على البالغين الرجال ويطلق عليهم الرمالّة أو رافع الرمل والذين قد يصل عددهم إلى نحو 15 عاملا.

تكون عملية حفر الغيطان على حسب جودة المياه وقربها من السطح، ورغم أن عملية الحفر متعبة ومضنية جدا، لكن الآباء والأجداد مع قلة الوسائل وبساطتها وبعزيمتهم وتعلقهم بغرسة النخيل وإصرارهم على تعمير المنطقة أبدعوا الغيطان.⁴

إن عملية انجاز الغيطان للنخيل تحقق عدة أهداف منها :

- تقريب النخلة من مصادر المياه الجوفية .
- حماية المحصول من الرياح والأتربة .
- توفير نسبة من الرطوبة داخل الغوط تساعد على زراعة محاصيل موسمية.

¹ الزنبيل هو القفة كبيرة أو الجراب وقيل الوعاء الذي يُحمل فيه . أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، المجلد الثالث، ص. 1808 أو هو شريط من الليف والحلفاء بطول 1.10 إلى 1.50 م يوضع على ظهر الدابة ليشكل كل جانب منه وعاء أو جيب كبير، أنظر: ج.كوفي، غرسة النخيل في سوف، ترجمة عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار الوادي، ط. 2013، ص. 27.

² الشارية هي القفة المصنوعة من سعف الجريد والحلفاء تخصص لحمل الرمل.

³ الشكمبو مصطلح لم نجد له أثر في معاجم اللغة العربية وقد يكون مصدره لاتيني أو إيطالي. وهو عبارة شبك مصنوع من جريد النخل في شكل وعاء ذو وحدتين يوضع على ظهور الدواب ويحمل بواسطته الحجارة.

⁴ وتشبه هذه العملية بأشغال رفع الحجارة الضخمة لإنجاز أهرامات مصر الفرعونية حتى جاز تسمية غيطان سوف بالأهرامات المقلوقة ولكن الفرق أن الأولى للأحياء والثانية للأموات.

صار الغوط أو الهود يمثل أساس الحياة للإنسان السوفي فمن أجله يعيش ومنه مصدر رزقه وقُوت عياله

2.2. أقسام الغوط ومكوناته:

- النخيل : تختلف أعدادها وأنواعها حسب مساحة الغوط و طاقة الأسرة لأن العمل عادة يكون عائليا، وتتنوع النخيل حسب نوعية التمر¹ المنتجة وحسب عمر النخلة فمنها البالغة في طور الإنتاج ومنها الحشّان² الغير منتجة.

تزرع إضافة للنخيل بعض الأشجار المثمرة، كما تمارس أعمال البستنة اليومية للخضروات الموسمية التي عادة ما تكون لغرض الاستهلاك الذاتي .

- السّانية : وتتكون من البئر والحوض ولاستخراج الماء من البئر بكميات محدودة تستعمل الخُطّارة التي تحتاج إلى عامل لرفع دلو الماء، أما لكميات ماء اكبر فتستعمل البهائم (البغال والإبل) لسحب دلو أكبر. (الصور: 40/39)

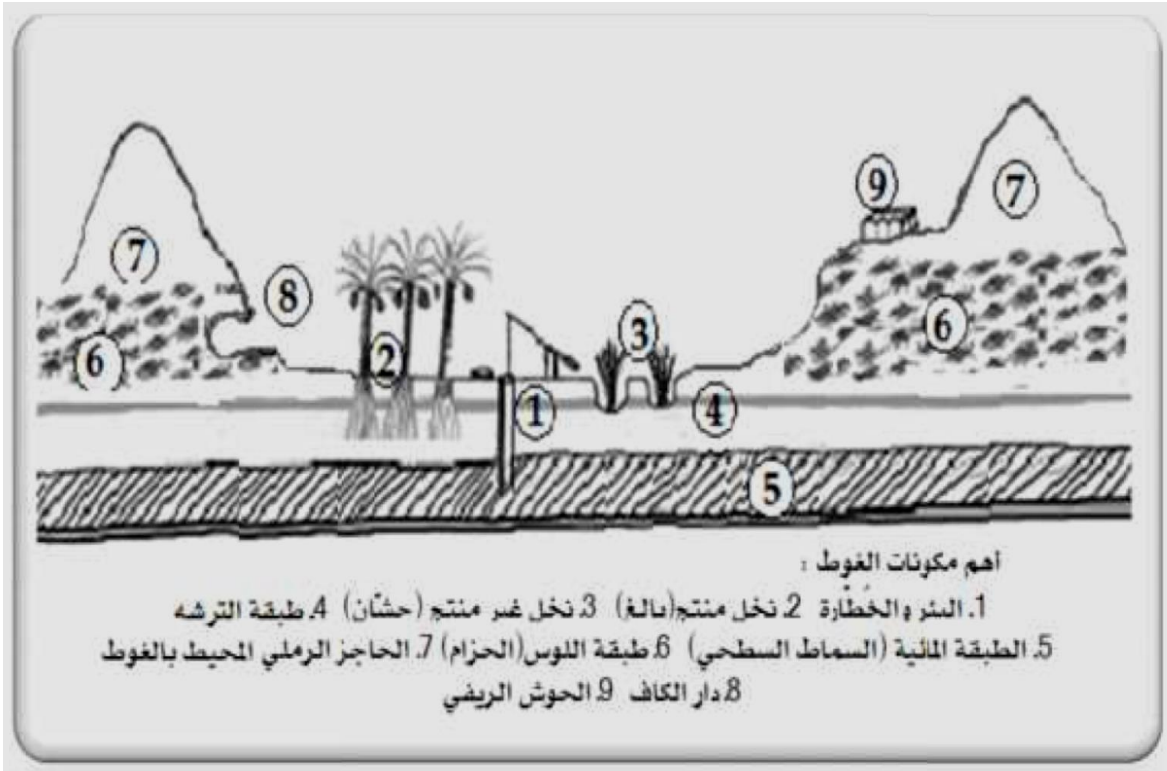
- دار الكاف تكون بمستوى الحزام الصخري والتي يلجأ إليها الفلاح للقلولة والراحة ثم أستعيض عنها بالحوش الريفي .

- يحاط الغوط بالطابية وهي الحاجز الرملي الذي يتشكل من عملية رفع الرمل أثناء حفر الغوط والتي تمثل حدود الغوط الخارجية، وقد تُدعم الطابية بحجارة الترسة لزيادة تماسك التربة ولمقاومة الرياح كما يضاف إليها زَرْب قصير³ يساعد في توجيه الرياح.(الشكل 36)

¹ تنتج منطقة سوف أكثر من خمسين نوع من التمر أشهرها وأكثرها دفلة نور والغرس والدفلة البيضاء.

² الحشّان هي الفسائل المغروسة حديثا في طور النمو وعادة تحفر لها حفر خاصة تسمى البحائر(م.بحيرة) لتقريبها من الطبقة المائية.

³ الزَرْب من الزريبة وهو السياج الذي يشكل من جريد النخل.



(الشكل رقم 36) مخطط لمقطع عرضي يبين أهم مكونات غوط النخيل

عن: الطالب

لقد صارت عملية حفر الغيطان سمة أهل سوف وحين دخول المستعمر قدرت أعداد النخيل المغروسة بـ 154 ألف نخلة موزعة على حوالي 10000 غوط حتى شبّهت بلاد سوف بجلد الفهد الأصفر المنقط. (الصورة 41)

لقد استطاع الإنسان السوفي أن يحقق إنجازا حضاريا ضاهى به أهرامات الفراعنة لذلك قامت المنظمة العالمية للأغذية "الفاو.F.A.O" باعتماد غيطان وادي سوف ضمن التراث الزراعي العالمي سنة 2009.

شكّل الغوط لعقود طويلة محور الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمنطقة، فصار لها علاقات خارجية خاصة مع بلاد النمامشة والأوراس وبلاد الجريد التونسية، وصارت محل الاهتمام السياسي للمالك المجاورة فحاولت السيطرة عليها وضمها لسيادتها ولكنها ظلت عصية نظرا لطبيعة الإنسان السوفي الذي لجأ إلى هذه المنطقة ليكون سيّدا في أرضه حتى دخول المحتل الفرنسي الذي عمد إلى السيطرة على البلاد و إخضاع أهلها لإرادته¹.

¹ لقد أهتم المستعمر بثروة النخيل في الجنوب الجزائري ومنها وادي سوف لم تدره عليه من ثروة طائفة فعمل على زيادة أعدادها حيث وجدها 154 ألف نخلة عام 1883م، فزيدت إلى 160 ألف نخلة عام 1887م، وبلغت آخر القرن التاسع عشر إلى أزيد من 202 ألف نخلة عام 1900م ثم وصل العدد سنة 1960م إلى حوالي 450 ألف نخلة. ولكن يلاحظ نقص في سنة 1982 حيث بلغ عدد النخيل إلى 151 ألف نخلة فقط بسبب مشكلة صعود المياه على سطح الأرض مما أدى إلى إتلاف النخيل شيء فشيء.

3. عمارة الأسواق في منطقة سوف:

يمثل السوق عنصراً أساسياً في عمارة المدن الإسلامية الأولى بل يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية فبالإضافة إلى دوره الاقتصادي القائم على تنشيط عملية تبادل السلع والمنافع المادية بين سكان المدن والقرى المتجاورة فهو يمثل الفضاء الاجتماعي و الإعلامي، حيث يلتقي فيه الناس يتناقلون الأخبار ويتبادلون الأفكار و المعلومات، وعادة ما يكون في الأسواق ما يعرف بالمدايح الذي يلقي أشعاراً تراثية أو يروي حكايات شعبية تؤرخ لأحداث مختلفة .

إن نشأة الأسواق في المدن الإسلامية يرجع إلى عهد الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- وكانت سوق المدينة المنورة عبارة عن ساحة خالية من البناء وكان نظام الأسواق على سُنّة المساجد فمن سبق إلى موضع فهو له¹ وبدأ البناء في الأسواق على عهد معاوية بن أبي سفيان (661-680هـ/1262-1281م) الذي أنشأ بنائين وسماهما "دار القطران ودار النقصان"².

يختلف موضع السوق من مدينة لأخرى حسب أهميته ونوعية المعروض من السلع و حسب سعة المكان بحيث يمكن أن يستوعب كل الباعة والمتسوقين لذلك قد يكون موضعه داخل المدينة بجوار المسجد الجامع أو خارجها كما تحكمت في توزيع الأسواق قاعدة "لا ضرر ولا ضرار" فقد يمنع الجزارون من الذبح في حوانيتهم التي عادة ما تنشأ على أطراف السوق قريباً من المذبح، كذلك باعة الماشية أو جلابو الحطب كانوا يمنعون من دخول السوق وتخصص لهم ساحات خارجية³ بينما كانت سلع وحرف أخرى تتمتع داخل الأزقة والأحياء وعرفت بهم كالحساسين والعطّارين و الصّاعة وصانعو الجلود وغيرهم كما نسبت

¹ محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة الكويت، 1988، ص228

² نفسه، ص. 229

³ خالد مصطفى عزب، تخطيط وعمارة المدن الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة 1997، ص. 99

الأسواق إلى أسماء القبائل المشرفة عليها كسوق هواره أو كُتامة أو أسماء من أسسوها كسوق حمزة " البويرة حاليا" ¹.

و من حيث الإطار الزمني للسوق فهناك أسواق موسمية تُقام مرة خلال العام ترتبط بظاهرة دينية أو اجتماعية أو مع موسم الجَنِّي و الحصاد². وهناك الأسواق الأسبوعية التي يكون لها يوم محدد في الأسبوع وغالبا ما يكون الجمعة فقد اشتهرت في الجزائر بعض المدن بمسميات لأسواق أسبوعية كسوق الأحد و سوق الإثنين، وهناك الأسواق اليومية (الدائمة) التي تسمى في المشرق بالقيسارية وتكون غالبا مسقوفة وفي المغرب الإسلامي بالسويقة والتي عادة ما تكون مقسمة إلى حوانيت صغيرة.

لم تخرج قُرى وادي سوف عن طابع المدن الإسلامية فقد عُرِفَت منذ ظهورها على أنها مركز عبور و منطقة تبادل تجاري حر ومن عوامل ازدهارها وشهرتها:

- لم تمنع رغبة أهل سوف الأوائل في الابتعاد عن تسلط الحكام من إقامة علاقات مع البلاد المجاورة لتلبية إحتياجاتهم المعيشية فبلادهم رملية ولم يكونوا أهل زراعة وهذا ما يؤكد العدواني: " نحن نزلنا أرضا خالية بين ثلاثة أوطان: الزاب للطعام، والجريد للتمر، و وادي ريغ للصوف"³

- طبيعة الإنسان السوفي الذي جُبِلَ على حُبِّ الترحال وحيويته منذ القدم وشدة مراسه وصبره فالظروف التي دفعته للاستقرار في هذه المنطقة الصحراوية القاسية زادت من صلابته و فِراسته وذكائه ليعرف كيف يتعامل مع المخاطر المحدقة به.

- كان لمرور عدة عناصر بشرية بالمنطقة من روم و بربر (زناته و صنهاجه) وأخيرا العرب أثرها في شخصية الإنسان السُوفي فأكتسب مرونة في التعامل مع كل الأطراف وتحول

¹ بلهوارم فاطمة، التكامل الاقتصادي والمبادلات التجارية بين المدن المغاربية خلال العصر الوسيط، - منشورات الزمن، الرباط،

2010، ص.86

² خلال الخريف تُقام في كثير من بلاد الجريد والنخل أسواق يومية للتمر تنتهي بآنتهاء موسم الجَنِّي.

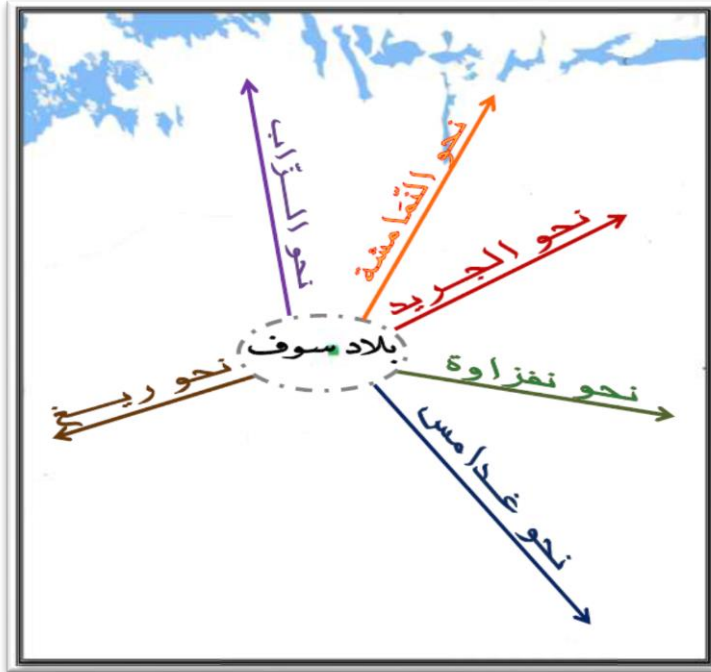
³ محمد العدواني، نفس المصدر، ص.147.

إلى وسيط التجاري بين مختلف الجهات ينقل السلع بين المناطق و يتعامل مع جميع الأعراق من توارق، شعانية، نامشة ، بنو ميزان والعرب.

- ازدهار الإنتاج المحلي من محاصيل فلاحية " كالتنمر بأنواعها والتبغ أو مصنوعات كالحلّي (الفضة) والمنسوجات الصوفية (الحايك السوفي، و البرنوس) بالإضافة إلى دخول العنصر اليهودي إلى منطقة سوف بما يمتلكه من مؤهلات حرفية و تجارية.

- موقع بلد سوف المتوسط عند تقاطع طرق عدة أقاليم و بعدها عن الاضطرابات في البلاد المجاورة لها و وكثرة تعرض طرق تجارة القوافل المعروفة لقطع الطرق أو خضوعها لمراقبة الحكام ما جعل تجار سوف يكتشفون طرقا أخرى خاصة طريق سوف غدامس وهو طريق آمن رغم صعوبته كونه يمر وسط كثبان الرمال العالية (الغُرد) للعرق الكبير ، وبذلك أصبحت سوف قبلة للقوافل الآتية من كل حذب وصوب وتحولت إلى مركز لاستقبال القوافل من بلاد الجريد وبلاد النمامشة والزاب وبلاد ريغ و وارجلان ومن غدامس وإقليم نفزاوة

(الشكل 37)



(الشكل رقم 37) مناطق تجارة بلاد سوف القديمة

عن الطالب

1.3 - سوق مدينة الواد:

نظرا للدور الذي صار يلعبه السوافة كان لزاما أن يكون لحاضرة سوف الأولى سوقها ليكون مركزا لاستقبال القوافل وترويج وتبادل السلع .

ظهر سوق مدينة الوادي أول الأمر في الباحة الشرقية لجامع سيدي المسعود الشابي ثم أخذ في التوسع عرضيا باتجاه الجنوب الشرقي إلى رحبة جامع النخلة (جامع أولاد أحمد) وباتجاه الشمال إلى غوط مهيريس على محيط غوط السردوك و صار السوق بذلك يغطي كل الواجهة الشرقية لحيي الأعشاش وأولاد أحمد وتحده من الجهة الشرقية غيطان النخيل وتفرع إلى عدة رحبات كل منها متخصصة في أنشطة تجارية متعددة نذكر أهمها:

- السوق المركزي: والذي صار يعرف برحبة سوق القمح بعد أن أنشأت الإدارة الاستعمارية سوقا مغطى بقباب مخصص لبيع القمح قبالة المسجد الجامع وصارت كل الساحة تنسب له، وهو سوق متنوع السلع فبالإضافة إلى القمح والشعير اللذان يُجلبان من الزّاب تُعْرَضُ فيه المنتجات الفلاحية الموسمية وحتى العقاقير والأعشاب الطبية والملح .

- سوق الحطب والحلفاء: كان موضعه في الساحة الواقعة إلى الشرق من جامع النخلة وقبلة غوط السردوك.

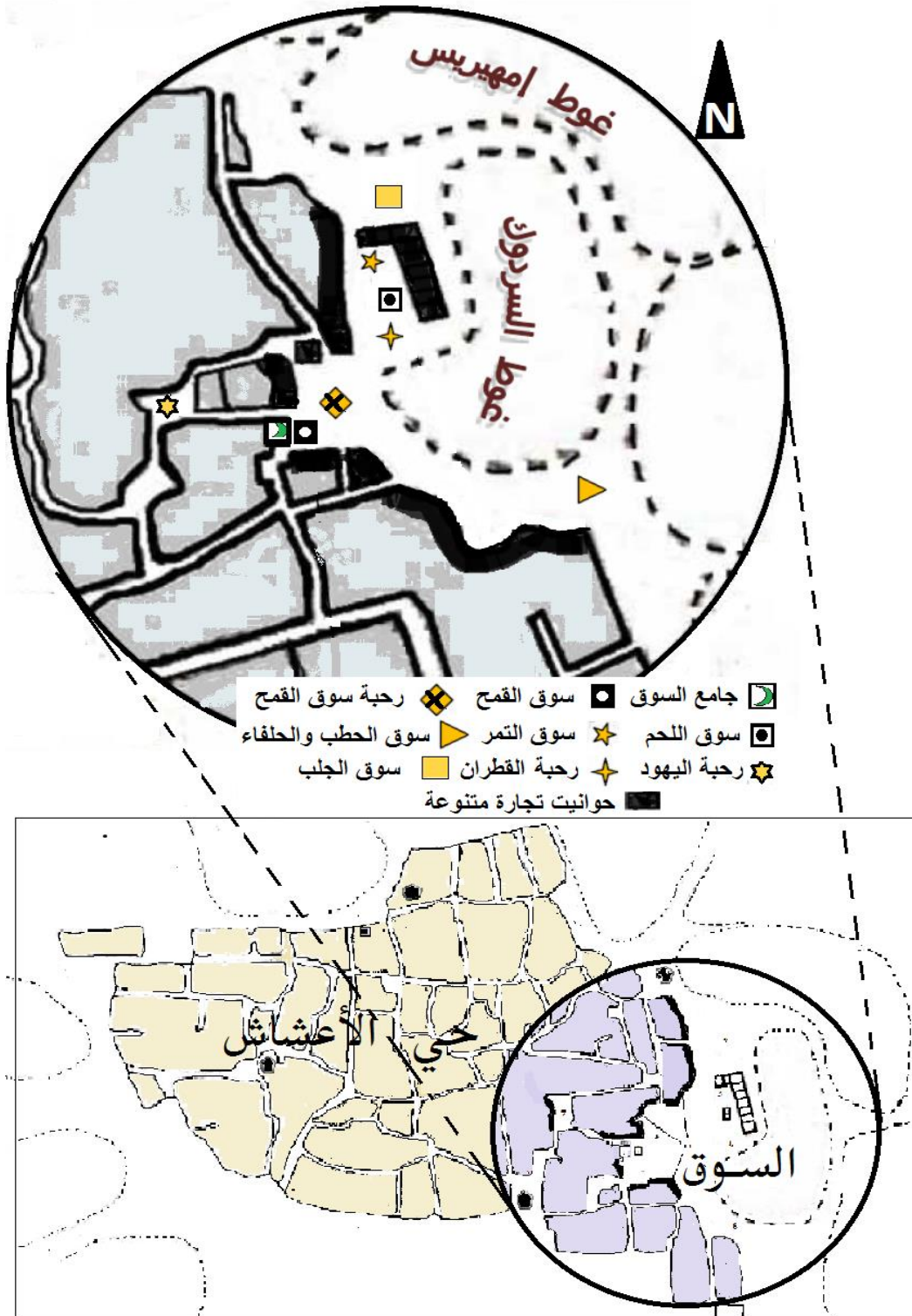
- رحبة القَطْران: تقع في الحد الغربي الشمالي من غوط السردوك هي سوق لبيع القطران الطبيعي¹ ، ويمكن أن يتحول في المناسبات الكبيرة و الأعياد إلى سوق للماشية.

- سوق اللحم: عبارة عن بناء مغطى ومفتوح من كل الجهات أنشأته السلطة الاستعمارية مطلع القرن الـ20 خُصص لبيع اللحوم بمنأى عن أشعة الشمس والأتربة.

¹ القطران أو ما يُسمّى بالقار هو زيت من أشهر أنواع الزيوت النباتيّة، ويُستخرَج بحرق بعض النباتات، مثل: العرعر، أو التّألب ثم تقطيرها ويختلف "القطران" من شجرة إلى شجرة ومن منطقة لأخرى، وله نوعان خفيف وثقيل، ولكل طلبه واستخدامه، الثقيل يستخدم لإصلاح الأواني كالمعجون، ويستخدم الخفيف في طلاء الماشية والعلاج.

- رحبة التمر : تقع شمال رحبة اللحم وهي مساحة مفتوحة ،حيث يعرض التمر في الهواء على الأرض في أكوام أو داخل صناديق خشبية تكون مُعدّة للتصدير إلى بلاد النمامشة .
- رحبة الجلب ومحطة الإبل على الطرف الجنوبي الغربي لُغُوط مِهيرييس وفيها تحط القوافل الآتية من خارج سوف .
- رحبة اليهود¹: هي ساحة داخلية وجدت خلف المسجد الجامع اشتهرت بكثرة العنصر اليهودي فيها تُحيط بها محلات العقاقير والصباغة والأقمشة وكذلك بعض الورش لصناعة الحلّي من الفضة وصناعة أدوات النسيج والآلات الفلاحية .
- محلات التجارة المتنوعة: تعرف بالحوانيت (ج.حانوت) ممتدة على امتداد السوق من الجنوب إلى الشمال معظمها يفتح إلى الشرق مقابلة لرحبات السوق متنوعة الأنشطة منها المحلات التجارية تُعرض فيها المواد الغذائية الأساسية والأصواف والأواني الفخارية والنحاسية والشحوم والدهون، ومنها المحلات الحرفية تمارس فيها الحِداة والنجارة وقد أضافت لها السلطات الاستعمارية مجموعة محلات على طرف غوط السردوك الغربي جُعِلت مخازن للتمر . (الشكل 38) (الصورة 42)

¹ هناك تضارب حول أصول العنصر اليهودي بالمنطقة فنجد من يقول أن الديانة اليهودية كانت موجودة في جلهمة وأن هؤلاء اليهود غادروا مع مجيء العرب بدليل أن بعض المواضع في الصحراء تعرف بهم كشوشة اليهودي و سيف اليهودي ثم جاء آخرون من الغرب خلال القرن 11م/17م وأستقروا في قمار والواد ، وهناك من يربط تواجدهم بالوجود الاستعماري في المنطقة خلال القرن 13م/19م أنظر: إبراهيم العوامر، الصروف، ص.169. كذلك : Cauvet C. La culture du palmier au souf, revue Africaine, 1^{er}. Trimestre, 1914, p64



(الشكل رقم 38) مخطط توضيحي لموقع سوق الوادي القديم وأقسامه.

عن الطالب

2.3. سوق بلدة قمار:

كانت لمدينة قمار منذ التأسيس سوقاً أسبوعية تُعقد كل يوم الجمعة تستقطب سكان البلدة والقرى المجاورة لها، كان موضعه خارج البلدة القديمة عند مدخلها الغربي، ومع تزايد أعداد الوافدين على البلدة للإقامة فيها أو لزيارة الزاوية التيجانية، وكذلك تزايد أعداد اليهود¹ الذين قدموا من الغرب بحرفهم وتجارتههم بالإضافة إلى انتشار زراعة النخيل، زادت الحركية الاقتصادية فعرف السوق توسعا باتجاه الشمال والجنوب ولكنه صار يحتل مركز المدينة ليميز بالتنوع و التخصص في أنشطته وينقسم إلى عدة أقسام على النحو التالي:

(1) رحبة السوق: هي نواة السوق الأولى التي وجدت قبالة مدخل البلدة القديمة والتي

صارت شبه محددة غربا بتأسيس مسجد سي سعيد 1308هـ/1891م، تحيط بها محلات لأنشطة مختلفة كالحلاقين والعشابين وحتى الطب الشعبي مثل عملية الحجامة، كما كانت تباع فيها الخضر والمحاصيل الموسمية المختلفة، وتعتبر هذه الرحبة النواة الأولى للسوق قبل أن يعرف التوسع و التطور.

(2) رحبة قهوة بوكحة : تقع في الجهة الشمالية للبلدة على الطريق المؤدي للباب

الظهراوي (الشمالي) عرفت بالنشاط التجاري خاصة المواد الغذائية من زيوت وحبوب ولحم مُقَدَّد و دهون بالإضافة على الأقمشة والأصواف وأدوات الاستعمال اليومي.

(3) سوق القشاشيب : يعتبر سوق القشاشيب ثاني معلم بعد الزاوية التيجانية أنشأ من

طابقين في بلدة قمار القديمة.² كان عبارة عن مجموعة من المحلات المتقابلة جعل لها رواق مسقوف وتعلوها محلات أخرى في الطابق العلوي أنشأت بمحاذاة جامع الطلبة في

¹ يشير الطاهر التليفي في الفلكة أن من بين المؤسسين الأوائل للبلدة يهودي عرف بتويتو ، ولكن عند تتبع تطور عمران المدينة نجد أن المساكن الأولى لليهود وجدت خارج نطاق البلدة وهذا ما يبينه موقع المعبد اليهودي لذلك نفترض أن اليهود وفدوا على البلدة بعد تأسيسها ويمكن أن يكون ذلك إثر الحرب التي أعلنها عليهم العالم المجاهد عبد الكريم المغيلي في إقليم توات وحتى السودان الغربي في نهاية القرن 9هـ/15م أو إثر المضايقات التي تعرضوا لها من قبل سلاطين بن جلاب في تقرت . أنظر : سعد الله فوزي ، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون ، شركة دار الأمة للطباعة والنشر، الجزائر 1996، ص59.

² في إطار مشروع إعادة تهيئة البلدة القديمة سنة 2002 تمت إزالة سوق القشاشيب نهائيا دون أن تتخذ وزارة الثقافة أي إجراءات لمنع الهدم.

الجهة الشمالية، بحيث نجد الرواق يتعامد مع مدخل البلدة القديمة، عرفت هذه المحلات بتخصصها في صناعة وتجارة المواد النسيجية والأقمشة المحلية خاصة القشاشيب (الجلابية بالمصطلح المغربي) والحايك و البخنوق المصنوعة من الصوف في البيوتات القمارية، بينما كانت المحلات العلوية تستغل في الخياطة أو الحلاقة، كما وجد أسفل بعض الحوانيت محلاة تحت أرضية عبارة عن قباء تستعمل كمخازن. (الصورة 43).

4) رحبة سوق التمر : أقيمت عند المدخل الجنوبي للبلدة أو الباب القبلي منذ منتصف القرن 19 قبيل دخول المحتل الفرنسي للمنطقة، وهي عبارة عن ساحة فسيحة مخصصة لبيع كل غلال النخيل من التمور المختلفة الموجهة للاستهلاك البشري ، وحتى تلك الموجهة للاستهلاك الحيواني من سيش و حشف¹. وكانت تحيط بالسوق محلات تستعمل كمخازن أو لأنشطة متنوعة كالحلاقة.

5) محلات الحرف المختلفة : كالحداة وصناعة الآلات الخاصة بالمنسج التقليدي رغم لأنها توجد البعض منها في أقسام السوق المختلفة ،إلا أن أغلبها كانت بمحاذاة جامع الطلبة في الجهة الشرقية.

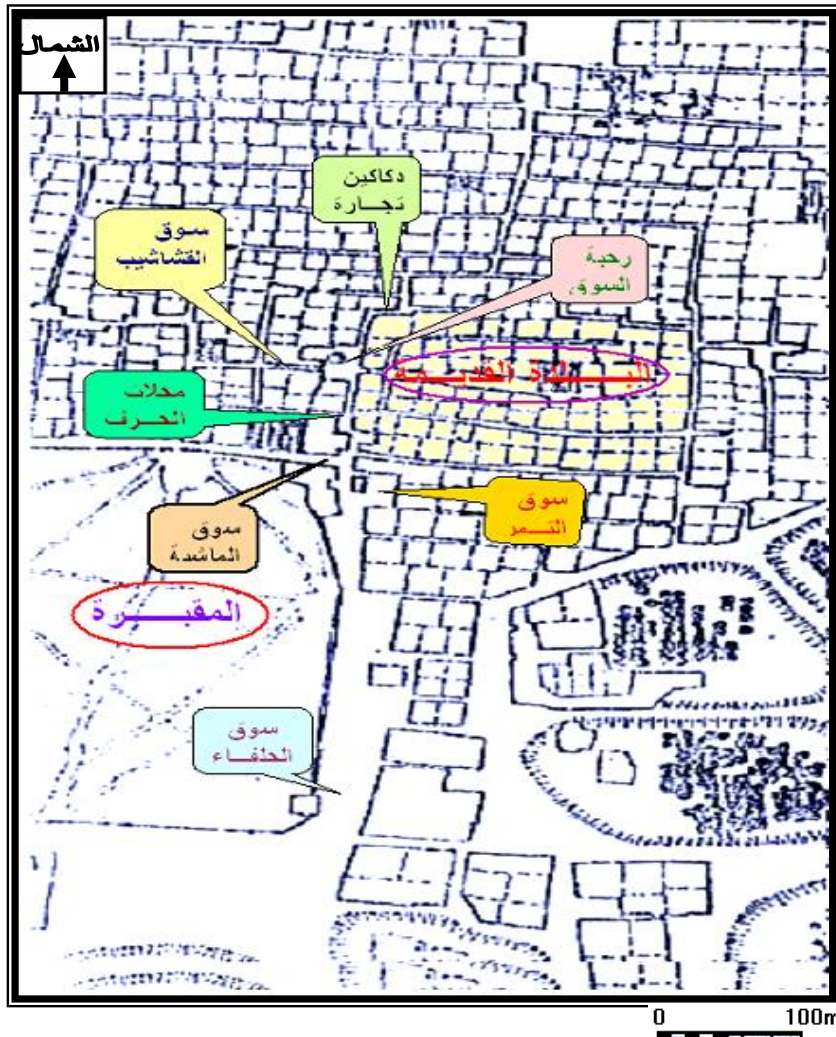
6) سوق الجلب : الجلب من الجلبة وهي كثرة الأصوات واختلاطها وعادة ما يكون ذلك في الأسواق ومنها الأجلاب أي من يجلب الإبل والغنم للبيع²، في سوق الماشية والذي إحتل مكانه في الساحة ما بين جامع الطلبة والمقبرة ، حيث تباع كل أنواع الحيوانات خاصة الماعز و الدواب والإبل والحيوانات الصغيرة مثل أنواع الطيور والأرانب و الحيوانات البرية التي تصطاد في البرية كالفك والثعلب وأنواع السحالي الصحراوية كالورل و الشرشمان (سمك الرمال) والتي تستعمل للتداوي من بعض الأمراض.

¹ السيش هو البلح الذي ينمو دون تلقيح لم يصله غبار الطلع والذي عادة لا يعتبر تمر للاستهلاك أما الحشف هو التمر السيء الذي يبس وتغير لونه وطعمه بفعل العوامل المناخية.

² ابن منظور، لسان العرب، المجلد الأول، ص647

الشرقي للمقبرة عند موضع بئر بوسطة بعيد نسبيا عن السوق الرئيسي ، تباع فيها حمول البعير² من الحلفاء التي تجلب من وسط الصحراء وتقدم كأعشاب للماشية أو تستعمل مع الجريد المنزوع من النخيل في انجاز مربعات وحواجز ضد الرياح في البساتين، كما يباع الحطب و الجلة .

(الشكل 39)



(الشكل رقم 39) مخطط سوق بلدة قمار وأقسامه

عن: **DUCH** يتصرف

¹ الجلة هي فضلات الإبل تجمع من الصحراء وتباع لتستخدم كسماد وعلف للنخيل .

² حمول جمع حمل ومقداره عند العرب وسق، أي ستون صاعا بصاع النبي صلعم، وهو ثلثمائة وعشرون رطلا عند أهل الحجاز، انظر ابن منظور، المصدر السابق، المجلد السادس، ص 4836.

ثانياً: العمارة الدفاعية:

يقول بن خلدون: "أن المدن قرار تتخذها الأمم ... التي تتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار والمأوى، يجب أن يُراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها...، أما الحماية من المضار فيُراعى لها أن يُدار على منازلها جميعاً سياجاً من الأسوار وان يكون وضع ذلك في متمنع من الأمكنة"¹، واعتبر الإسلام أن بناء الأسوار والأبراج لاستخدامها في الدفاع عن حرّات المسلمين من مقاصد الشريعة الإسلامية².

ومن هذا المنطلق نجد أن العمارة الدفاعية من شروط تأسيس المدينة الإسلامية خاصة إذا تزامن هذا التأسيس مع إضطراب الأحوال السياسية في البلاد المجاورة، ومنطقة سوف كما سبقت الإشارة إليه وجدت جغرافياً بين عدة أقاليم متصارعة سياسياً ومتخاصمة دينياً ما جعلها بحكم بيئتها الرملية الصعبة والقاسية تُشكل ملجأً وملاداً للمضطهدين والرافضين لتسلط الحكام، لذلك لم يؤسس هؤلاء أمصاراً أو مدناً كبيرة واكتفوا بإقامة تجمعات سكنية منعزلة من عرائش وخيام سهلة التفكيك والنقل ومع تزايد أعداد الوافدين ظهرت أولى القرى والتي أخذت تنمو حتى صارت حواضر عامرة بأسواقها وحركة القبائل والسكان وقد استطاعت قرى سُوف الأولى أن تحافظ على إستقلالها وأن تضمن لساكنتها والوافدين عليها الاستقرار والأمان لفترة طويلة حتى أواخر القرن 12هـ/18م و من عوامل ذلك:

- نشأة قرى ومدن سُوف وسط الكتبان الرملية للعرق الشرقي المعيقة للحركة ويصعب توغلها إلا على أهلها الذين خبروا طبيعتها.

- تميز السكان الأوائل بغريزة الميل للتخفي وعدم الظهور فكانت أسماء بعض القرى تدل على ذلك كَالْحُبْنَة والعُقْلَة أي المكان الذي يوجد في مسلك صعب أو بين تضاريس مرتفعة غير ظاهر.

¹ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت 2001، ص.433

² محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، المجلس الوطني للثقافة والفنون الكويت 1988، ص.122

- رغم أن أرض سُوف يغلب عليها طابع الإنبساط فليست فيها تضاريس مرتفعة فإن أغلب القرى الكبيرة أنشأت فوق نتوءات من التربة الصلبة تعرف محليا باسم القارة أو الرقوبا حتى يسهل عليهم مراقبة ورؤية محيط القرية.

- أُحيطت قرى سوف بعشرات غيطان النخيل المتلاصقة مع بعضها ولا تترك بينها إلا مسالك ضيقة لا تسمح بمرور المجموعات الكبيرة من الناس مما يسهل على سكان المنطقة عملية الدفاع عن أنفسهم في حال الخطر أو تكون لهم فرصة اللجوء إلى مناطق أكثر أمنا.

- تميزت بعض قرى سُوف (قمار/ الزَّم) بطابع عمارتها الدفاعية حيث أقيمت على صخرة صلبة تحيطها الرمال الرخوة (الأرض الحرة) من جميع جهاتها وكانت عملية بناء المساكن بشكل متلاصق، تفتح أبوابها على الأزقة الداخلية المحيطة بمركز القرية التي يُجعل لها بوابة واحدة أو اثنتان تؤدي إلى ظاهر القرية، وغالبا ما يكلف عرش أو قبيلة بمراقبة هذه الأبواب خاصة عندما تكون الظروف المحيطة غير مستقرة كحالة قرية قمار التي أسكنت عرش أولاد أحمد على أطراف القرية الغربية والشمالية للدفاع عنها.

1- سور مدينة الوادي: صارت مدينة الوادي تعتبر حاضرة بلاد سوف الأولى باعتبار أنها تمثل الثقل السكاني خاصة عرش طرود وكذلك شهدت توافد أناس من جهات عدّة بسبب موقعها على طريق القوافل نحو غدامس ، كما أن طريقة عمارتها لم تكن منتظمة أو خاضعة لتخطيط مسبق بحكم أنه لم تكن لها سلطة سياسية تُسيّر شؤونها ، وبسبب ظروف معينة وجد سكانها أنفسهم مضطرين للاتفاق على تحصين مدينتهم وإحاطتها بسور يقلل من تهديد الأخطار الخارجية .

أ- ظروف الإنجاز:

كانت بلدة سوف تُسيّر وفق نظام قبلي ولم تخضع في تاريخها لأية سيادة خارجية، إلا أن سكانها خاصة طرود لم يكونوا منعزلين عن الأحداث التي كانت تحدث بجوارهم في تونس بالأخص الصراع بين الشابين من جهة مع باي تونس وأتراك الجزائر من جهة أخرى،

وكانت تلك القوى المتصارعة تعرف مدى قوة طرود وشدة بأسهم في الحروب وقد حاول كل طرف استمالتهم إلى جانبه حتى قال فيهم عرفة الشابي " يا طرود من نصرتموه أنتصر ومن كسرتموه أنكسر، قليلكم كثير و كثيركم لا حد له"¹ وبحكم العلاقات القبلية و المذهبية وقف السَّوافة في أول الأمر مع الشابين الذين أسسوا بزعامة سيدي عرفة الشابي² إمارة في القيروان (1535م-1557م) أمتد نفوذها من وسط وجنوب تونس إلى الشرق الجزائري (جنوب قسنطينة من الزيبان وريغ وبلاد النمامشة) ثم أنقلب السوافة على الشابية في عهد علي بن عبد الصمد الشابي وتحالفوا مع باي تونس حمودة باشا سنة 1041هـ/1631م³، وبسبب تزايد التهديد الخارجي وجد طرود أنفسهم مضطرين إلى تحصين بلدتهم من الغارات، و تذكر المصادر أن مدينة الوادي أحيطت بسور من الحجارة أرجعه صاحب الصروف لحوالي العام 1044هـ/1635م⁴ ولكن نعتقد أن هذا التاريخ مشكوك فيه لعدة أسباب نذكر منها:

- أن العدوانى المصدر الأول لتاريخ سوف عاصر أحداث القرن 17م لم يأت على ذكر السور، كما أن العياشي لم يذكر في رحلته سنة 1661م⁵ أن بلد سوف كانت مسورة أو لها أبواب في حين كان قد وصف أسوار تقرت وقبلها ورقلة فلو كان السور موجودا لما أغفل ذكره.

¹ ابراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ص. 181

² هو عرفة بن أحمد بن مخلوف الشابي (1473-1543م) ثاني دعاة الطريقة الشابية وبسبب تكالب الأسبان على شمال إفريقيا وتحالف الباى حسن معهم حاول سيدي عرفة إستعادة إستقلال تونس فأسس إمارة بالقيروان إلا أن دخول العثمانيين إلى الشرق الجزائري وإستعادتهم لتونس من الإسبان كان سببا في ضعف الإمارة ثم سقوطها. أنظر: علي الشابي، تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية، تونس، ط. 1، 2015.

³ علي الشابي، تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية، تونس، ط. 1، 2015، ص. 374

⁴ ابراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، ص. 190.

⁵ أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، ط. 1، 2006، ص. 123

- ذكرت المصادر أنه في سنة 1065هـ/1646م هاجم بوزيان بن عبد الصمد الشابي طرود في عقر دارهم فالتجئوا إلى الجنوب مسيرة عشرة أيام¹ فإذا كان السور قائما فلماذا يلتجئون إلى الجنوب مسيرة أكثر من 400 كم* .

- إذا كان السور أنجز من حجارة اللوس والجبس في مطلع القرن 17م حسب كتاب الصروف، ثم يقول أن بعض أجزائه لم تدم أكثر من عشرين سنة وأنشئت حجارته من قبل السكان، يعني أنه لم يكن قوي البنيان، ويصف M.Prax سور الوادي سنة 1848 " لم يبق من السور إلا بعض الركام، أقيم مباشرة فوق الرمل ولم يصمد كثيرا أمام عوامل الزمن، ارتفاعه نحو 3 أمتار أنجز من الحجارة والجبس"² و يذكر G. Demage في رحلته عبر الصحراء في 1894، أنه وجد بقايا التحصينات التي تحيط بمدينة الوادي³

كل هذه الأسباب تجعلنا نعتقد أن سور مدينة الوادي أنشأ في فترة متأخرة يمكن أن تكون في النصف الثاني من القرن الـ18م حيث عرفت منطقة سوف وخاصة حاضرة قمار عدة حملات من الغرب، ففي عام 1180هـ/ 1766م قام سلطان تقرت أحمد بن محمد الجلابي بغزو وادي سوف⁴ ولكن أهل حاضرة الوادي بلغهم خبر مقدمه فاستعدوا له ونازلوه خارج مضاربهم وأوقعوا به الهزيمة، فتظاهر بالانسحاب ثم حاول مباغته حاضرة قمار ولكنه لم يتمكن من اقتحامها لحصانة بنيانها و نجدة أهل الوادي لهم⁵. كما حاول بنو جلاب مرة

¹ علي الشابي، تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية، تونس، ط.1، 2015، ص.375.

* قدر العلماء مسيرة اليوم بأكثر من 40 كلم. مركز الفتوى، إسلام ويب .

² M.PRAX, Sahara Algérien ; Le Souf ; Revue de l'orient de l'Algérie et des Colonies, Tome Quatrième 1848 Rouvier, Libraire, PARIS, p.193

³ Demage, G. A travers le Sahara, Librairie Hachette, Paris 1894. Page 71

⁴ Charles Feraud, Les Ben Bjellab sultans de Tougourt, Revue Africaine, Jourdan ,libraire-éditeur, Alger volume 23,1879 P.p.343-366

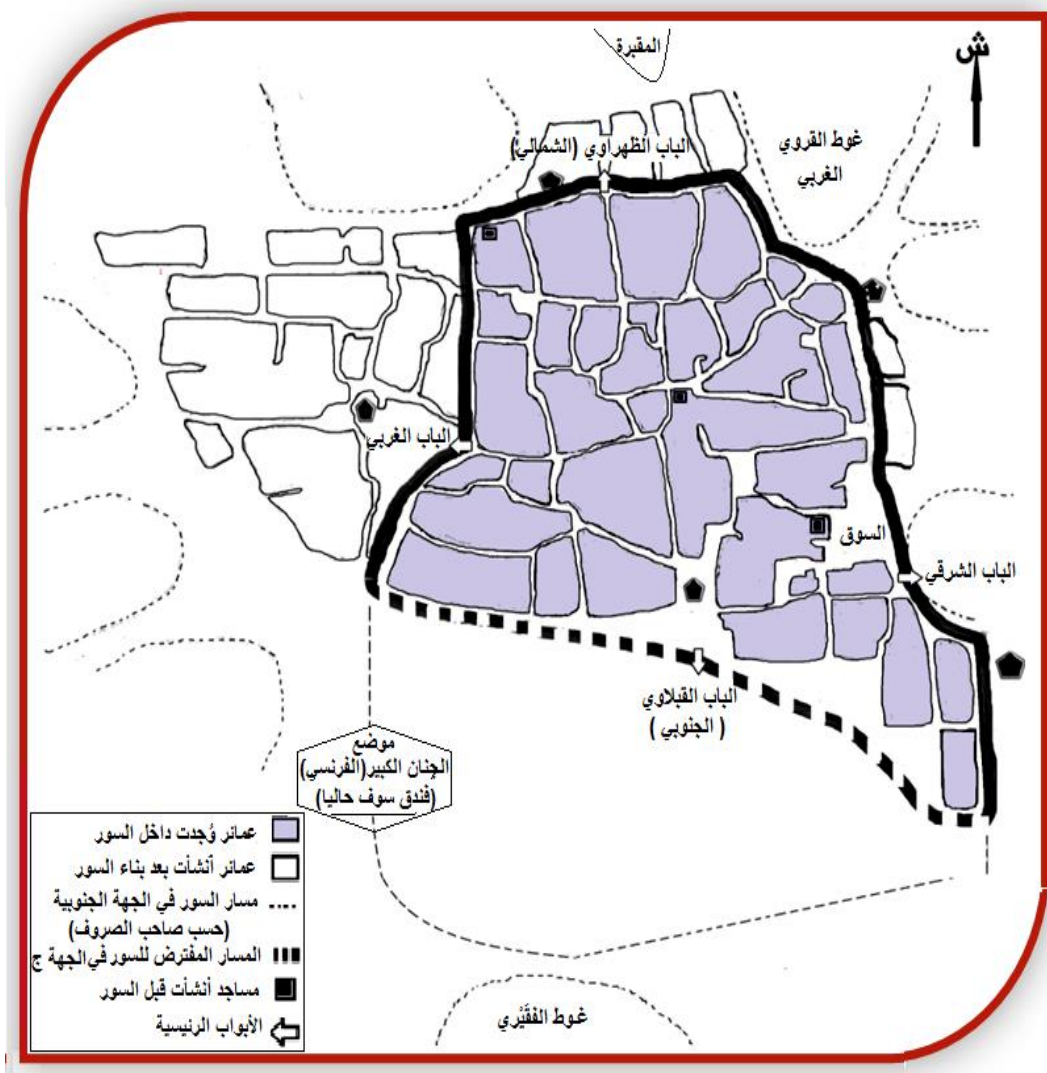
⁵ إبراهيم العوامر، نفس المرجع، ص.212.

أخرى إخضاع قرى سوف لسلطة باي قسنطينة لجباية الضرائب. كل هذه قرائن تؤكد أن انجاز سور مدينة الوادي تم خلال القرن الـ18م.

ب- مخطط مسار السور: لم تبق أي آثار أو معالم تدل على تخطيط السور أو أبعاده أو المجال الذي شمله عدا ما ورد في كتاب الصروف على النحو التالي :

- ▲ ابتداء من حي أولاد أحمد عند حوش حمّه عمار جنوبا .
- ▲ امتد شمالا مارا بحوش يوسف بن مستور وحوش الصوابرية ويقطع سوق الحلفاء والحطب وصولا إلى حوش محمد القروي بن الشيخ علي بن مصباح في باطن غوطه الغربي، وجعل بابه الشرقي مقابل لغوط السردوك .
- ▲ امتد غربا من حوش القروي إلى طاحونة بلقاسم بن موسى ووصولا إلى حوش محمد الصغير بن بديدة، وجعل بابه الشمالي(الظهراوي) شرق الطاحونة بقليل.
- ▲ امتد قبلة إلى حوش الطاهر بن الحاج سعد بن حميدة حيث جعل بابه الغربي، ثم امتد ناحية الجنوب الغربي إلى طرف الجنان الكبير وجوفا من هود الفقيري.
- ▲ امتد شرقا مرورا بحوش أولاد النينة حيث جعل الباب الجنوبي(القبلي) شرقه ، ثم وصولا إلى الموضع الأول عند أولاد أحمد¹. (الشكل 40)

¹ إبراهيم العوامر ، الصروف ،ص.190



(الشكل رقم 40) : مخطط توضيحي لمسار سور المدينة القديمة للوادي

حسب وصف كتاب الصروف - بتصرف-

عن الطالب

من المؤكد أن العوامر لم يعاصر إنجاز السور و إنما أدرك بعض ما تبقى من أجزائه وحاول أن يرسم لنا المسار المفترض للسور ولكن يبدو أنه أخفق في تحديد مساره في الناحية الجنوبية عندما قال أن السور وصل إلى "غوط الفقيري" مروراً بموقع الجنان الكبير¹ فليس من المنطقي أن ينجز أهل الوادي السور في منطقة خالية من العمران وعندما دخلت الدولة الاستعمارية وأستتب لها الأمر شرعت في إقامة منشآتها العسكرية ومساكن للأوربيين وجدت الجهة الجنوبية من المدينة القديمة للوادي (الأعشاش) أرض بيضاء (صحن) خالية من السكان وذلك ما جعلنا نعتقد أن حدود السور كانت حول المدينة القديمة لحماية السكان وهو ما تؤكده أقدم سورة ملتقطة لمدينة الوادي قبيل الاحتلال الفرنسي للمنطقة سنة 1882م.

(الصورة 44)

¹ عبارة عن حديقة متنوعة الأشجار والنباتات كما تحتوي على بعض الحيوانات الصحراوية والطيور أقامتها السلطة الاستعمارية كمنتزه للكولون، وبعد الاستقلال أنجز في موضعها فندق سوف .

الفصل السادس: مواد وتقنيات البناء والزخرفة

1. مواد وتقنيات البناء .

1.1. مواد البناء .

1.2. تقنيات البناء .

2. الزخرفة وتقنياتها

1.2- مواد وتقنيات الزخرفة.

2.2-المواضيع الزخرفية (نماذج)

أولاً: مواد وتقنيات البناء :

أختار الإنسان منذ القديم ما وجده في الطبيعة من مختلف المواد ليشيد بها مسكنه، ومع مرور الوقت صار بإمكانه المفاضلة بين أكثرها قوة وتحملاً وأسهلها استعمالاً وأقلها تكلفة وصار يلجأ إلى سد حاجياته بتصنيع بعضها وطور مهاراته في حسن استغلالها حتى خلد منشآت معمارية في كل الحقب والحضارات .

1. مواد البناء :

عمد الإنسان في الصحراء منذ القدم إلى الاستفادة من كل ما توفر له في البيئة المحيطة به من مواد بناء طبيعية بسيطة، وتمتاز هذه المواد بوفرته وقلّة تكلفتها وانسجامها مع الظروف المناخية التي تميز المنطقة .

و إذا حاولنا معرفة طبيعة المواد المستخدمة في العمارة الصحراوية نجد أنها لا تخرج عن ثلاثة أصناف وهي: الطين، الحجارة ومشتقاتها، المواد النباتية وفي مقدمها النخلة، وقد اعتمد الإنسان الصحراوي على هذه المواد حسب الوفرة والتنوع من منطقة لأخرى ففي المناطق المحاذية للأطلس الصحراوي بالجزائر مثلاً يكثر استعمال أنواع من الحجارة الصلبة كالقرانيت والكوارتز كأساسات للمباني بينما في مناطق أخرى كإقليم توات يمثل الطين أساس مواد البناء فيها فمنه تصنع قوالب الطوب و يستعمل كملاط للربط أو التكسية وفي مناطق أخرى تمزج بين المواد الترابية والصخور .

أستعمل الإنسان السُوفي كل المواد التقليدية التي توفرت له في الطبيعة وعرف كيف يُكَيِّفها بطريقة تتماشى وخصوصيات بيئته المناخية وتقاليده الاجتماعية، فبعد أن أستخدم الساكنون الأوائل المواد النباتية كالأخشاب والقصب والقش لبناء الأكواخ البدائية ومع تزايد أعداد الوافدين للمنطقة تكاثرت التجمعات السكنية ظهرت الحاجة لاستعمال المواد الترابية

كالحجارة الرملية و الكلسية، و ابتكار مادة الجبس كما زاد اعتماده على العناصر النباتية المستمدة أساسا من النخلة. ومن أبرز هذه المواد :

1.1. الحجارة:

أ- أنواعها: أهم الحجارة المتوافرة في البيئة الصحراوية الرملية بمنطقة سوف هي:

- **حجر اللّوس** : هو حجر جيري من حبيبات السيليكا (بلورات الرمل الدقيقة) التي تجمعت في شكل هندسي بواسطة تكاثف كربونات وكبريتات الجير، ذات نسيج رقيق وهيكل قشري. وإذا كانت في شكل وريقات مدببة أو محدوبة شفافة بلون أصفر فاتح وهذا الأخير نطلق عليه تسمية "زهرة الرمال / Rose de Sable" ¹. (الصورتين 45 و 46)

تتميز حجارة اللّوس بقوة التحمل خاصة إذا شُدت إلى بعضها بمادة الجبس كما أنها أقل تأثرا بالرطوبة من الحجارة الكلسية. شاع استخدام حجارة اللّوس في مختلف عمليات البناء في ثلاثة أحجام :

- الحجارة الكبيرة تكون عادة ثقيلة توضع خاصة في الأساسات كما تُرْفَع بها الدعامات و أركان البناء.

- الحجارة المتوسطة تعرف بالقرشة شكلها مفلطحة نسبياً توضع ممددة وتخصص لتكون وسط الجدران، عادة ما يتراوح سمكها ما بين 0.25/0.30 م.

- القطع الصغيرة تعرف محليا بالقرشة (الأجزاء المفتتة من الحجارة الكبيرة) غالبا ما تستعمل في التسقيف وتُشكّل منها القباب و الأدماس و العقود، كما تُسَدُّ بها الفراغات بين الحجارة الكبيرة والمتوسطة في وسط الجدران خلال عملية التلبيس.

¹ Belluye, J. : Sur Les Procédés de Construction employés dans les dunes d'El oued ,Revue du génie militaire, Libraires-Editeurs, Paris, 6e Année 1892 ; P.387

يتواجد اللّوس في شكل نطاقات عرضية على مستويات قريبة من السطح و يتوافر بكثرة في الجهات الشمالية من وادي سوف خاصة في كوينين تاغزوت وقمار. (الصورة 47)

• **الحجارة الكلسية :** وهي حجارة رسوبية تتكون في الغالب من سulfates أو كاربونات الكالسيوم تعود لفترات العصر الطباشيري (الكريتاسي)¹ بالصحراء المنخفضة بالجنوب الشرقي من الجزائر خاصة بالزيبان ووادي سوف ووادي ريغ² ومن أنواعها بمنطقة سوف.

* **الصُّلَاجَة:** (بضم الصاد وتشديد اللام)³ وهي نوع من الحجارة الكلسية المتصلبة، تشكلت بتمازج حبيبات الجبس والرمل بإشكال وإحجام مختلفة قد تكون تصلبت بفعل الجفاف و تعرضها للضغط ، تكون ذات لون فاتح يميل إلى الزُّرْقَة، يتميز هذا النوع بمقاومته للحرارة وعازل للصوت، عادة ما تستخرج الصُّلَاجَة من مستويات أكثر من ثلاثة أمتار في باطن الأرض .

شاع استخدام حجارة الصُّلَاجَة في العهود المتأخرة نظرا لانتظام شكلها، وقد تكون أشد صلابة من اللّوس إذا لم تتعرض للرطوبة، و بسبب سرعة تأثرها بالرطوبة توضع عادة وسط الجدار في مستوى أعلى بنحو المتر من الأساسات (حجارة اللّوس).

* **التَّافَزة :** نوع من الحجارة العضوية الجيرية الرخوة المتشكلة من رسوبيات جيرية وكيميائية منها دقائق السيليكا و كاربونات الكالسيوم⁴، و تختلف التَّافَزة المعروفة في منطقة وادي سوف عن التَّافَزة المستعملة في قصر ورقلة أو في قصور الجنوب الغربي

¹ العصر الطباشيري هو الفترة المتأخرة من الزمن الجيولوجي الثاني منذ نحو 65 إلى 135 مليون سنة، فيه انقرضت الديناصورات. أنظر: بيار جورج، معجم المصطلحات الجغرافية، تر. حمد الطيفلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ببيروت، 2002 ص. 432.

² حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية أثرية، موفم للنشر الجزائر 2006، ص. 291.

³ من صُلُج الشيء أي تَصَلَّب. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، المجلد الرابع، ص. 2450.

⁴ عطالله ميشيل كامل، أساسيات الجيولوجيا، دار المسيرة للنشر والتوزيع عَنان، ط. 3-2009، ص. 254.

كالبيض و الأغواط، هذه الأخيرة تميل إلى اللون الأحمر المصفر نظراً لأحتواءها على أكسيد الحديد وتتميز بشدة صلابتها ومقاومتها ويكثر استعمالها في الأماكن المعرضة للرطوبة والأمطار مثل أسس المباني¹ عكس التآفة المحلية في منطقة سوف فهي رخوة شديدة التأثير بالرطوبة وعملية الحت .

تتواجد حجارة التآفة في شكل حزام أو طبقة على مستويات متوسطة من العمق قريبا من السطح تكون ذات لون أبيض مائل للسُمرة. وتُستخرج خصيصا لصنع الجبس التقليدي.

تتوافر هذه الأنواع من الحجارة الكلسية سواء الصلابة أو التآفة بكثرة في الجهات الشمالية من منطقة سوف خاصة بالفولية² وغمرة الشمالية³.

ب- عملية استخراج حجارة البناء :

يُعتبر استخراج الحجارة عملية شاقة وخطيرة تحتاج إلى خبرة ودراية بطبيعة التربة و طبقاتها من حيث السُمك ومستوى العمق، كان يستخدم فيها أدوات يدوية بسيطة تعتمد على الجهد العضلي المتمثلة في الرفش، العتلة⁴، البيلون (pilon) (إسفين معدني ضخم) ومطرقة كبيرة يتراوح وزنها ما بين 10 إلى 20 كغم تسمى محليا توكماك (TOCMAC). (الصورة 48)

¹ H. Terrasse, Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis, les grandes architectures du sud marocain, Horizons de France, Paris 1938, p.16

² الفولية قرية تابعة إداريا لبلدية الرقبية تبعد عن مقر الولاية بنحو 40 كلم تعتبر بوابة الولاية على الطريق المؤدي إلى بسكرة، تنتشر بها اليوم الكثير من المحاجر وأفران الجبس .

³ غمرة : قرية تابعة لبلدية قمار تمثل الحد الشمالي لها وهي أكبر مساحة من مقر البلدية ، تتكون غمرة من عدة جهات وهي: غمرة، قور الضبع، ميه خليفة، ميه عطية، الدميثة، الجديدة الغربية وتمتد شمالا حتى الشطوط، يُجهل أصل تسميتها ولكن يُعتقد أنه نسبة إلى قبيلة غمرة الزناتية المستعربة التي تعايشت مع قبيلة رياح العربية و أنتشرت في كل الإقليم الواقع جنوب جبل أوراس أنظر: عبد الرحمان أبين خلدون، تاريخ ابن خلدون، دار الفكر 2000، ج.7، ص.11

⁴ العتلة : العصا الضخمة من الحديد لها رأس مفلطح كقبيعة السيف، وطرفها الآخر يكون مدببا تكون مع البناء ليهدم بها الحيوان، أنظر ابن منظور ، المصدر السابق ، مجلد 4 ، ص.2801.

يُنجز العمل عادة ثنائيا حيث يحفر العمال في المَحَجَرَة مقطعا عرضيا بشكل دائري بهدف إزالة الأتربة حتى عمق نحو مترين، ثم تبدأ عملية إزالة التراب أسفل حزام الحجارة¹ باستعمال آلة الرفش طويلة المقبض أحيانا لترك فراغ تحته، وبعد ذلك يقوم العامل الثاني بدق الإسفين المعدني في الأعلى (عند نقطة ضُغف الارتكاز) حتى يحدث صدعا في الكتلة الصخرية لتهوي نحو الأسفل، وهنا تكمن خطورة العملية بالنسبة للعامل في الأسفل الذي قد تنهار عليه الحجارة قبل طرقها من أعلى ما قد يتسبب في مقتله .

قد تستغرق عملية قلع الكتلة الحجرية يومين إلى ثلاثة أيام ليتم بعد ذلك تقطيعها بواسطة العتلة وتشحن فوق ظهور البغال أو عربات الجر نحو منطقة البناء.

كانت عملية الاستخراج متشابهة لكلا نوعي الحجارة المتوافرة في المنطقة. أما اليوم² فقد ظلت العملية مقتصرة على الحجارة الكلسية من نوع التافزة التي مازالت يصنع منها الجبس الذي عرف استعماله ازدهارا مع رواج فن الزخرفة بالنقش وكذلك تبييض الجدران.

2.1. الجبس:

أ- أنواعه: يوجد في منطقة سوف نوعان من الجبس المستعمل الطبيعي و الاصطناعي:

➤ الجبس الطبيعي: صخر رسوبي يُعرف في أغلب المناطق الجنوبية بالتبشمنت و يُسمى محليا بـجبس البرانيس (م. بُرُنُوس)، وهو فلز ضارب إلى البياض قابل للانحلال بالماء رمزه الكيميائي $SO_4Ca.2H_2O$ يتكون من حبيبات دقيقة من معدن كبريتات

¹ الحزام: مصطلح محلي يستعمل للدلالة على الطبقة الصخرية الواقعة بين طبقات الرمال.

² صارت عملية استخراج الحجارة اليوم تستعمل فيها الجرافات التي تقوم بإزاحة الرمال من محيط المقلع في فترة وجيزة كما تقوم الجرافة الحفارة بقلع الحجارة آليا دون جهد كبير أو خطورة تذكر.

الكالسيوم المائية المتبلورة¹، ويطرسب معدن الجبس على هيئة صفائح مسطحة مع الصخر الملحي أو طبقات ذات هيئة ليفية متراكبة مع الحجر الجيري أو الرملي².
يعتبر الجبس الطبيعي من الخامات المتوفرة بكثرة في منطقة سوف سواء على سطحها أو على أعماق قد تصل إلى 3.50 م.

يستخدم الجبس الطبيعي في:

- غسل مادة الصوف لإعطائها اللون الأبيض الناصع ولهذا سُمِّيَ (جبس البرانيس).
 - الطب الشعبي حيث يستخدم كجبيرة لمعالجة الكسور لكي يساعد على تثبيت العظام المكسورة في مكانها حتى تلتئم وتعود إلى طبيعتها .
 - تبييض المباني التي بمرور الزمن تحول لونها للاصفرار بفعل عوامل الطبيعة.
- الجبس الاصطناعي: هو مسحوق كِلْسِي يُنتَج عن حرق حجر التَّافَزة، يتميز بلونه الأبيض المائل إلى السُّمْرَة ما يجعله عاكسا لأشعة الشمس وعازلا للحرارة وكاتما للصوت، لذا يستعمل كملاط في عملية البناء ورابط متين بين حجارة اللوس وكذلك في تغطية و تلبيس الجدران وفي وقتنا الحالي أقتصر استعماله في عمليات الزخرفة بالنقش.

شاع استعمال هذا النوع من الجبس في عموم بلاد سوف بل صار طابعا لها يميزها عن القصور الصحراوية التي كانت غالب على عمارتها الطين واللبن.

ب- صناعة الجبس التقليدي : عرفت صناعة الجبس التقليدي إنتعاشا كبيرا منذ أواخر القرن التاسع عشر بسبب زيادة أعمال البناء وتوسع حركة العمران، وعلى الرغم من ظهور البناء بالاسمنت والآجر، فإن بعض أهالي وادي سوف ظلوا محافظين على

¹ ليون موريه، الوجيز في الجيولوجيا، ت. يوسف خوريو عبد الرحمن حميدة، دار طلاس للترجمة والنشر دمشق، ط. 1987، ص. 128.

² عطالله ميشيل كامل، نفس المرجع، ص. 252.

صناعة الجبس المحلي لكونه المادة الملائمة لطبيعة مناخ المنطقة والعمران التقليدي الذي ما زال سائدا بأحياء وقرى المنطقة.

وفيما يلي عرض لمراحل صناعة الجبس .

✓ عملية حرق حجارة التآفة: تتم عملية الحرق في الفرن أو الكوشة بالتعبير المحلي وهي عبارة عن فرن ذا شكل دائري يُشيد بالقرب من مقلع الحجارة، تُجعل له فتحتان إحداهما ضيقة في الأسفل وهي مكان الموقد ويستخرج منها الجبس بعد الحرق، و الثانية في أعلى الفرن و هي المدخنة تكون واسعة مفتوحة على الهواء مباشرة، حيث يُدخَل من خلالها الحطب المُشكَّل من قطع جذوع النخل والكرناف¹ وأشجار الرِّثْم²، ثم توضع قطع التآفة المُراد حرقها بشكل مرتب من الأكبر حجما إلى الأصغر فالأصغر حتى تُسد كل المنافذ التي يمر عبرها الدخان وفي الأخير تضرم النار في الموقد أسفل الحجارة وعادة ما يكون آخر النهار لتظل مشتعلة طيلة الليل وحتى منتصف النهار و تقدر درجة حرارته ما بين 150-200 ° مئوية³، (هذه الطريقة تمارس بإحترافية وتنتج الكوشة الواحدة مقدار حمولة شاحنة متوسطة الحجم . (الصورة 49)

✓ عملية طحن الحجارة

بعد اكتمال عملية الحرق تُستخرج الحجارة المحروقة من الفتحة السفلية للفرن(الموقد) وتوضع في مكان صلب، لتُدق بقوة سواعد العمال وبواسطة مهاريس كبيرة⁴ ليتحول

¹ الكرناف بضم الكاف هو الطرف العلوي من الجريد الذي يكون موصولا بجذع النخلة، وعند استعمال الجريد ينزع منها الكرناف والأشواك ليستعمل في التدفئة أو لحرق الجبس.

² الرثم هو شجر ينمو في الصحراء و السهوب لا يتجاوز ارتفاعه المتر أوراقه إبرية مذاقها مر وهو شديد الاشتعال.

³ حملاوي علي، المرجع السابق، ص. 292.

⁴ مهاريس (م.مهراش) وهي عبارة عن عصا كبيرة من الحطب الصلب وتعرف بالخباطة .

الحجر إلى مسحوق مادة الجبس يكون لونه رمادي فاتح لاختلاطه بالرماد والفحم، ثم يعبأ في الشواري¹ لينقل إلى ورش البناء.

ظل الجبس يعتبر المادة الرئيسية للبناء في منطقة سوف حتى عهد قريب لكن مع دخول مياه الحنفيات إلى المنازل زادت نسبة الرطوبة في التربة ما أثر على صلابة الجدران كنتيجة لتحلل الجبس وتحوله إلى ما يشبه التراب بسبب مكوناته الملحية (كبريتات الكالسيوم) وصرنا نلاحظ أساسات الجدران القديمة متآكلة بفعل التعرية الريحية الأمر الذي جعل السكان يستعيضون عنه بمواد البناء الحديثة خاصة الأسمنت، وظل استعمال الجبس مقتصرًا على عمليات التلبيس الداخلي أو في فن الزخرفة بالنحت الذي شهد رواجًا في العهود الأخيرة.

3.1- العناصر النباتية: لقد ارتبط تاريخ عمران بلاد سُوف بحفر الغيطان وزراعة النخيل، التي عرفت غِراسُها ازدهارا وانتشارا كبيرين في المنطقة وخصَّها الإنسان السُوفي بكل جهده و وقته فأوته في ظلِّها وأطعمته من ثمارها و كانت سببا في سعادته عندما تكون العَلَّة وفيرة تُؤمِّن له قوت عامه من التمر كما تحقق له مدخولا معتبرا، كما جعلته في أحيان كثيرة مطمع الطامعين من مناطق الجوار² الذين أغاروا على سوف لضمان ولائها ولجباية الأموال من سكانها وإذا قاوموا أو رفضوا تتعرض غيطانهم ونخيلهم للتجمير³.

عادة ما يستخدم أهل الصحراء أشجار النخيل اليابسة أو التي مستها آفة أو المُسنَّة التي لم تُعدَّ منتجة، وأستطاع البناؤون أن يستمدوا من النخلة الكثير من أجزائها واستعملوها كعناصر للبناء أهمها : (الصورة 50)

¹ الشواري جمع شارية وهي عبارة عن سلال كبيرة تصنع من الحلفاء وسعف النخيل تستعمل في نقل الجبس أو السماد الطبيعي في الزراعة.

² تعرضت بلاد سوف لحملات عسكرية خلال القرن الـ18م من بني جلاب حكام تقرت. أنظر: الفصل الثاني ص

³ أي ينتزع الجريد الذي في وسطها (قلبها) الذي يعرف بالجمار فتبيس النخلة

أ- الجذوع : هو ساق النخلة ويمثل أهم أجزاءها فهو يوفر نحو 70 إلى 90% من الخشب المستعمل¹، قد يصل متوسط قطره ما بين (40-90سم)، يتم قطع النخلة من الأسفل ثم ينزع عنها الجريد و الكُرُناف ثم يترك الجذع المقطوع في الهواء الطلق قبل استعماله لأشهر وحتى سنة حتى يَبَسَ نهائياً و في جهات مجاورة لوادي سوف في وادي ريغ أو بلاد الجريد التونسي تُترك الجذوع في مياه الشط المالحة² حتى تتشبع بالملح للتخلص من الحشرات الطفيلية، ثم يختار المستقيم منها الذي يُقطع طولياً إلى قسمين أو أكثر ويجب أن لا يتجاوز أطوال الأجزاء 2.5-3م بسبب ضعف مقاومة خشب النخيل³ و يستخدم في عدة مجالات منها :

- التسقيف : حيث توضع الجذوع بشكل أفقي على الجدران لتوضع فوقها عناصر السقف الأخرى كسدة الجريد أو القصب وهذا في الأسقف المسطحة.
- الدعم: يستخدم الجذع كدعامة لحمل الأسقف في المساجد، أو للربط بين الجدران خاصة في الغرف الكبيرة نسبياً أو كأكتاف (سواكف) للمداخل.⁴
- الأبواب: حيث يُقطع الجذع إلى ألواح تُشدّ إلى بعضها عرضياً ليصنع منها الباب التقليدي، وتستعمل لوحتين أو ثلاث في الباب الواحد⁵، كما تصنع من الألواح الصغيرة النوافذ.

¹ سطاس محمد راتب/أندراس مسعود، مواد البناء واختبارها، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر 1992، ص.208.

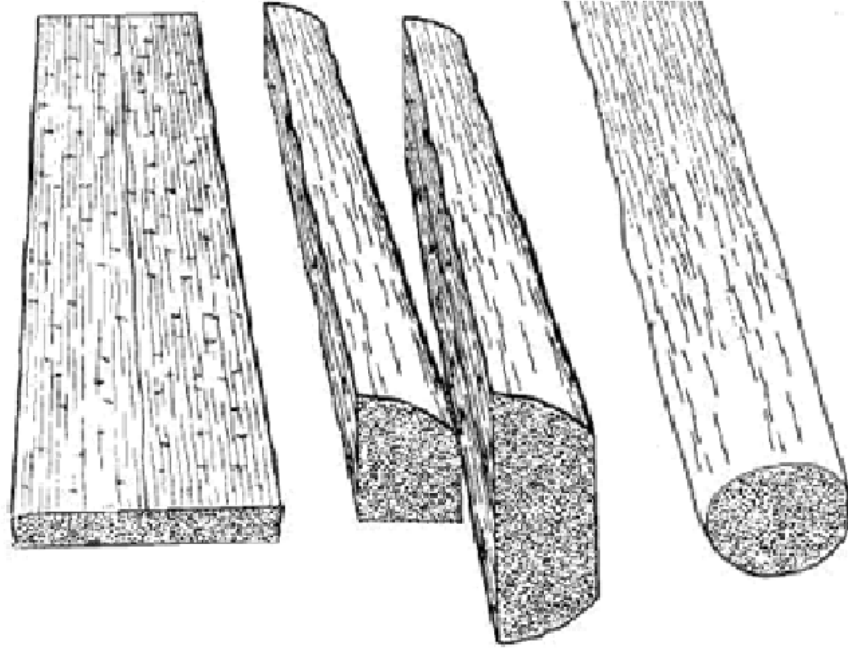
² رقية كيو/رضا الرقيق، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، وزارة التجهيز والإسكان بتونس، 2003، ص.97.

³ M. Rouvillois- Brigol, Le pays d'Ouargla (Sahara algérien), variation et organisation d'un espace rural en milieu désertique, univ.de Paris 1975, p.88

⁴ السّاكف أو الأسكُفّة الجمع سَوَاكف Linteaux جزء من العمارة يكون أعلى الباب أو النافذة.

⁵ بعض العائلات الميسورة تلجأ إلى كسوة أبوابها بصفيحة معدنية (قشرة) يتم جلبها من تونس وتُحلى بمسامير نحاسية للتغطية على خشونة الملمس.

- تستخدم الجذوع غير المستقيمة أو التالفة في عمليات حرق حجارة الجبس كونها بطيئة الاحتراق وتساعد على إطالة مدة اشتعال النار في الفرن. (الشكل 41)



(الشكل رقم 41) جذع النخل بعد قطعه طوليا إلى ألواح

عن: قبائلية مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية

ب- الجريد : وهي أغصان النخيل التي تقطع من النخلة دوريا من أجل تقليمها ويتميز بالمرونة وسهولة الاستعمال بعد أن ينزع منها الكُرُناف والأشواك.

كان الجريد أول ما أُستعمل من أجزاء النخلة في إنجاز المساكن الأولى بمنطقة سوف وتعددت استعمالاته منها:

- يُستخدَم الجريد في إنجاز السقيفة وهي عبارة عن كوخ مغطى ومحاط من جميع جوانبه بقي مستعمله من أشعة الشمس الحارة كما يقلل من تأثير الأتربة والرياح.

- ينجز بواسطة الجريد الزَّرْب¹ ليكون بمثابة الساتر والحاجز الخارجي للمنازل في الأرياف بدلا من حوائط الجبس، حيث تُصَفَّفُ عصي الجريد الغير منزوعة السعف وتُشد إلى بعضها البعض و تدفن أطرافها في الأرض قصد تثبيتها.

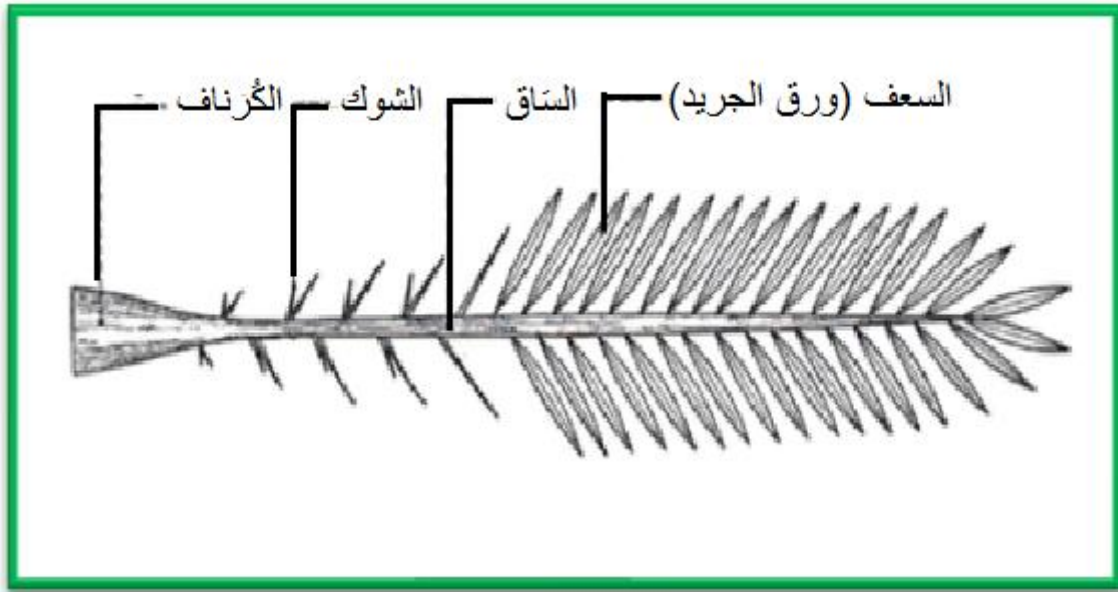
- يستخدم الجريد الأخضر اللين في تشكيل عقود المداخل في الساباط، فيقوس الجريد ويثبت من طرفيه ثم يوضع فوقه الجبس الذي سرعان ما يتصلب وقد يترك الجريد في مكانه مدة ثم ينزع لتبقى آثاره.

- يصنع من الجريد السُدَّة² بعد أن ينزع منها السعف و تُزال الأجزاء السفلية(الكُرُناف) كما تُقص الأطراف العلوي الرقيقة من السيقان لنحصل على عصي متماثلة في السمك والطول الذي يتراوح ما بين 1.5 و 2.5 م ثم تُمدد لتجفف بشكل مُسَطَّح تحت الرمل وقد توضع عليها بعض الأثقال ، وبعد أسبوع أو أكثر تستخرج و تنقب العصي من جوانبها لتجمع إلى بعضها البعض بواسطة حبال من اللِّيف لتكون بمثابة الحصير الخشبي ليُستخدم في التسقيف حيث توضع فوق عوارض جَذوع النخل لتدخل في عملية التسقيف بدلا من القبة.

¹ الزَّرْب أو الزَّرْبِيَّة أي المدخل ويقال أزربت الغنم أي أحطتها بسياح من الخشب. أنظر: ابن منظور، المصدر السابق، مج.3، ص.1822

² السُدَّة جريد يُشدَّ بعضه إلى بعض. أنظر: ابن منظور، نفس المصدر، مجلد 3، ج 22، ص. 1970.

ج- الكُرَاف والليف : تمثل "الكُرَافَة " الجزء العلوي من الجريدة الذي يبقى ملتصقا بالذئع بعد أن تقطع الجريدة ، و تبلغ مقاساتها بحجمها العادي ما بين 20 سم إلى 25 سم. و يتم نزعها من الذئع و توضع لتجفف فترة من الزمن، ثم تستعمل للتسقيف بحيث توضع فوق السدة على الجهة المسطحة وهي بذلك تغلق الفراغات بين الأخشاب ولزيادة قوتها، كما يضاف إليه الليف وهو عبارة عن شبكة من الألياف تغطي الجزء العلوي من جذع النخلة بين الكُرَاف، و يستعمل كذلك في غلق المساحات الصغيرة و الفراغات التي يتركها الكُرَاف الذي يوضع على قطع جذوع النخلة، و يقوم البنّاءون بتبليله قبل نشره على الكُرَاف، ولذلك يعتبر استخدام هذا العنصر في السقف ضروري لغلق كل المساحات و الشغرات الصغيرة قبل وضع الجبس(الشكل42)



(الشكل رقم 42) أقسام ومكونات جريدة النخل

عن الطالب

2. تقنيات البناء :

إن الأساليب المتبعة في البناء والإنشاء في العمارة الصحراوية في منطقة سوف هي نتاج خبرة وتجارب تجمعت بمرور الزمن صقلتها الظروف البيئية والإمكانات المتاحة والمواد المتوفرة ، والإنسان السوفي كان أكثر التصاقا ببيئته وانسجاما مع الطبيعة التي نشأ فيها .

إن عملية بناء المنزل في بلاد سوف عامة لا تتطلب إمكانيات ضخمة أو تجهيزات وكل ما هنالك أن يوفر الشخص صاحب البناء المواد الضرورية جبس وحجارة ويحدد مع جيرانه موعد البناء لتحضر " العَوانة " ¹.

تكون العَوانة عادة من الجيران أو الأقارب وتتراوح ما بين ثلاثة إلى خمسة أفراد من ضمنهم المَعْلَمُ البَنَاء ². في العادة عمال العَوانة لا يتقاضون أجرة باستثناء المَعْلَمُ أحيانا لأنه يمتن حرفة البناء ويكفي صاحب المبنى أو يحضّر غداءا دَسِمًا مع الحليب والتمر في شبه وليمة، يبدأ العمل من فجر ولا ينتهي إلا باكتمال البناء (دار ومقصورتها) ولو بعد الغروب أحيانا ³.

1.2- تقنيات رفع الجدران: الجدار أو الحائط في المنزل يؤدي وظيفتين في آن واحد، فهو الذي يحدد الحيز الداخلي للمنزل أو الحوش كما يستعمل كعنصر حامل للسقف ⁴.

يبدأ المَعْلَمُ البَنَاء في تخطيط موقع البناء بواسطة الخيط وتثبيت القياسات ، ثم تحفر الأساسات لنحو نصف متر على الأرض الصلبة نسبيا وقد يزيد العمق إلى نحو

¹ العَوانة هو مصطلح على نظام العمل الجماعي الذي كان سائدا في منطقة سوف يشبه التوزيع في مناطق أخرى، وبالإضافة إلى عَوانة البناء، هناك العَوانة الموسمية كعَوانة التمر وقت جني المحصول أواخر الخريف و عَوانة تكسير الدخان أواخر الربيع .

² المَعْلَمُ: هو الخبير بعملية البناء و الذي يتمن هذه الحرفة، فهو ضروري في كل عَوانة ويُدعى اليوم الماصو le Ma çon

³ Édouard, Cat, A travers le D ésert, Librairie G édalge, Paris1892, P.179

⁴ نوبي محمد حسن، نظريات العمارة، مطبعة الأوفست الحديثة، مصر 2001، ص.10.

متر في الأرض المُرْمَلة، ثم تبدأ مباشرة عملية رفع البناء بوضع حجارة اللّوس الكبيرة¹ على الأرض مباشرة و ربطها بواسطة الجبس حتى يصل الجدار لعلو متر وتُدفن الأساسات ثم ينتقل المَعْلَمُ للواجهة الأخرى وهكذا حتى ترتفع الجدران الأربع بالتتالي ثم ينتقل إلى مرحلة التسقيف ليكتمل بناء الغرفة . (الصورة 51)

- بعد عملية رفع البناء تأتي عملية التلبيس أي تغطية الجدران بالجبس وتهذيب الحجارة البارزة وملاً التجاويف بينها بالحجارة الصغيرة أو القرشة²

تكون عملية التغطية بالجبس الخشن (الأحرش غير مصفى) و تشمل العملية عادة الجدران الداخلية خاصة لغرفة النوم و الساباط وكذلك الجدران الخارجية للحوش وعادة ما تنتهي عملية التلبيس من الخارج بلمسة فنية من المَعْلَم بما يسمى (التصبيغ) أي ترك آثار الأصابع على الجدران، إما في شكل مستقيمات أو تموجات أو أقواس متراكبة ...إلخ. (الصورة 52)

- في المرحلة الأخيرة تكون عملية الترطيب أو التلبيس بالعامية³ وذلك بغرلة الجبس وتغطية الجدران بطبقة رقيقة وصلقلها يدويًا بالمِصْقَلَة⁴ حتى تُسد كل الشقوق ولا تترك مأوى للحشرات، وتبرز هنا خبرة وشطارة المَعْلَم من حيث سرعة الأنجاز وجودة العمل.

2.2- تقنيات التسقيف:

أ- التسقيف بالقُبَّة:

القُبَّة لغة : من قَبَّ البناء (بتشديد الباء وفتحها) أقام عليه قُبَّةً، والقُبَّة - جمع قِبَاب وقُؤْبَب.

¹ يعتبر اللوس من الحجارة الرملية المركبة التي تتميز بأنها مقاومة للرطوبة شديدة الصلابة لذا يفضل جعلها في الأساسات.

² القرشة مصطلح محلي على فتاة اللوس الكبير بعد تهذيبه وتعتبر عملية التغطية بالجبس والحجارة الصغيرة ضرورية للجدار.

³ التلبيس مصطلح محلي مشتق من كلمة lice الفرنسية أي صقل الحائط وجعله رطباً وعملية التلبيس بالجبس الرطب لم تكن شائعة في سوف إلا عند بعض العائلات الميسورة

⁴ المصقلة اليدوية تعرف علمياً بالمسطرين تستعمل في فرش الملاط (الجبس) على سمك الحائط.

القبة في مصطلحات العمارة هي عنصر إنشائي محدودب أشبه بكرة مشطورة من وسطها، أو بناء دائري المسقط مقعر من الداخل مقبب من الخارج يتألف من دوران قوس على محور عمودي ليصبح نصف كرة تقريبا ، تُستخدم في تغطية المباني¹.

من المعروف أن تغطية المنشآت القديمة بالقباب كان تقليدا شرقيا عرفته العمارة العراقية القديمة بسبب عدم تواجد الأحجار ولضرورة ارتفاع السقوف للتخفيف من وطأة الجو الحار في تلك البلاد ثم عُرفت عند الساسانيين والبيزنطيين والأقباط وكذلك في العمارة الإسلامية² وتعد قبة الصخرة المشرفة التي بنيت ببيت المقدس سنة 72هـ/691-692 م أقدم نموذج للقبة في تاريخ العمارة الإسلامية³ (الصورة 53)، كما تُعد قبة المحراب في جامع عقبة بالقيروان سنة 221هـ/ 836 م النموذج الأقدم في بلاد المغرب⁴. (الصورة 54)

الملاحظ أن أول استخدام للقباب في العمارة الإسلامية كان في المساجد للدلالة على موضع المحراب⁵ ثم أُتخذت على الأضرحة والقبور لدى الشيعة والمُتَصَوِّف⁶ ولقد اختلفت القباب من حيث المواد المستخدمة في إنشائها كالطين والطوب و الحجر أو الخشب المُرَصَّص⁷ وكذلك من حيث التقنية المستعملة والعوامل المؤثرة والطُرُز المعمارية السائدة في مختلف بلاد العالم الإسلامي فمن أشكالها القباب نصف الكروية والمدببة والبيضاوية والبصلية ومنها من حيث مظهر سطحها الخارجي الصماء والمضلعة

¹ عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي القاهرة 2000، ص.222

² يحيى وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مج.2، مكتبة مدبولي القاهرة، ط.1 / 1999 ، ص.79

³ كمال الدين سامح، العمارة في صدر الإسلام، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر القاهرة (د.ت.ط)، ص.11

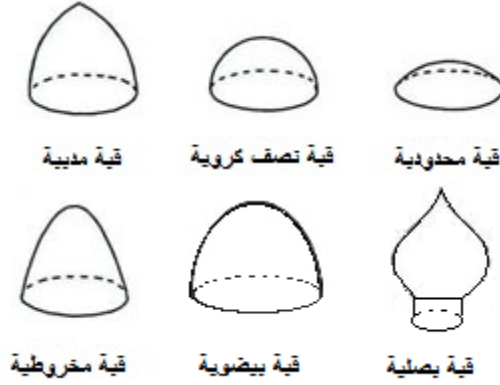
⁴ أحمد فكري، مسجد القيروان، دار العالم العربي القاهرة، ط.1 / 2009، ص.86

⁵ صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية بيروت، (د.ت.ط)، ص.20

⁶ نفسه، ص.23

⁷ عاصم محمد رزق، نفس المرجع، ص.222.

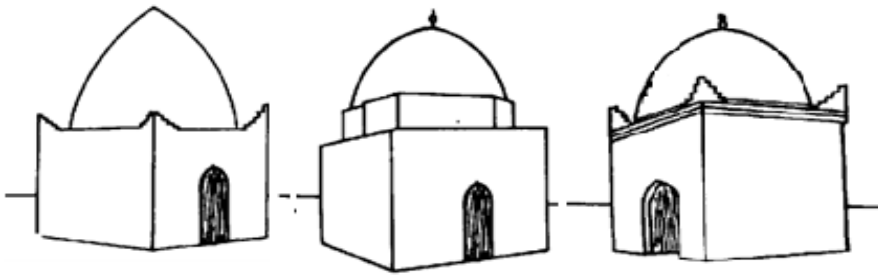
والمخرمة والمشكلة من دورين، بل والمنتھية في أعلاها بمنور ثم قبة صغيرة إلخ..(الصورة 55) (الشكل 43).



(الشكل رقم 43) أشكال القباب في العمارة الإسلامية

المصدر: الموسوعة العربية (القبة في العمارة)

لم تعرف القبة انتشاراً في بلاد المغرب كالمشرق الإسلامي وأكثر أشكالها استعمالاً النصف الكروية أو البيضاوية وسادت أكثر في عمارة المساجد والأضرحة والقبور (الشكل: 44)



(الشكل رقم 44) نماذج لقباب الأضرحة في المغرب الإسلامي

عن: صالح لمعي مصطفى، القباب في العمارة الإسلامية

من كل البلاد المغاربية اتخذت بلاد سوف من التسقيف بالقبة طرازاً لها وشاع استعمالها في كل العمائر فلم تقتصر على المنشآت الدينية فقط بل صارت العنصر الأبرز في عمارة المنازل السوفية .

و من بين أسباب استعمال القباب في منطقة سوف نذكر منها:

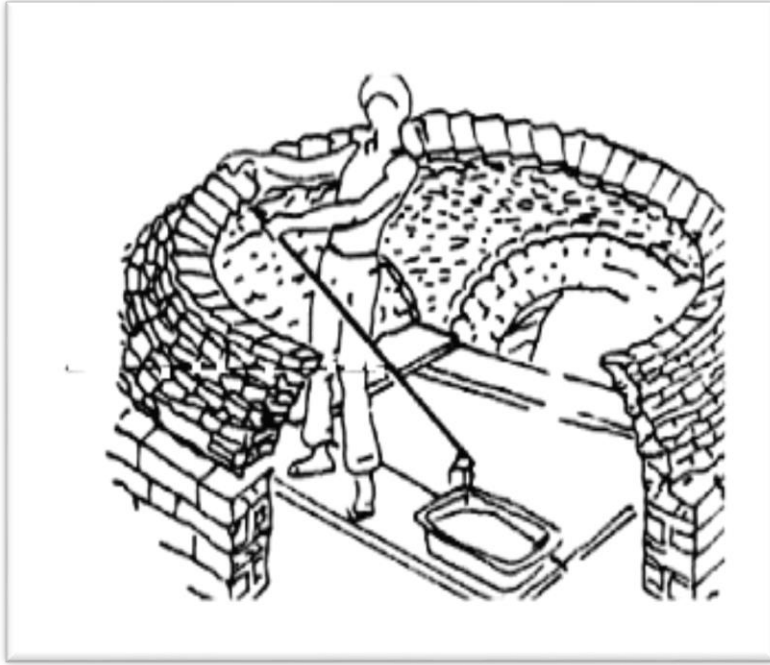
- الضرورة المناخية : إن الشكل المحدودب الدائري يعتبر مقاوم للرياح فلا تؤثر فيه و لا يسمح بتكدس الرمال فوقه ولا بتجمع مياه الأمطار، كما أن أشعة الشمس لا تصلها من كل الجهات ، ومن المتعارف عليه فيزيائياً أن الهواء الساخن في الغرفة عادة ما يرتفع إلى أعلى لذلك تُترك له فتحات صغيرة في محيط القبة لتسمح بخروجه.

- الضرورة التقنية : لقد تميزت القباب المبكرة في سوف ببساطة شكلها وسهولة إنجازها فهي لا تتطلب وسائل أو تقنيات كبيرة وكل ما يلزم هو إقامة الجدران الأربعة (الحاملة) لينجز السقف المحدودب على هيئة القبة، وكان خاصية التصلب السريع للجبس عاملاً حاسماً في البناء و دون الحاجة لأدوات إسناد أو رفع، لذلك نجد القباب القديمة تختلف في شكلها عن القباب الحديثة بأنها ليست نصف كروية تماماً ولا يراعى فيها مرحلة الانتقال من المربع إلى المثلث فالدائري.

- الضرورة المادية : نظراً لانعدام الطين في عموم بلاد سوف لغلبة الرمال على سطحها، فقد مكنت عملية حفر الغيطان وإزالة طبقة الحزام¹ من توفير حجارة (المركبة و الكلسية) اللازمة للبناء دون تكبد عناء وتكاليف جلبها من الجهة الشمالية لسوف مكلفة وذلك ما ساعد على ازدهار عملية البناء بالقبة، وكانت القبة سبباً في عدم انتشار البناء من طابقين في منطقة سوف حتى مطلع القرن العشرين.

¹ كانت عملية حفر غيطان النخيل تستوجب إزالة طبقة الحجارة (الحزام) حتى تتمكن جذور النخيل من التمدد إلى الحوض المائي الموجود أسفل منها، وعندما تتماسك فسيلة النخلة فإنها لا تحتاج لعملية السقي الخارجي ويسمى النخيل الذي ينمو بهذه الطريقة (بالغلي) .

طرق الإنشاء: يتم إنشاء القباب إما على مساقط دائرية أو مربعة، وفي حالة البناء انطلاقاً من القاعدة المربعة يتم الاعتماد على الحنايا الزُكنية أو المثلثات الكروية لتحقيق الانتقال من المربع إلى الدائرة التي تقوم عليها القبة، وعادة ما تزخرف هذه الحنايا في شكل قوقعة محارة أو باستعمال المقرنصات¹، وعند الاستدارة يتم تحديد نقطة مركزية (السرير الذي يقف فوقه البناء) يثبت فيها خيط الذي سيمثل محور استدارة القبة، وبواسطته يُحدد حجمها، فتأخذ جدران القبة بالانحناء تدريجياً كلما ارتفع البناء إلى غاية الالتقاء في مركز القبة وهو أعلى نقطة فيها. (الشكل: 45).



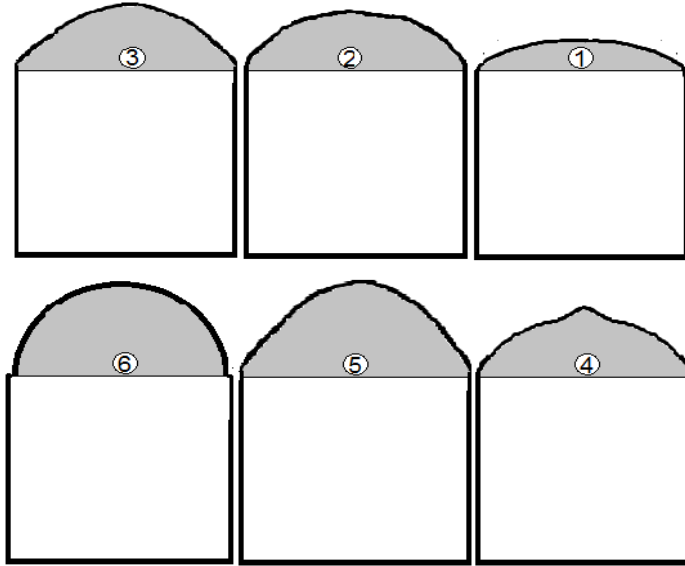
(الشكل رقم 45) طريقة تنفيذ استدارة القبة بالخيط

عن الطالب

¹ المقرنصات: (م.مقرنص) عنصر إنشائي وزخرفي يُعمل بنحت الجص في أشكال ذات نتوءات بارزة تُؤلف حلقات معمارية تتكون من صواعد وهوابط تشبه خلايا النحل تتدلى في طبقات مصفوفة بعضها فوق بعض تجعل في أركان القباب والشُرُفات. أنظر: عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص. 293.

لقد عرفت تقنية التسقيف بالقبة في سوف انتشارا و تطورا، فتتوعد أشكالها بين المفلطحة والمُحدّبة، فالتُّلث كُروية، فالنصف كُروية وصارت كلها سمة عمارة بلاد سُوف حتى أطلقت عليها إيزابيل إبرهارد سنة 1900م مدينة الألف قبة¹. (الشكل: 46) (الصورة: 56)

تأثر المستعمر الفرنسي² بثقافة البناء لدى أهل سوف فأستعمل نفس المواد والتقنيات وساهم في الحفاظ على نمط العمارة المحلية وأدخل عليها تحسينات ومنها القبة التي أخذت شكلها النصف كروي تماما واستعملها في كل منشآت المدنية والعسكرية التي أنشأها في المنطقة (الصورة 57)



(الشكل رقم 46) مراحل تطور القبة السوفية

عن الطالب.

¹ Eberhardt Isabelle. Mes journaliers, Ed. D'Aujourd'hui, Paris 1985, p.88.

² كان أول دخول للاحتلال الفرنسي إلى منطقة سوف عن طريق تقرت سنة 1854م ولكن سرعان ما أنظمت بلاد سوف لمقاومة بن ناصر بن شهرة سنة 1860م ثم محمد بن التومي (بوشوشة) 1870-1874م كما ظهرت حركة تمرد سنة 1881م بسبب فرض الحماية الفرنسية على تونس ما جعل الجيش الاستعماري يقيم أول مركز عسكري له بقريّة الدبيلة سنة 1882م ليكون بمثابة نقطة مراقبة للطريق بين سوف وتونس ولتنشيط وجودهم في منطقة وادي سوف. أنظر: إبراهيم العوامر، الصروف في تاريخ الصحراء Le Commandant CAUVET, «Notes sur le Souf et les Souafa» ,in B.S.G. d'Alger, n° 137 (1934), p65

ب - التسقيف بالدمس:

الدمس كلمة عربية من دمس الظلام أي اشتد و دَمَسْتُ الشيء غَطَيْتُهُ و الدَّمَسُ: ما غُطِيَ¹، و يُعرف في جهات أخرى بالقَبْو (بفتح القاف وسكون الباء) جمع أقباء أي الطاق المعقود بعضه إلى بعض في شكل قوس² وهو عبارة عن سقف نصف إسطواني مُجَوَّف يُشكَّلُ باستخدام العقود بصفة متكررة، يكون القبو غالبا ضخما وثقيل الوزن لذا يحتاج إلى دعم متين يسنده على الجانبين الطويلين، وكثيرا ما استخدم تحت الأرض و يطلق أحيانا تسمية القبو على السرداب .

كان الدمس أو القَبْو معروفا في العمارة القديمة ومنها انتقلت إلى العمارة الإسلامية ولعل أقدم الأمثلة القائمة في الشمال الإفريقي في جامع سوسة الذي يرجع تاريخه إلى سنة 236 هـ / 947م³، ثم شاع استعماله في الجنوب التونسي خاصة في منطقة تطاوين و الدويرات⁴.

ظهر استعمال القَبْو في منطقة سُوف مع نهاية القرن التاسع عشر بشكل خاص في زقاق البراطيل⁵ بحاضرة قمار ثم شاع استعماله في العمارات المدنية في منتصف القرن العشرين، خاصة منذ إدخال عنصر الحديد المعروف محليا بالفيراطي (fer à T) الذي يستخدم في تركيب خطوط السكك الحديدية بدلا من جذوع النخيل وقد استعمل كدعامات أفقية توضع متعامدة على الجدران الحاملة ، فصارت الغرفة الواحدة تسقف بصف من

¹ ابن منظور، المصدر السابق، مجلد 2، ج15، ص 1421.

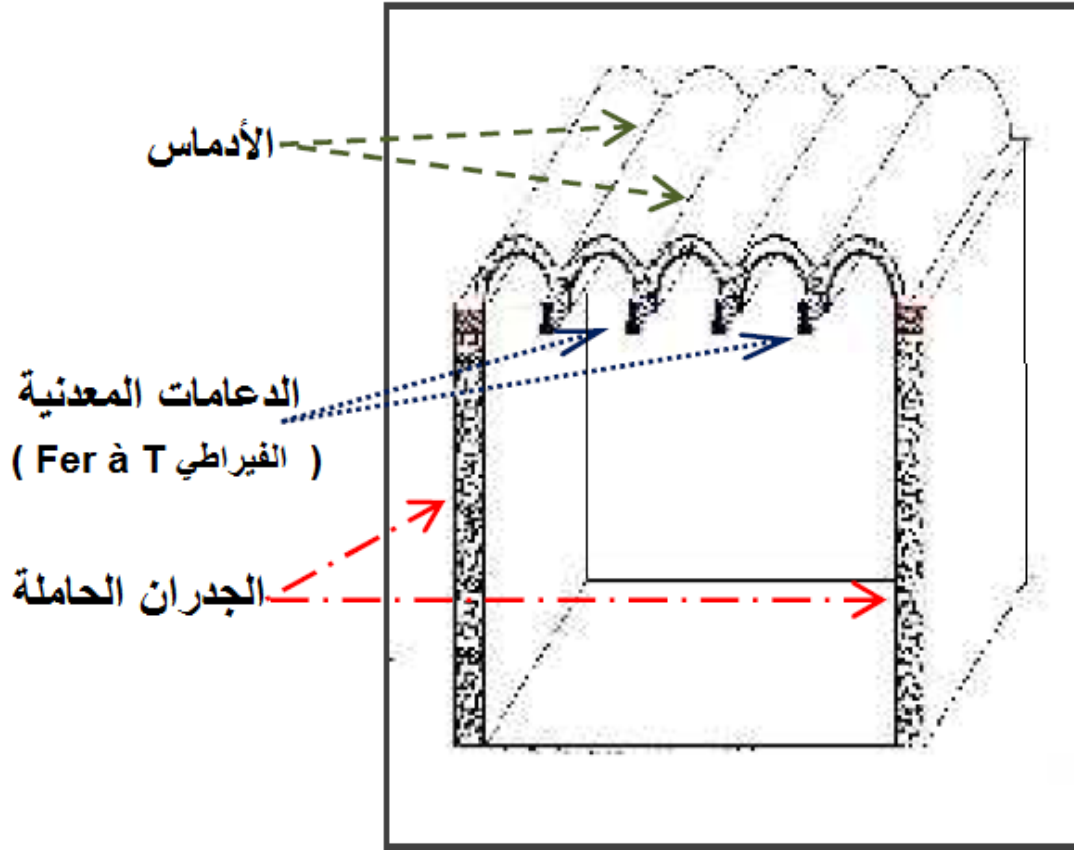
² عاصم محمد رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص. 221.

³ نفسه، ص. 222.

⁴ رقية كيو و رضا الرقيق، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، وزارة التجهيز والإسكان التونسية 2003، ص. 141.

⁵ البراطيل (م. برطال)، البُرْطُلَة كلمة نبطية معناها المظلة الصيفية، والبُرْطُل هو القُلْئُسُوة التي توضع على الرأس. أنظر: ابن منظور، لسان العرب، ص. 260، يبدو أن أصلها لاتيني من Portal بمعنى البوابة الكبيرة. أنظر : Portal في قاموس المعاني.

الأدماس الصغيرة المتوازية تسند إحداها الأخرى تعرف أحيانا بالسقف المعقود. (الشكل 47)



(الشكل رقم 47) تقنية التسقيف بالأدماس المحمولة على القُضبان المعدنية (الفيراطي)

عن الطالب.

وُجِدَ في بعض العماثر حي الأعشاش بحاضرة الواد نماذج للقبو المتقاطع أو المتداخل¹ الذي يشكل في الوسط علامة X ولكن استعماله ظل محدودًا وأقتصر على العماثر المحلات التجارية (الصورة 58)

يتميز الدمس بنفس خصائص القباب من حيث قوة المقاومة و في مواجهة العوامل المناخية كالتقليل من تركيز أشعة الشمس والأمطار كما يمكن بواسطتها أن نُعْطِي مساحة أكبر من القباب الأولى. (الصورة 59)

ج- التسقيف بالسُدَّة (المسطح):

السُدَّة (بتشديد و ضم السين وتشديد الدال) تصنع من جريد النخيل الذي يقطع في مرحلة معينة من السنة لتخفيف الثقل عن النخلة وبعد أن ينزع منه السعف والأشواك و الكرناف تشد السيقان إلى بعضها بواسطة حبال مضفورة من الليف وبعد أن تقص بشكل مستقيم تترك في الماء حتى تأخذ شكلها المستوي ثم تجفف تحت الشمس لتصبح صالحة للاستعمال.

شاع إستعمال السُدَّة في التسقيف في القُصور الصحراوية التي تبنى عادة من طابقين أما في منطقة سوف فالوضع مختلف فالقباب المفلطحة أو نصف الكروية لا تسمح بالبناء فوقها، وما عُرف التسقيف بالسُدَّة إلا مع نهاية القرن الـ19 في الزاوية التيجانية بقمار التي تعتبر أول مَعْلَم في منطقة سوف أنجز من طابقين .

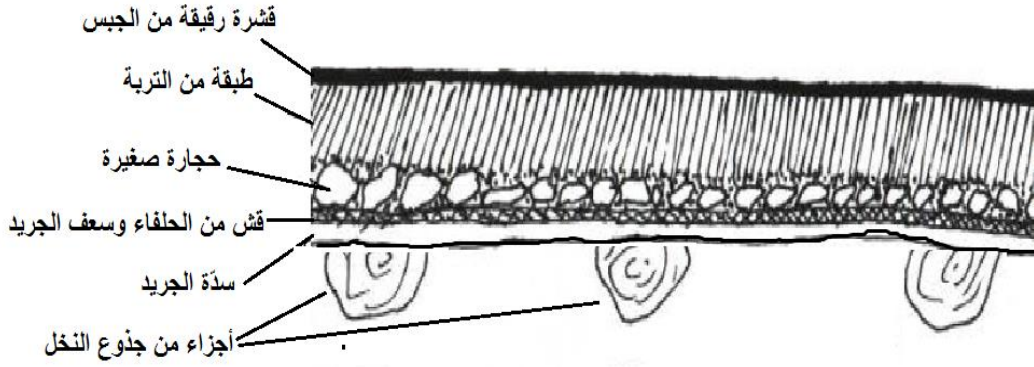
إن طريقة التسقيف بالسُدَّة معقدة نسبيا تتم على ثلاث مراحل كآلاتي:

- توضع جذوع النخيل (المشطورة طوليا إلى نصفين أو أكثر) أفقيا بشكل عرضي وتكون المسافة الفاصلة بينها ثابتة (0.70 إلى 1متر)، ويُراعى أن تكون مستوية تسمح بتوزيع متكافئ لثقل السقف على الحوائط .

¹ يعرف بالقبو المتصالب عند المستشرقين ويستعمل عادة في الكنائس ذات التخطيط الصليبي .

- توضع حصيرة الجريد على الجذوع بشكل أفقي ومتقاطع معها بفرشها على عرض الغرفة فوق حواف الجدران الحاملة ، ثم يوضع فوقها الحلفاء لسد المنافذ والفراغات.

- تفرش طبقة من الحصى¹ ثم يصب فوقها الجبس في حالة شبه سائلة ليتصلب بسرعة في شكل قشرة علوية. (الشكل 48) (الصورة 60)



(الشكل رقم 48) التسقيف المُسطح بالسدة وجذوع النخل

عن الطالب

¹ هناك من يجعل الفضلات الجافة للماعز (البريم) لأنها أخف من الحصى وتساعد في امتصاص الرطوبة .

3.2- تقنيات الدعم:

أ- العقود: العقد أو القوس عنصر إنشائي ومعماري يُشكّل بترتيب خاص من الحجر أو الآجر تسمى الواحدة منها فقرة أو صُنْجة توضع متراصة بجانب بعضها البعض وتتوسطها صُنْجة علوية تُعرف بالمفتاح¹، لتُكوّن قوسًا يستطيع أن يُقاوم الأحمال التي تقع عليه وذلك بموازنة قوى الثقل الناتجة منه والقوة المعاكسة لها.

يُعتقد أن أول ظهور للعقود في حضارة بلاد الرافدين من الآجر، وقد بلغ عرض عقد إيوان كسرى خمس وعشرون مترًا وارتفاعه سبع وثلاثون مترًا².

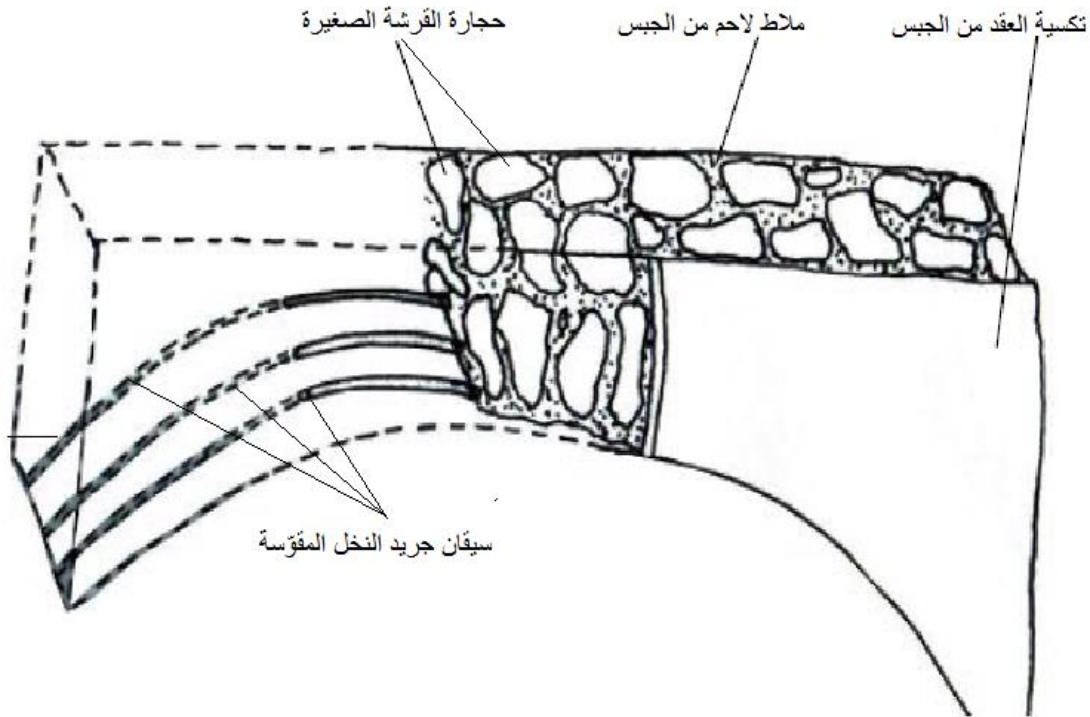
صارت العقود تُمثل سمة العمارة الإسلامية فلا نكاد نجد معلم أو منشأة دينية أو مدنية بلا عُقود، وتتنوع أشكالها واشتهرت منها في المغرب الإسلامي العقود الحدية و المفصصة و المقرنصة.

على غرار المدن الإسلامية لا تخلو عمائر منطقة سوف من العقود سواء في العماير الدينية أو المدنية، فبالإضافة إلى المساجد فلا نكاد نجد حوشًا سُوفيًا بلا سابط ذو أقواس، إلا أن هذه الأقواس تظهر بدائية الشكل، فكثيرًا ما تكون غير مُقوّسة تمامًا ويُستعان في إنجازها بجريد النخل الأخضر منزوع السعف والذي يكون مرئيًا قابل للطي، فتشُدُّ ثلاث جريدات أو أربع لبعضها بشكل متوازي وتُقوّس وتثبت على حافتي الدعامات أو الجدارين الحاملين لتكون بمثابة قالب العقد ويوضع فوقها الجبس وتصفى الحجارة المفلطحة صغيرة الحجم فوقه وبنسق منظم لتتصلب سريعًا، ثم يُنزع قالب الجريد وتبقى آثاره واضحة في البناء وهكذا يتم تشكيل العقد وخلال الفترة الاستعمارية ازدادت الحاجة للبناء بالعقود فطورت أساليب وتقنية إنجازها باستعمال قوالب خشبية و معدنية، فصارت العقود نصف دائرية تمامًا أو حُدوية مُتجاوزة كما في زقاق البراطيل في قمار أو في أزقة

¹ عاصم محمد رزق، نفس المرجع، ص.190.

² نفسه، ص.190.

حي الأعشاش أو حدوية منكسرة كما هو الحال في عمارة الزاوية التيجانية. (الشكل 49)
(الصورة 61)



(الشكل رقم 49) تقنية إنجاز العقود بجريد النخل

عن الطالب

ب- الدعامات والأعمدة: تعتبر الدعامات و الأعمدة من أهم العناصر المعمارية الإنشائية بالمباني تستعمل في المباني الكبيرة ذات الأسقف والجدران العالية كالقصور و المساجد.

كانت البدايات الأولى لاستعمال الدعامات في المساجد من جذوع النخل لتحمل السقف الذي هو أيضا من جريد النخل ثم استعملت الدعامات الحجارة والجبس.

باستثناء المنشآت الدينية فإن العمارة المدنية بسوف خاصة الحوش كانت تقتصر إلى وسائل دعم واضحة نظرا لبساطة البناء، فالحائط ينجز ابتداءً من وجه الأرض مباشرة بعد أن يحفر له بقدر (20 أو 30 سم)، وقد يستعان أحيانا إذا كان الحائط طويل عرضيا بإقامة دعامة إسناد في شكل تقاطعي مع الحائط على هيئة حرف T . كما استعملت أجزاء من جذوع النخل أفقيا لدعم جدارين داخل الغرف الواحدة أو كأكتاف فوق المداخل والأبواب.

و في العهد الاستعماري و في الفترات المتأخرة بعد الاستقلال شاع استعمال الدعامات الحديدية (الفيراطي fer à T) التي توضع أفقيا عند انجاز الأدماس بدلا عن جذوع النخل في التسقيف المسطح.

وقد اشتملت بعض عمائر الزاوية التيجانية بقمار على دعامات مربعة ومضلعة تحمل بوائك الأروقة المحيطة بالصحن.

أما في المنشآت الدينية الأخرى خاصة المساجد فقد استعملت الأعمدة إسطوانية الشكل والمصنوعة بالجبس والحجارة المحلية بمختلف الأحجام حسب وظيفتها وأضخمها التي في جامع سيدي المسعود (الجامع العتيق بالوادي) ولكن الأعمدة في العمارة السوفية ليس لها قواعد أو تيجان فهي أشبه بدعامات أسطوانية. (الصورة 62)

4.2 - التهوية والإنارة:

أ- الأبواب: تؤدي الأبواب عادة في العمائر والمنشآت الوظيفة الأمنية كما قد تمثل غرضاً تزييناً جمالياً لذلك تنوعت أشكالها وأحجامها، فهناك أبواب مداخل المدن والمباني الكبيرة والتي تعرف بالبوابات والتي عادة ما تكون مشكلة من دفتين و مصفحة و قوية لها وسائل دعم تسندها ما يصعب على المعتدين و الأجانب اقتحامها أو تجاوزها، بينما تُجعل للدور والمنازل أبواب أقل حجماً تختلف في شكلها ونوعيتها حسب الحالة الاجتماعية للعائلات.

أما في سوف نظراً لضيق العيش وضعف الحالة المادية لأغلب العائلات و كذلك نظراً لحالة الأمن التي كانت سائدة قبل العهد الاستعماري فإن استعمال الأبواب ظل مقتصرًا على المدخل الرئيسي للحوش، أما الغرف المشرفة على وسط الحوش خاصة غير الرئيسية تحجب بستار منسوج من الصوف.

كانت الأبواب تُصنع في العادة من جذوع النخل و تشد بألواح خشبية و حبال الليف، وتكون عادة قليلة الارتفاع حوالي 1.5م، تثبت في الجدار بواسطة قاعدة خشبية تجعل أيضاً من جذع النخلة، وتوصد بواسطة مزلاج خشبي .

إثر تزايد حركة المبادلات التجارية مع الأقاليم المجاورة وتحسن الوضع المعيشي لأهالي المنطقة، صارت الألواح والأبواب الجاهزة تُجلب من بلاد الجريد في الجنوب التونسي وتتميز بكونها أكثر ارتفاعاً و تتكون من دفة كبرى تتوسطها دفة صغرى، و كثيراً منها كانت مكسوة بقشرة معدنية من النحاس أو القصدير ومرصعة بدبابيس في شكل زخرفي معين وقد تتوسطها مطرقة معدنية كما جعلت لها أقفال معدنية تعرف محلياً بالقفل السفاقصي¹. (الصورة 63)

¹ نسبة إلى مدينة سفاقص بالجنوب التونسي .

ما يلاحظ على الأبواب المجلوبة من تونس أنها كثيرا ما كانت تزين بالنجمة السداسية و ذلك إشارة إلى تحكم اليهود في حرف وصنائع تلك البلاد. (الصورة 64)

ب- النوافذ: تستعمل النوافذ في العماائر لغرض الإضاءة والتهوية وقد تزود بشبابيك معدنية للضرورات الأمنية والجمالية ، لذا كان إستعمالها في منطقة سوف محدودا وظل لفترة طويلة مقتصرًا على العماائر الدينية ، لقلة الحاجة إليها فوسط الحوش يوفر الضوء والهواء الكافيين على خلاف بعض القصور الصحراوية التي عادة ما تكون مسقوفة كلية، كما أن الدين والعادات تحرم فتح النوافذ على الشارع ، كذلك خوفا من الرياح التي عادة تحمل الغبار، لذلك فإن ما وجد منها غالبا ما يكون غرضه جمالي أكثر منه معماري على شكل مثلث أو كوة دائرية صغيرة لا تسمح حتى بدخول حيوان بحجم القط ، وفي فترة متأخرة شاع استعمال نوافذ صغيرة لا تتعدى أطوالها (0.50×0.20 م) قابلة للغلق.

بينما في المساجد العتيقة فكان استعمال النوافذ محدودا عادة ما تفتح في الحائط الخلفي لبيت الصلاة أو في حائط القبلة بمستوى مرتفع قصد التهوية ولكن مع نهاية القرن الـ19م (الصورة 65)

ثانيا: فن الزخرفة و تقنياته.

1. ظهور فن الزخرفة و انتشاره :

الزخرفة في اللغة من فعل زخرف أي زينته ونمّقه، وزخرف القول أي حسّنه بالكذب. أما التعريف الاصطلاحي فالزخرفة هي النقوش التي يُجَمَّلُ بها البناء سواء كانت من الجص أو الحجر أو الخشب أو الرخام أو غيره¹

يعتبر فن الزخرفة للعمارة بمثابة الروح للجسد، وما هو في الحقيقة إلا صورة واقعية جُرِدَتْ من طبيعتها الأصلية وحوّرت وصُممت في شكل وحدات و لوحات فنية بديعة، فقد نهى الرسول μ عن التشبيه أو مضاهاة الله في مقداره على التصوير ، لذا حُبب الإسلام إلى الفنانين الزخارف النباتية والهندسية ففي حديث لأبن عباس رضي الله عنهما إذ أتاه رجلٌ فقال: يا أبا عَبَّاسٍ، إِنِّي إِنْسَانٌ إِنَّمَا مَعِيشَتِي مِنْ صَنَعَةِ يَدَيَّ، وَإِنِّي أَصْنَعُ هَذِهِ النَّصَاوِيرَ، فقال ابنُ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فَإِنَّ اللَّهَ مُعَذِّبُهُ حَتَّى يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ فِيهَا أَبَدًا ». فَرَبَا الرَّجُلُ رُبُوءَ شَدِيدَةٍ وَاصْفَرَ وَجْهُهُ، فَقَالَ: وَيْحَكَ! إِنِّ أَبْنَيْتُ إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ، فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ، كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ.² ونظرا لهذا التوجيه فقد وظف الفنان المسلم فن الزخرفة في معظم المجالات، فزُخِرَتْ به الجدران، والمنابر، والأثاث، وغيرها، فكانت العمارة الإسلامية منذ نشأتها غنية بزخارفها ما جعلها تتميز بالحيوية رغم بساطتها أحيانا، وتتنوع العناصر الزخرفية بين الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية واعتمدت في إبراز ذلك على عمليتي الرسم والنحت والتشكيل ما لم يتجاوز ذلك حدود المحظور الشرعي وعدم محاكاة الواقع ما قد يُفسَّرُ مشاركة الله في ألوهيته³، فاتجه الفنان المسلم نحو التجريد فتفوق فيه وأستطاع أن

¹ عاصم محمد رزق، المرجع السابق، ص.130

² الإمام البخاري، صحيح البخاري، دار بن كثير للطباعة والنشر دمشق، ط.1، 2002، ص.530.

³ أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي، أصوله فلسفته مدارسه، ط2، مطابع دار المعارف مصر 1974، ص.83.

يجعل من خسيس الأشياء مصنوعات ذات قيمة، وصار فن الزخرفة من أهم الفنون الإسلامية و أرقاها حتى أصبح ينسب إليها.

أما في منطقة سوف فقد جاءت عمائرها الأولى خالية من أبسط مظاهر الرفاهية، ولم تكن الزخرفة معروفة وكانت تسود بين عامة الناس مقولة " المنزل قبر الدنيا " تعبيراً عن الزهد فيها لذلك كانت منازلهم خالية من المظاهر الجمالية و حتى الجدران الداخلية كثيراً ما تكون غير مكسية وحجارة اللّوس رؤوسها بارزة و لا يمكن حتى الاتكاء عليها.

و يمكن تفسير قلة الزخرفة في مساكن أهل سوف لسببين هما:

- الميل الفطري لدى السكان لحياة التقشف والبساطة وخشونة العيش فهم أقرب للبداوة منها لحياة التحضر.

- قلة المال وحالة الفقر اللتان كانتا تميزان الغالبية العظمى من السكان، فَجُلُّهم يعيشون على الكفاف ويمارسون زراعة مَعَاشية و ينتظرون محصول التمر في الخريف لعلمهم يجنون بعض الأموال من تجارته حيث يقول بن خلدون: " إنما اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القُوت و الكِنّ والدِّفء إنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بُلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك"¹.

ومنذ نهاية القرن 13هـ / 19م أخذت فكرة زخرفة المباني خاصة العماير الدينية تلقى قبولا لدى العامة من الناس وكان أول ظهورها في الزاوية التيجانية بقمار التي استقدمت نقّاشا من المغرب الأقصى لهذا الغرض وانتقلت هذه الصنعة إلى أهل المنطقة وصار من النادر أن تجد مسجدا أو زاوية بدون زخرفة تحيط المحراب أو تزين قبة بيت الصلاة.

أما زخرفة العماير المدنية فظلت منعدمة للأسباب سابقة الذكر حتى أيامنا هذه حيث شاعت فكرة تنميق المنازل الحديثة ولقيت حرفة الزخرفة رواجاً لدى الجيل الجديد من الشباب.

¹ عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، ص.150.

2. مواد وتقنيات الزخرفة:

تكاد تقتصر المواد المستعملة في الزخرفة بمنطقة سوف على ثلاث عناصر هم: الجبس، الخشب والمعادن (الحديد والنحاس)

1.2. الزخرفة بالجبس المحلي أو الجص :

يرجع الأصل الأول للاستخدامات الجصية في تغطية الجدران لإخفاء خشونة مادة البناء وصلابتها وإضفاء مظهر جمالي عليها¹.

يُعدُّ الجبس أو الجص من أكثر المواد استعمالاً في الزخرفة خلال سيادة الحضارة الإسلامية في مختلف مراحلها، فكان استعماله منتشراً بالشرق منذ العهود المبكرة للإسلام ومن الأدلة على ذلك القصر الأموي خربة المفجر في بادية الشام و سامراء العباسية، ومسجد ابن طولون وغيره، كما عرف بالمغرب الإسلامي منذ عهد مبكر وأقدم النماذج اللوحات الجصية المحفوظة بمتحف الآثار القديمة والفن الإسلامي بالجزائر والتي استخرجت من منطقة سدراته² غرب وارجلان والتي تعود إلى القرن 4 هـ/10م وربما يكمن السر في كثرة استعماله إلى سهولة تشكيل هذه المادة و النقش عليها، وقد أشار ابن خلدون إلى استعمالها و تقنية زخرفتها بقوله: "... ومن صناعة البناء ما يرجع إلى التتميق و التزيين ، كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال المجسمة من جص يُخَمَّرُ بالماء ثم يُزَجَّعُ جسدا وفيه بقية البَلَل فيشكل على التناسب تخريما بمثابة الحديد إلى أن يبقى له رَوْنَق ورَّواء..."³

¹ رزقي نبيلة، الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس (ق.7-8/13-14م)، رسالة دكتوراه في علم الآثار والمحيط، جامعة تلمسان 2014-2015، ص.9

² أسسها الإباضيون بعد إنهيار الدولة الرستمية في سدراته أو أسدراتن بالأمازيغية هي مدينة جنوب غرب وارجلان بنحو 14 كم تاهرت على يد العبيديين الشيعة سنة 296 هـ/ 909م ويجهل لحد الآن أسباب هجرة الإباضيين لها إلى وادي ميزاب . أنظر: Marguerite van Berchem, La découverte de S édrata dans la Nouvelle Clio, 3me année N. 9 - 10. Bruxelles 1951, pp. 389, 396

³ ابن خلدون ، عبد الرحمان ، المقدمة ، ص 512

يُعد الجبس المادة الأكثر توفراً و استعمالاً في منطقة سوف، فبالإضافة إلى استخدامه كمادة لاحمة و في تكسية الجدران، فقد صار الجبس المادة المفضلة لدى البنائين لإظهار براعتهم ومواهبهم الفنية من خلال استخدامه في عملية النقش.

كان أول من أدخل فن النقش على الجبس إلى منطقة سوف هو الفنان والبناء المغربي الأصل السيد أحمد بن الطاهر بن بالقاسم التّجاني¹ حين أستخدمه مشايخ الزاوية التّيجانية بقمار في نهاية القرن الـ13هـ/19م لزخرفة عمائرهما، وهو من زيّن القبة الكبرى لمسجد الزاوية والمقر الاجتماعي، كما قام بزخرفة المسجد الشرقي ومدخل باب الجنان ومُركّب القاعة الهرمية، وقد أخذ عنه عُمَرُ ثاقبه القُمّاري هذا الفن، فأبدع فيه وأجاد حتى صار نقّاش الزاوية الأول بل في عموم سوف²، وأستطاع أن يُورث هذه الموهبة لولده التّجاني ثاقبه و عنهما أخذ جيل من البنائين الشباب هذه الحرفة وذاع صيتهم في كل سوف وصارت لهم شهرة وطنية وعالمية.

ظل فن النقش على الجبس مقتصرًا لفترة طويلة على عمائر الزاوية التّيجانية ثم أخذ يعرف طريقه نحو العمائر الدينية الأخرى خلال القرن العشرين، وصارت تُوطّرُ به قوس كُوّة المحراب في المساجد، كما زُيّنت به أبدان المآذن بعد أن زيدَ في ارتفاعها، بينما لم تعرف العمائر المدنية ظاهرة النقش باستثناء بعض العائلات الميسورة.

¹ تذكر مصادر الزاوية أنه مغربي الأصل رافق الشيخ سيدي أحمد التّجاني مؤسس الطريقة عند عودته من فاس إلى عين ماضي سنة 1224هـ حيث أقام هناك ونسب نفسه للزاوية وظلّ خادماً لها .

² عمر بن ثاقبة القُمّاري لمُعلم الأول في منطقة سوف، كان مولى الزاوية التّيجانية بقمار ثم بنّاءها أستخدمي عمر قاعة في سنة 1912م من قبل السلطات الاستعمارية للمشاركة في نقش البريد المركزي بالعاصمة وكذلك قبة قصر الشعب، مُنح ميدالية الشرف (Medaille D'Honneur) باسم الجمهورية الفرنسية في 31/08/1919 وعُيّن عُضوا في أكاديمية البناء والفنون الجميلة بباريس بتاريخ 12/02/1920.

لقد أزدھر فن النّش في سوف بسبب توفر مادته الأولى و رواج صناعة الجبس كما أنه يتميز بسهولة التشكيل، وتتم العملية وفق الخطوات التالية:

1. تتم تهيئة الجدار أو الموضع المراد زخرفته بضبط المساحة و تسويتها.
 2. يُوضع الجبس في الماء بنسب متكافئة (كمية الجبس = كمية الماء) و يُخلطان معا لمدة معينة لدرجة تشبع جزيئات الجبس بالرطوبة حتى يبدأ بالتماسك ويفقد خاصية السيولة.¹
 3. يُلصق الجبس في شكل طبقة بسمك 15 سم تقريبا على المساحة المراد زخرفتها ويُصقل بمهارة.
 4. يُوضع ورق مُحَرَّم (القالب) يشتمل على الزخرفة المراد تشكيلها على الجدار.
 5. تُضرب الثقوب المخرمة للورق الملصق بالجدار بواسطة كتلة من القماش الشفاف التي ملأت بالفحم المدقوق حتى تترك آثار السواد على التخريم وعند نزع الورق تكون معالم الرسم المراد تشكيله ظاهرة. (الصورة 66)
 6. تبدأ عملية النّش التي يُراعى فيها درجة عمق الأرضية و باستعمال أدوات معدنية حادة أو دقيقة أو ذات رؤوس متعددة.
 7. يكون النّش ابتداءً من مركز الرسم إذا كان في السقف، ومن الأعلى إلى الأسفل إذا كان بعرض الجدار.
 8. عند الانتهاء من نحت كل جزء يجب أن ينظف من مخلفات الجبس حتى تكون الخُزوز ظاهرة وتُترك لتجف فترة لتأتي مرحلة التلوين.
- نجد أن أغلب الزخارف الموجودة بمنطقة سوف نفذت بأسلوب الحفر الغائر لأنه يُعد أسهل في التنفيذ والتلوين، ومن أمثلتها النوافذ الجصية المخرمة لمسجد سيد العروسي بالزاوية التيجانية بقمار.

¹ إن عملية الخلط بهذه الطريقة تهدف لتخمير الجبس فلا يتصلب بسرعة وهو ما يعرف بالجبس الميت ما يساعد النقاش على تنفيذ عمله بتأني وإتقان وعلى مساحة واسعة.

2.2. الزخرفة بالألوان: كانت تنتفz بالألوان الطبيعية التي كانت تجلب في شكل مساحيق من تونس ومن المغرب الأقصى وتخلط بالماء ، ويذكر بعض أهل هذه الحرفة القدماء أنها كانت تخطط بعصير النخيل المعروف باللاقمي¹ لأنه غني بالسكر ما يساعد على سطوع الألوان ويطيل في عمرها، وأكثر الألوان استعمالا في منطقة سوف خاصة بعمائر الزاوية التيجانية هي الأزرق، الأصفر، والأخضر.

أقدم النماذج للزخرفة بالألوان وأغزرها في سوف موجودة بالزاوية التيجانية بقمار خاصة في مسجد الزاوية وفي القبة الهرمية وفي بهو الاستقبال بدار السادة. (الصورة 67)

كذلك في جامع سوق الوادي نجد زخارف نباتية بالألوان الزيتية كما زينت حنايا القبة بزخارف هندسية بالألوان وسط أقواس صماء.

3.2. الزخرفة بالخشب: باستثناء خشب النخيل لم يكن خشب الأشجار الأخرى متوفرا في منطقة سوف، إلا بعد أن ازدهرت علاقات سوف التجارية مع المناطق المجاورة وتحسنت ظروف المعيشة وصار ممكنا جلب بعض الأدوات الخشبية الجاهزة من بلاد الجريد خاصة الأبواب أو الصناديق الخشبية أو بعض المنابر التي مازالت موجودة في بعض المساجد العتيقة. من أمثلتها نافذة في مسجد الزاوية التيجانية بقمار أنجزت زخرفتها بطريقة التجميع مشكلة النجوم ثمانية الرؤوس. (الصورة 68)

4.2. الزخرفة بالمعادن: أُستعين في العمارة السوفية ببعض المصنوعات من المعادن خاصة النحاس و الحديد التي غالبا ما كانت تُجلب من البلاد التونسية ثم صارت تصنع محليا، فقد أستمعمل المعدن في تشبيكات النوافذ وكذلك الأبواب الخشبية الكبيرة التي كانت تُكسى بصفيحة معدنية من النحاس أو القصدير و تثبت بمسامير أو دبابيس كبيرة في

¹ اللاقمي : هو سائل ذو لون رمادي مائل للبياض حلو المذاق يستخرج من قلب النخلة الخضراء بعد تجميرها (أي أنتزاع جُمَارتها) حيث يظل النصب يسيل لعدة أيام، ويُجمع يوميا ويُشرب بارداً، وقد يُخَمَّر فيصير مُسْكُرا.

أشكال هندسية مختلفة كما تزين الأبواب بمطرقة أو اثنتان من أجمل نماذجها البوابة الرئيسية للزاوية التيجانية التي جددت على شاكلة البوابة القديمة (الصورة 69).

3. المواضيع الزخرفية (نماذج):

يعرف فن الزخرفة الإسلامية بالرقش العربي الذي يتكون من شكلين .. الأول هندسي ويطلق عليه تسمية (الخيط) وينطلق من المثلث أو المربع، وشكل آخر يسمى (الرمي) وهو مستوحى من النباتات وعروقها وفيه تظهر جليلة عفوية وإبداع الفنان، وتتشترك رموز العناصر الزخرفية بالعناصر الطبيعية كالأزهار والنباتات والأوراق.

و كما سبقت الإشارة إليه لم تكن زخرفة المباني شائعة في منطقة وادي سوف و اقتصرت على العماير الدينية كالزوايا والمساجد أو بعض واجهات منازل أثرياء المنطقة، ولقد حظيت الزاوية التيجانية بقمار بنصيب وافر من تلك الزخارف التي تنوعت موضوعاتها ومنها :

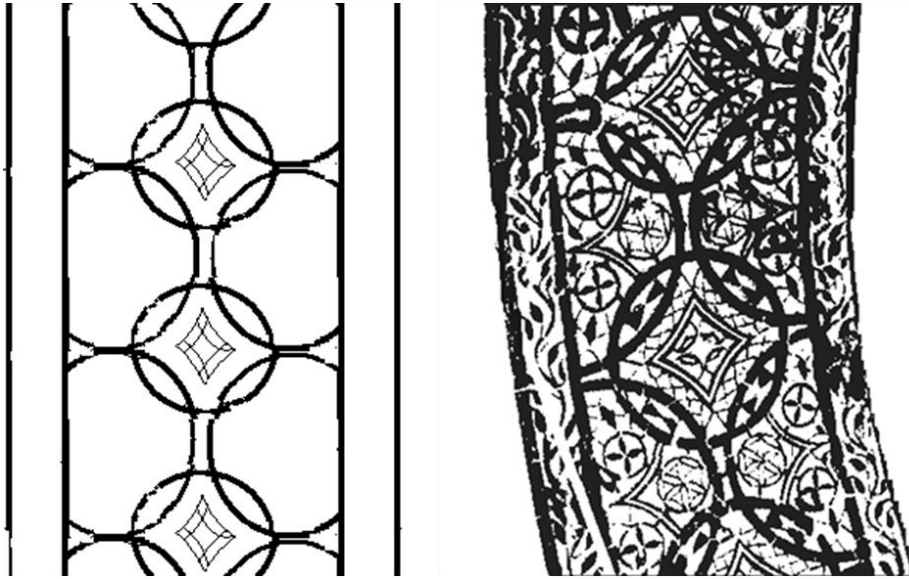
1.3. الزخرفة الهندسية:

تعتبر الزخرفة الهندسية عنصراً أساسياً من عناصر الزخرفة الإسلامية، ولا شك أن اهتمام الفنان المسلم بالزخارف الهندسية مرده لسببين هما: نزوعه الفطري نحو التجريد حتى لا يتجاوز المحظور الشرعي، والتوجيه الذي تفرضه المادة الخام والأداة أثناء عملية التشكيل، لتأخذ هذه الزخارف الهندسية في ظل الحضارة الإسلامية أهمية خاصة و شخصية فريدة لا نظير لها في أي حضارة من الحضارات السابقة، فأصبحت في كثير من الأحيان العنصر الأساسي الذي يغطي مساحات كبيرة، فكان همُّ الفنان المسلم وشُغْلُه الشاغل البحث عن تكوين جديد مبتكر يتولد من اشتباكات قواطع الزوايا، أو مزاجية الأشكال الهندسية لتحقيق مزيد من الجمال، وتنتقل للرأي إحساس بالسكون والهدوء وأحياناً أخرى إحساس بالحركة نتيجة استعمال الخامات المختلفة الألوان وتبادل الظل والنور على الأجزاء الغائرة أو البارزة في الزخارف .

تتمثل العناصر الهندسية من الخطوط بأنواعها المختلفة المستقيمة والمنكسرة والمنحنية والمظفرة، كما تتكون من الأشكال المساحية كالمربع والمستطيل والمعين والمثلث والدائرة ومن الأشكال المضلعة كالأشكال السداسية والمثمنة والمتعددة الأضلاع والأطباق النجمية¹.

ومن نماذجها في مختلف العماائر الدينية بمنطقة سوف ما يلي:

-الدوائر: منها دوائر من حلقتين كبيرة وصغيرة متداخلة في شكل سلسلة مزدوجة التركيب وكأنها شريط تحلي أعلى الدمس في مرافق القبة الهرمية وكذلك في حنايا قبة المحراب في مسجد الزاوية. و دوائر أخرى كبيرة تغطي باطن العقد في مدخل الجنان بحيث جعلت كل أربع منها مربوطة بواحدة أصغر يتوسطها مُعَيّن، ودوائر كبيرة ذات خط مزدوج متقاطعة ثنائيا و كل نقطة تقاطع تجمعهما دائرة أصغر (الشكل 50) (الصورة 70).

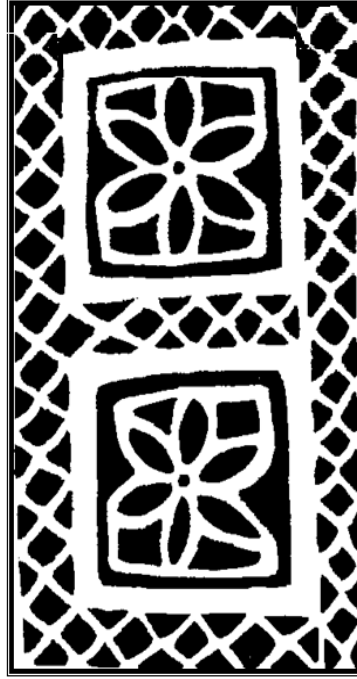


(الشكل رقم 50) زخرفة بالدوائر المتداخلة لباطن عقد (زاوية قمار)

عن الطالب

¹ عبد العزيز لعرج، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، منشورات عويدات بيروت 1990، ص. 255

-المربعات : أبرزها مربعات صغيرة تتوسطها زهرة من ست وريقات طويلة، وتحيط بتلك المربعات شبكة من المعينات مؤطرة بعقود تغطي جدران القبة الهرمية وكذلك الأقواس التي تكتنف الحنايا أسفل القبة في المسجد . (الشكل 51)



(الشكل رقم 51) زخرفة جصية لزهرة وسط مربع.

عن الطالب

- معينات تتوسط الدوائر وتكون عادة مقوسة الأضلاع، وكثيرا ما شكلت منها نجميات سداسية أو ثمانية.

- زخرفة في شكل إفريز نجدها أسفل قبة جامع سوق مدينة الوادي مؤلف من تشبيكات هندسية يحيط أسفل دائرة القبة محوره نجمة ثمانية الرؤوس تتفرع منها مستطيلات معينات ويؤطر الشريط من الأعلى بمثلثات زخرفيه. (الصورة 71)

- النجمة السداسية: تعتبر من أبرز العناصر الزخرفية الهندسية، سواء ضمن التشبيكات الهندسية الجصية أو بالألوان، كما وردت في شكل مزوجة بين الزخرفة الهندسية والكتابية في عمائر الزاوية التيجانية. (الصورة 72)

- الطبقة النجمية: من أخص الموضوعات الزخرفية الهندسية التي امتازت بها الفنون الإسلامية وأصبحت ميزة من مميزاته الأطباق المتعددة الأضلاع والمجموعة في هيئة نجوم وكانت بدايتها في الفنون الإسلامية على محراب مشهد السيدة رقية بالقاهرة ق. 6هـ ثم شاع استعمالها في كل العالم الإسلامي. (الصورة 73)

يتألف الطبقة النجمية من ثلاثة أجزاء رئيسية وهي الترس، ويمثل النجمة المركزية التي تحتل مكان البؤرة أو الشكل المسنن الذي يُطلق عليها أهل الصنعة "ترس" والجزء الثاني يمثل اللوزة وهي ذات أربع أضلاع وترتب بشكل إشعاعي حول النجمة المركزية أو الشكل المسنن "الترس"، وينتج من محيط ذلك هيئة دائرية، أما الجزء الثالث فيطلق عليه أهل الصنعة "الكندة" وهي عبارة عن حشوة ذات ستة أضلاع، وهذه الحشوة السداسية الأضلاع ليست متساوية الأضلاع والزوايا، وتوزع هذه الكندات بعدد يتطابق مع عدد اللوزات في توزيع إشعاعي مستمد من الشكل المسنن الهندسي يعطي هيئة دائرية. وينتج عن هذا التكوين الهندسي طبق نجمي متكامل.¹

ومن أجمل نماذجها، نجد زخرفة جصية غائرة في هيئة طبق نجمي تغطي الدّمس في سقف باب الجنان بالزاوية التيجانية وقد أضفى عليها تغير لون الجبس من الأبيض إلى الاحمرار رونقا، كما نجد نموذجا يشبه الطبقة النجمية يبدأ بنجمة متعددة الرؤوس ثم تتفرع منها رؤوس في شكل نصال سهام تليها معينات وينتهي الشكل في الخارج بشبه براعم وريقات (الصورة 74)

¹ محمد عاصم رزق، معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، ص. 180

2.3. الزخرفة النباتية:

الزخرفة النباتية هي الزخرفة التي تعتمد في تكوين مفرداتها على العناصر الطبيعية، وهي فن من الفنون التشكيلية تعتمد على مختلف أنواع النباتات والأزهار والأوراق. تميزت شخصية الفنان المسلم بالميل إلى التحوير والتجريد والبعد عن الطبيعة فابتكر أشكالاً نباتية مختلفة ذات أغصان وسيقان ملتوية تكاد تبدو وكأنها مستمرة في النمو معتمداً في ذلك على أساليب متعددة من أفراد ومزاوجة وتقابل وتداخل...حتى أبتكر فناً زُخرفياً جديداً أصطلح عليه " الزخرفة العربية أو الأرابسك " كما عُرف بفن التوريق العربي.

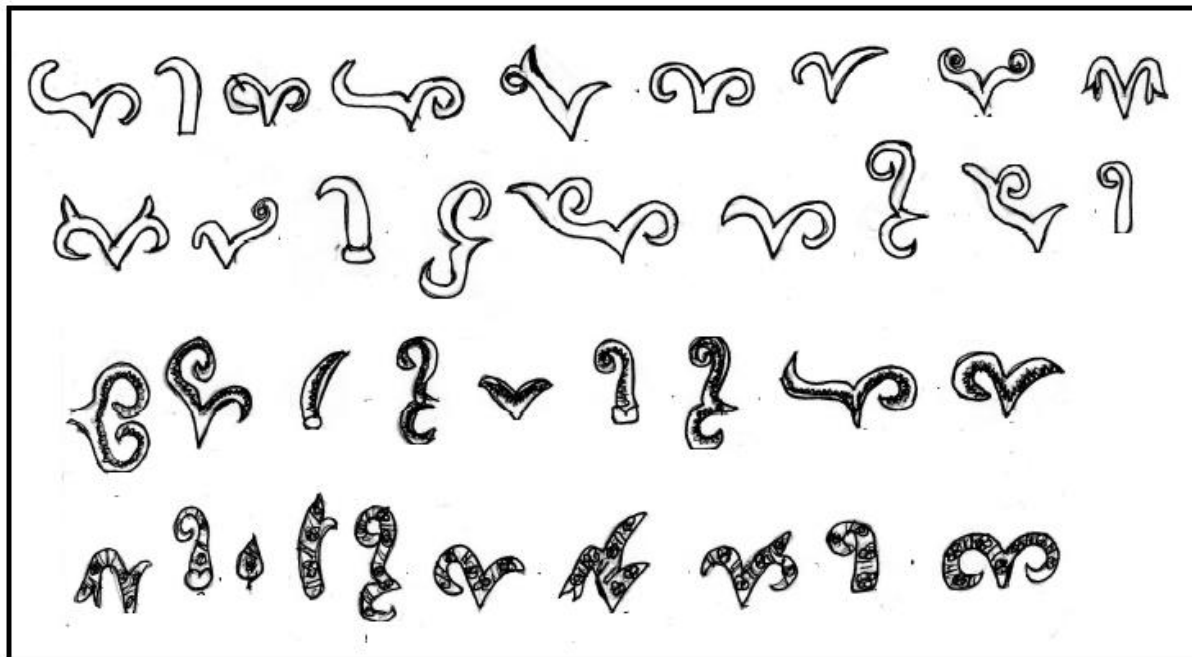
تتشكل زخرفة الأرابسك من لفيفة من عناصر متكررة وتبادلية من الزهور وأوراق النباتات وجذوع منحنية تتصل بوحدة أساسية في تموج إيقاعي و بشكل تناظري متناوب متشابك ومتكرر بصورة منتظمة¹.

توسع استخدام الأرابسك لتزيين النقوش و ملأ الفراغات و انتشر استعماله في مجالات مختلفة، في تزيين الجدران و القباب، وفي التحف المختلفة نحاسية وزجاجية وخزفية وفي تزيين صفحات الكتب و تجليدها، وعرف تطوراً بدمجه مع الكتابة بظهور الخط الكوفي المزهر والمورق ثم جُعل كخلفية وراء الكتابة².

ومن أكثر العناصر النباتية حضوراً في الأرابسك المراوح النخيلية المَحَوَّرة التي شاع استعمالها شرقاً وغرباً (الشكل 52)

¹ شيلا ر.كانبي، الفن الإسلامي، تر. حازم نهار، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة " كلمة " ط.1، 2013، ص.32.

² نفسه، ص.33.



(الشكل رقم 52) نماذج من المراوح النخيلية

عن: رزقي نبيلة، الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس

(ق.7-8هـ/13-14م)

نجد أن أكثر الزخارف النباتية في عمائر سُوف نُفذت بواسطة الألوان، ونجد في القبة الهرمية للزاوية التيجانية بقمار على زخارف جمعت بين الجص والألوان، منها زهرة مُشكَّلة من ثمانية أوراق و تنتهي في أطرافها بدوائر تغطي أعلى السقف وأُطِرت في الأسفل بشريط زخرفي مُشكَّل من نجميات صغيرة تليها تشبيكات في شكل إطارات معقودة أو نوافذ صماء.

كما نجد زخارف في شكل غُصينات وتشبيكات تنتهي بوريقات صغيرة أو رسومات لأزهار تشبه زهرة عبّاد الشمس أو أربع مزهريات وسط أُطر معقودة في رواق دار السادة التيجانية. (الصورة 75) وفي جامع السوق بمدينة الوادي نجد زخرفة نباتية بالألوان في الحنايا الرُكنية، التي جعلت عند الانتقال من المربع إلى المثلث أسفل القبة، وهي عبارة عن زهرة كبيرة تتفرع منها أوراق وأزهار صغيرة. (الصورة 76)

والنموذج الوحيد للزخرفة النباتية بواسطة النقش وجدت في المعبد اليهودي بقمار عبارة عن نقش لمراوح نخيلية غير مُحَوَّرة تُوَطر زخرفة هندسية (الصورة 77).

3.3. الزخرفة الكتابية:

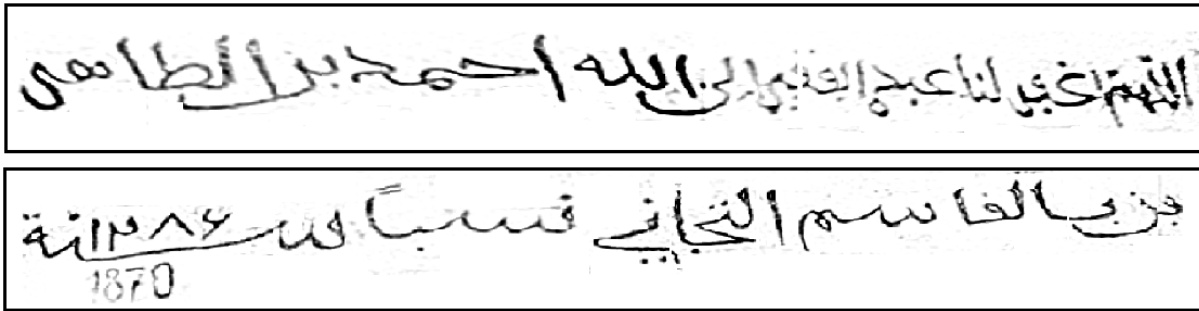
تُعد الموضوعات الكتابية قليلة أغلبها وجدت بالقاعة الهرمية للزاوية التيجانية أو بمسجد الزاوية بقمار تضمنت نصوص قرآنية أو أسماء الله الحُسنَى، أو أسم محمد صلى الله عليه وسلم و أسماء الصحابة ومنها:

- زخرفة بالألوان لآية الكرسي كتبت بخط النسخ وزعت كلماتها في معينات ذات أرضية زرقاء داكنة إلى الأسفل منها إطار مقسم إلى أربعة مستويات كتب في أعلاها "سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم" وفي الأسفل كتبت أسماء الصحابة العشرة المبشرين بالجنة نُفذت باللون الأزرق النيلي على أرضية برتقالية ، ويبدو أنها بدأت تتأثر بالرطوبة، وإلى الأسفل منها كوة مقوسة تبدو حديثة نسبيا ذات زخارف نباتية بدائية كتب فيها بالأرقام العربية "سنة 1300" ويقابله 1883م والذي يعتقد أنه تاريخ بناء القبة الهرمية.

- نقش غائر بالخط المغربي عبارة عن كتابة تأسيسية لجامع أحمد عمار كُشف عنها مؤخرًا بعد أن كانت مطموسة تخلد إسم النقاش وتاريخ الإنجاز ولم يراعي الفنان التناسب في توزيع الكتابة (الشكل 53)

- زخارف كتابية بخط النسخ لأسماء الله الحسنى والمعوذات كتبت باللون الأبيض على أرضية زرقاء في شكل معينات أو دوائر في بهو دار السادة وبالقبة الهرمية وبمسجد الزاوية.

- نقش بارز بالخط المغربي على أرضية خضراء للآية القرآنية: " رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا" ¹ من دعاء أهل الكهف، في القاعة الهرمية (الصورة 78)



اللهم اغفر لنا عبدك الفقير إلى الله أحمد بن الطالب عن الطالب
١٢٨٦هـ
١٨٦٠

(الشكل رقم 53) كتابة تذكارية من مسجد الزاوية التيجانية بقمار

عن الطالب

¹ سورة الكهف، الآية: 10.

4.3. الزخرفة العمائرية:

تقوم الزخرفة العمائرية على استعمال عناصر معمارية مصغرة لغرض وظيفي و تزييني ومنها الكوابيل (م. كابولي)¹ والشُرَافَات (م. شُرَافَة) التي توضع على حواف المباني أو الأعمدة والأقواس الصماء التي تتقدم المحاريب أو تزين واجهات المآذن . ومن أجمل تلك الزخارف التي ي منتصف مئذنة زاوية سيدي سالم بالوادي حيث نجد جدار الشرفة زين بنقش قويسات متداخلة ومتعاكسة على أعمدة تشبه الدرابزين الخشبية في العمائر الإسلامية وزينت في أسفلها بإفريز من دوائر متداخلة (الصورة 79).

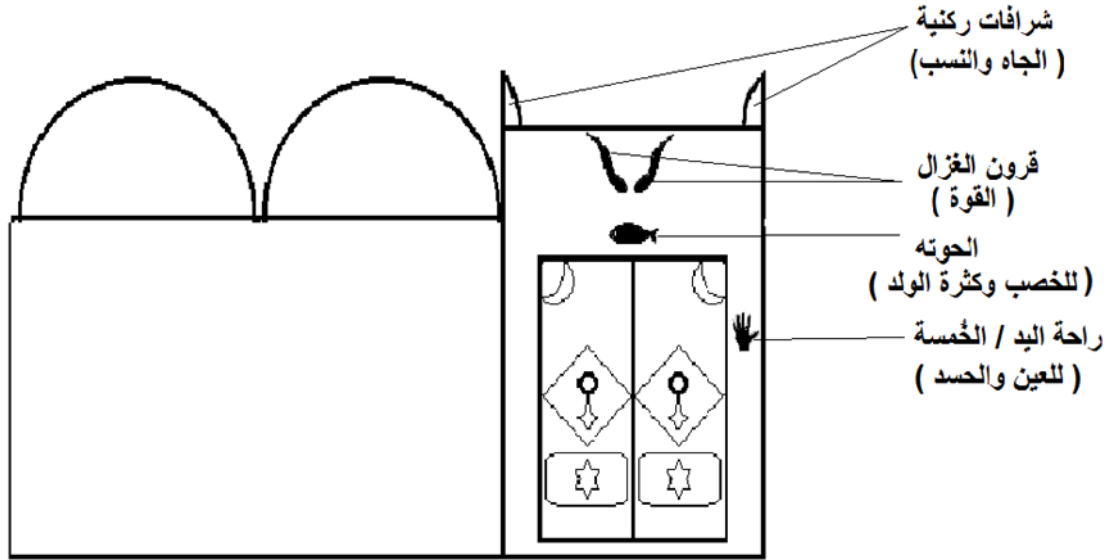
نجد في الزاوية التيجانية ثلاثة نوافذ ذات زخارف عمائرية عبارة عن فتحات مربعة ومثلثة وأخى بعقود صغيرة لغرض السماح برؤية ما بداخل الغرفة (قبور أهل الزاوية) وكذلك زينت واجهة مسجد سيد العروسي بنوافذ جصية مخرمة (شمسيات) . (الصورة 80)

كذلك زخرفة حديثة نسبيا لواجهات مئذنة مسجد دغمان بقمار عبارة عن شبكة من المعينات تحملها أربعة عقود صماء محمولة على أعمدة دقيقة، تشبه تلك التي على مآذن مساجد تلمسان الزيانية. (الصورة 81)

5.3. الزخرفة الرمزية:

عادة ما تُحلى واجهات المنازل أو المحلات و الدور الكبيرة بزخارف ترمز لوظيفة ذلك المبنى أو للتعوذ من العين والحسد أو لطلب البركة والأمان و منها الهلال أو راحة اليد أو السمكة. (الشكل 54)

¹ الكابولي هو مسند بارز من حجر أو خشب يثبت في الجدار ليحمل ما فوقه من بروز، نجده خاصة أسفل طبقات المآذن أو أسفل الأبراج في العمارة العسكرية أو المظلات. أنظر: يحي وزيري، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مج.4، مكتبة مدبولي القاهرة 2000، ص.11



(الشكل 54) الزخرف الرمزية في واجهات المنازل القديمة بمنطقة سوف

عن الطالب

من أقدم ما وصلنا من زخرفة رمزية صورة لمئذنة زاوية سيدي سالم الأولى¹ زُخرفت في وسطها بشريط من زخرفة هندسية لخطين متعامدين (+) علامة زائد، كما جُعِلت خطوط أخرى متعامدة ومعقوفة نسبياً مُدَلّات أسفل زخرفة عمائرية لعقود صماء. (الصورة 82)

من المعروف أن علامة زائد لها مكانتها في الثقافة الأمازيغية القديمة، ولكن تعددت الآراء حول دلالتها فهناك من يقول أنها ترمز لحرف التاء باللغة الأمازيغية أو كنتيجة للتأثر بالديانة اليهودية التي كانت سائدة في بعض البلاد المغربية الذين كانوا يوشمون أطفالهم بعلامة زائد² و نجد هذا الشكل ممثلاً أيضاً في السيف التارقي التقليدي وهناك من يقول أن رسم خطين متعامدين خاصة في الوشم يؤدي وظيفة نفسية تدفع العين والحسد. تعتبر منطقة سوف موطن الأمازيغ الأول وحتى بعد دخول الإسلام ومجيء العرب ظل العنصر الأمازيغي موجوداً في المنطقة وظل هؤلاء حتى الفترة الاستعمارية كالطوارق³ ومازالت الكثير من المصطلحات والمسميات الأمازيغية متداولة والثقافة الأمازيغية متجذرة في المنطقة فلا غرابة أن نجد بعض الرموز الفنية الزخرفية وغيرها مستعملة ومنها علامة (+) فقد اشتهرت الزُربية السُوفية باحتوائها علامة (+) محورة منذ 1890م⁴ (الصورة 83)

¹ المئذنة التي هدمت نهاية القرن 19م. أنظر: الفصل الرابع، العمارة الدينية، زاوية سيدي سالم.

² جميل حمداوي، الوشم في الثقافة الأمازيغية مقارنة سيميو- سوسيولوجية، الطبعة الأولى 2016، ص. 11.

³ Brunhes J., Les Oasis du Souf et du M'zab comme types d'établissements humains, B.S.G. (France), tome 5, Masson éditeurs, Paris 1902/01-1902/06, P.17, p.p. 5-20

⁴ Voisin A.R., Le Souf monographie, El Walid éditions, El-Walid, 2004, p.250

الخاتمة

في ختام هذا العمل المتواضع والذي نرجو فيه المثوبة والأجر من الله تعالى ونتمنى أن نكون قد وفقنا إلى حد ما في توضيح الرؤية وكشف اللثام عن طبيعة العمران في منطقة سوف والظروف التي أحاطت به من خلال دراسة نماذج لأقدم الحواضر بالمنطقة تاريخ نشأتها وتطور عمارتها ومن أهم الملاحظات التي يمكن الخروج بها:

لم تكن منطقة سوف ملائمة للعمران البشري نظرا لعدم وجود مصادر مياه سطحية أو جارية بها والتي عادة ما تكون سببا في استقرار السكان وازدهار الحضارة إلا أن الله تعالى قد حباها باحتياطات مائية جوفية كانت سببا في حياتها وظهورها تاريخيا .

عادة ما تعتبر البيئة الصحراوية الرملية عامل طرد للسكان، لكن الموقع الوسط لمنطقة سوف بين الأقاليم المتنازعة جعلها ملاذا وملجأ فكانت سببا في دخول أفراد وجماعات سكانية من جهات شتى إلى المنطقة قصد اللجوء مؤقتا ثم صارت موطن استقرار دائم.

رغم إستراتيجية موقعها الجغرافي بين عدة أقاليم متنازعة سياسيا ومذهبيا إلا أنها استطاعت أن تحافظ على استقلاليتها فلم تخضع لأي سلطة سياسية أو عسكرية على الرغم من المحاولات التي كانت من قبل بني جلاب حكام تفرقت في القرن 12هـ / 18م قبيل دخول المحتل الفرنسي.

إن عدم الخضوع السياسي لأحد الأقاليم المجاورة لم يمنع أهل سوف من التواصل اجتماعيا وإقامة علاقات مصاهرة مع سكان بلاد الجريد التونسية بلاد

النمامشة و منطقة الزاب بباليك الشرق. وكانت العلاقات الاقتصادية مزدهرة ومبادلات تجارية، وصارت بلاد سوف تمثل مركزا اقتصاديا وسوقا تستقطب السلع من مختلف الجهات، بدليل العثور على الكثير من العملات والنقود بالمنطقة والتي تعود إلى الحكومات في مناطق الجوار خاصة السلطتين الحفصية في تونس والعثمانية بقسنطينة.

عرف إنسان المنطقة كيف يتأقلم مع البيئة ويستغل كل ما أتيح له لتحقيق ظروف ملائمة للاستقرار فتميزت عمارته خاصة المساكن في عموم بلاد سوف بطابع البساطة والتقشف وتوفر لهم الراحة والهدوء، وكان للعاملين الديني والمناخي أثرهما الأبرز في نمط بنائها وتخطيط وهندسة مدنها وقراها.

لم تعرف قرى وادي سوف العمران الفعلي إلا بعد ظهور عاملين أساسيين هما:

1- عامل الأمن بسبب عزلة المنطقة ما شجع على الاستقرار وساعد ذلك على انتشار الغيطان (الأهواد) التي صارت تحيط ببلاد سوف من كل جهاتها وزراعة النخيل على نطاق واسع، ما ساعدها على تحقيق أمنها الغذائي فكانت النخلة خير أنيس، تمد إنسان المنطقة بضرورات الحياة و تمنعه من الاحتياج والخضوع للأقاليم المجاورة.

2- العامل الروحي بتأسيس المساجد الجامعة وظهور الطرق الصوفية و بناء الزوايا التيجانية بقمار نهاية القرن 12هـ/18م والرحمانية (سيدي سالم) بالوادي القرن 13هـ/19م جعل بلاد سوف تستقطب أتباع تلك الطرق فصارت مَحَجَّةً للزائرين من كل حذب وصوب وساعد ذلك في نهضتها العمرانية وزيادة سكانها .

شكلت العمارة في منطقة سوف نموذجا من العمارة التقليدية في الجنوب الجزائري، فعلى الرغم من الاختلاف في بعض مواد وتقنيات البناء أو من حيث الامتداد الأفقي والرأسي، فقد حافظت البلاد السُوفية على خصوصيتها المعمارية في ظل تعاليم الدين ووفق عادات و تقاليد سكان الصحراء بالاعتماد على الخامات المحلية ولم تخرج عن نظام المدن الإسلامية التي تبدأ بالمسجد الجامع وتنتهي بـرحبة السوق وجاءت ملتزمة بسمات العمارة الصحراوية عندما وتجاوب عمارتها في شكلها النهائي مع ضرورات المناخ والمحيط ما أفرز تجانسا وتشابها في المظهر واللون.

يعد إستخراج حجارة اللوس من الرمال وصناعة الجبس التقليدي محليا بمثابة إكتشاف العصر بالنسبة لأهل سوف لتكون نهضة عمرانية وتنتشر القرى وسط الكثبان بعد أن كانوا يعيشون ضواعن في الخيام أو في عرائش القش ، بخلاف المناطق الصحراوية الأخرى التي أغلب عمارتها قامت على الطين .

لقد كان لحفر الغيطان و غراسة النخيل أكبر الأثر في تحول سكان منطقة سوف من حياة البداوة إلى حياة التحضر، فبعد أن كانت سوف براح الذئاب وأرض عبور تحولت إلى موطن استقرار ، وصار الإنسان السوفي أكثر تشبها بالأرض ورغم قسوة الرياح فإنه تعلم الصبر والإصرار حتى نافست سوف البلاد المجاورة في إنتاج التمور.

تعد بلاد سوف نموذجا فريدا بين مدن الصحراء قاطبة خاصة في الجنوب الجزائري باعتبارها الوحيدة التي عُمِرت قراها وسط كثبان العرق الشرقي الكبير، فكل مدن الصحراء الأخرى نشأت وسط السباح الجافة أو على حواف أودية ظاهرة، أما بلاد سوف فقامت قراها على مجرى واد طمرته الرمال .

على الرغم من أن القبة ظهرت في عمارة الحضارات القديمة وصارت سمة العمارة الإسلامية ، فإن أهل سوف جعلوها خصوصية عمارتهم لما للشكل البيضوي الكروي من أثر في مقاومة عوامل الطبيعة خاصة الحرارة والرياح وقد ساعدهم في ذلك خاصية التصلب السريع لمادة الجبس التقليدي وقوته كمادة لاحمة ، فكانت كل منازلهم مسقوفة بقباب مفلطحة (ليست كروية تماما) ، حتى أطلق عليها بلاد الألف قبة

إن جملة الأحداث السياسية التي أحاطت بظروف الإستقرار في سوف بالإضافة إلى العامل الطبيعي قسوة المناخ ، جعلاً من الإنسان السوفي صبورا و شديد التحمل ذا إرادة صلبة أستطاع أن يقهر الرمال ويحقق معجزة غيطان النخيل، وبفطنته وذكائه عرف كيف يربط علاقات مع البلاد المجاورة خاصة غدامس ويجعل بلاده مركزا حيويا للتجارة .

إن النهضة العمرانية التي عرفتها الزاوية التيجانية بقمار خلال القرن 13هـ/19م وما تميزت به من بذخ في الزخرفة والعناصر الإنشائية من أبواب ونوافذ ودعامات وأقواس ما يُظهر تأثرها بنمط العمارة الإسلامية في الحواضر الكبرى كتلمسان وأفريقية، ويبرز ما توفرت عليه الزاوية من إمكانيات مادية وبشرية، وكان علامة فارقة في عمارة المنطقة عموما التي ستعرف تطورا من حيث تقنيات البناء.

من أبرز سمات العمارة في سوف :

1- قلة مظاهر العمارة العسكرية أو المرافق الرسمية يعكس حالة الإستقرار والأمان

اللذان كان ينعم بها سكان المنطقة.

2- رغم الدور الذي لعبته الطرق الصوفية في ازدهار العمارة الدينية بالمنطقة، فإن ذلك لم يكن مصحوبا بانتشار ظاهرة بناء القباب وأضرحة الأولياء كما هو الحال في بعض الأقاليم المجاورة.

3- تميزت العمارة المدنية بمنطقة سوف بانعدام الدور الكبيرة الفخمة أو القصور ما يدل على تقارب المستوى الاجتماعي والمعيشي للسكان، فكانت المساكن بسيطة متشابهة فيما بينها اشتملت على أهم المرافق الضرورية للسكن دار السقيفة وغرفة النوم والمطبخ ودار الخزين أو المؤونة ، و كان الساباط المرفق الأهم في هيكلة الحوش باعتباره من أهم وسائل مقاومة مناخ المنطقة الحار صيفا.

عند الانتهاء من هذا البحث المتواضع نرجو أن نكون قد كشفنا ولو جزءا يسيرا من تاريخ وظروف عمران المنطقة ما يساعد على إثارة الفضول لدى الباحثين في الآثار الصحراوية والمهتمين بتاريخ العمران بالجنوب الجزائري الكبير في زيادة البحث والتنقيب للكشف عن هذه المنطقة الذي مازال يكتنفها الكثير من الغموض. نتمنى أننا وفقنا في إضافة لبنة من لبنات البحث عن الحقيقة التي هي دائما ضالة المؤمن قصد الوصول للمعرفة وإدراك الذات الإلهية من خلال خلقه، وأختم حديثي بقوله تعالى :

{ وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } التوبة: 105

صدق الله العظيم

المصادر والمراجع

المصادر:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .
- ابن أبي الربيع احمد شهاب الدين، ت.(327هـ / 842م)، سلوك المالك في تدبير الممالك، تح. عبد العزيز آل سعود، دار العاذرية للنشر، الرياض 1416هـ
- ابن أبي دينار القيرواني ت.(1111هـ / 1699م) المؤنس في أخبار افريقية وتونس، تحقيق محمد هشام، المكتبة العتيقة، تونس ط.3، 1387هـ .
- ابن حزم الأندلسي، ت.(456هـ / 1064م)، جمهرة أنساب العرب، تح. عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، ط.5، (د.ت.).
- ابن خلدون عبد الرحمان، ت.(808هـ / 1406م)، المقدمة، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت، 2001.
- ابن خلدون عبد الرحمان، تاريخ ابن خلدون، إعداد خليل شحادة ، مج.6-7، دار الفكر، بيروت 2000.
- ابن عذارى محمد المراكشي، ت.(695هـ / 1295م)، البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تح.ج. كولان و ل. بروفنسال، ج1، دار الثقافة بيروت، ط.3، 1983 .
- أبو الربيع الوسياني، ت.(600هـ / 1203م) سير مشايخ المغرب، تح. إسماعيل العربي، ج.2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1985.
- أبو زكرياء يحي بن أبي بكر، ت.(471هـ / 1078م) كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تحقيق إسماعيل العربي، ج.2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984.
- الإدريسي الشريف، ت.(559هـ / 1166م) وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، تص. هنري بيرس، مكتبة معهد الدروس العليا الإسلامية بالجزائر، 1957.
- الباجي المسعودي، ت.(1297هـ / 1880م)، الخلاصة النقية في أمراء إفريقية، تح.محمد زينهم عزب، دار الآفاق العربية القاهرة، 2012.

- البخاري محمد بن إسماعيل، ت.(256هـ/869م)، صحيح البخاري، دار بن كثير للطباعة والنشر دمشق، 2002.
- البكري أبو عبيد عبد الله الأندلسي، (487هـ/1094م)، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب مكتبة المثنى بغداد(د. ت.).
- التجاني عبد الله، ت.(721هـ/1321م)رحلة التجاني، تقديم حسني عبد الوهاب، الدار العربية للكتاب تونس1981.
- الحميري محمد، محمد بن عبد المنعم الحميري، ت.(900هـ/1495م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح.إحسان عباس، مكتبة لبنان بيروت، ط.2- 1984.
- الدرجيني أبو العباس أحمد، ت.(670هـ/1272م) طبقات مشايخ المغرب، تح.إبراهيم طلاي، ج.1و2، مطبعة البعث قسنطينة، الجزائر1974.
- العدوان محمد بن عمر ، ت. ق. (11هـ/17م)، تاريخ العدوان، تحقيق أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط.1، 1996.
- العياشي أبو سالم عبد الله ، ت.(1090هـ/1679م)، الرحلة العياشية1661-1663م، تح. سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، مج.1، دار السويدي للنشر أبوظبي، 2006.
- الغبريني أبو العباس أحمد، ت.(704هـ/1304م)، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح.عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط.2-1979.
- القاضي أبو حنيفة النعمان، ت.(363هـ/974م)، افتتاح الدعوة، تح. فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، ط.2، 1986.

- مارمول كرجال، (1520-1600)، إفريقيا، تر. محمد حجي و محمد الأخضر وغيرهما، ج.3، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع الرباط 1984.
- الماوردي علي البصري، ت.(450هـ/1058م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية بيروت (د.ت.).
- مجهول (مؤلف) ت. ق.(6هـ/12م)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر سعد زغلول، دار النشر المغربية الدار البيضاء، 1985.
- المراكشي عبد الواحد ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تح. محمد سعيد العريان، ج.3، ج.م.ع، القاهرة 1963.
- المقرئزي تقي الدين أحمد، ت.(845هـ/1441م)، اتعاض الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تح.جمال الدين الشيال، ج.1، القاهرة، ط.2، 1996.
- الوزان الحسن، ت.(956هـ/1549م)، وصف إفريقيا، تر. محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت ط.2. 1983.
- الونشريسي أبو العباس أحمد، ت.(914هـ/1509م)، المعيار المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، ج.1، نشر وزارة الأوقاف المغربية، 1981.
- اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب، ت.(292هـ/905م)، البلدان، تعليق محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية بيروت، (د.ت.).

المراجع:

- ابن الطاهر الحبيب، الصلاة على المذهب المالكي، مؤسسة بن عاشور للتوزيع تونس، (د.ت.).
- ابن عميرة محمد، دور زناته في الحركة المذهبية بالمغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1984.

- أبو صالح الألفي، الفن الإسلامي، أصوله فلسفته مدارس، ط2، مطابع دار المعارف مصر 1974.
- إسماعيل أحمد عبد الرزاق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، نشر وتوزيع دار الثقافة، الدار البيضاء المغرب، ط.2، 1985.
- إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، م. و. ك. الجزائر 1983.
- بحيري صلاح الدين، مبادئ الجغرافيا الطبيعية، دار الفكر دمشق، ط.2، 1996.
- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط.2، 1981.
- بن عبد الله نور الدين ، العمارة التقليدية لمنطقتي توات الوسطى و القورارة بين ضوابط النص الديني وحدود الواقع، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 2013 م.
- بوزيان الدراجي، القبائل الأمازيغية أدوارها مواطنها و أعيانها، دار الكتاب العربي، الجزائر 2007.
- بوزير عمار بن محمد، الآثار الإسلامية بالجزائر، شبكة الألوكة، (د.ت.).
- بوعزيز يحي، ثورات الجزائر في القرنين 19 و 20 م، دار البعث قسنطينة، 1980.
- بونابي الطاهر، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6 و 7هـ، دار الهدى للطباعة عين مليلة 2004.
- البيلي محمد بركات، التشيع في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية القاهرة 1993.
- التليلي لعجيلي، الطرق الصوفية والاستعمار الفرنسي بالبلاد التونسية 1881 /1939، منشورات كلية الآداب بمنوبة، 1992.
- تومي إسماعيل، العمارة والعمران في ظلال القرآن، بيت المعماريين العرب، د.ت

- جلول ناجي، الرباطات البحرية بإفريقية في العصر الوسيط، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، تونس 1999.
- الجندي عبد الحليم، الإمام جعفر الصادق، دار المعارف القاهرة، د.ت.
- الجيلالي عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام، ج.1، دار مكتبة الحياة بيروت، ط.2، 1965.
- الحريري محمد عيسى، الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، دار القلم، الكويت 1987م
- حسن محمد، الجغرافيا التاريخية لإفريقية من ق 1 إلى ق 9هـ، دار الكتب الجديدة المتحدة، بنغازي ليبيا، 2003.
- حملاوي علي، نماذج من قصور منطقة الأغواط، دراسة تاريخية أثرية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر 2006.
- حوتية محمد الصالح، توات و الأزواد، ج.1، دار الكتاب العربي الجزائر 2007.
- الدشراوي فرحات، الخلافة الفاطمية بالمغرب (التاريخ السياسي والمؤسساتي)، نقله للعربية حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1994.
- دغفوس راضي، دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط، دار الغرب الإسلامي، 2005.
- رستم سعد، الفرق والمذاهب الإسلامية منذ البدايات، دار الأوائل للنشر والتوزيع دمشق، ط.3، 2005.
- روجي إدريس الهادي، الدولة الصنهاجية (تاريخ أفريقية في عهد بني زيري من ق10 إلى ق12م) نقله للعربية حمادي الساحلي، ج.1، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1992.

- سالمى رشيد، منارة سيدي سالم بوادي سوف "معلم وتراث"، مطبعة مزوار 2009.
- سامح كمال الدين، العمارة في صدر الإسلام، المؤسسة المصرية للطباعة والنشر القاهرة (د.ت.).
- سطات محمد راتب/ أندرواس مسعود، مواد البناء واختبارها، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر 1992.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن 10-14هـ/16-20م، ج.1 المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، الجزائر 1985.
- سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع 1830-1954، دار الغرب الإسلامي بيروت، 1998.
- سعد الله أبو القاسم، مجموع رحلات "رحلة الأغواطي" المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر 2011 .
- السقاط عبد الجواد و أحمد السليمانى، التواصل الصوفي بين مصر والمغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني المغرب 2000.
- سنيوبوس شارل، تاريخ حضارات العالم، تر. محمد كرد علي، العالمية للكتب والنشر، الجيزة 2012.
- السيد سابق، فقه السنة، مؤسسة الرسالة بيروت، مج. 1، 2002.
- الشابي علي، تاريخ الشابية خلال العهدين الحفصي والعثماني، دار نقوش عربية، تونس، 2015.
- شافعي فريد، العمارة العربية في مصر، المجلد الأول، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970.

- شهبي عبد العزيز، الزوايا والصوفية والعزّابة والاحتلال الفرنسي في الجزائر، دار الغرب للنشر و التوزيع، د.ت.
- شيت خطّاب محمود، قادة فتح المغرب العربي، ج.1، دار الفكر للطباعة و النشر، ط.7، 1984.
- عبد الأحد السبتي/ حليلة فرحات، المدينة في العصر الوسيط، المركز الثقافي العربي بيروت، 1994.
- عثمان محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت 1988.
- عثمان نجوى، مساجد القيروان، دار عكرمة دمشق، 2000.
- عطالله ميشيل كامل، أساسيات الجيولوجيا، دار المسيرة للنشر والتوزيع عمّان، ط.3-2009.
- العقبي صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر تاريخها ونشاطها، دار البراق بيروت، 2002.
- علي جمعه محمد، المكايل والموازن الشرعية، القدس للإعلان و النشر والتسويق، ط2 القاهرة 2001.
- العوامر إبراهيم بن محمد الساسي، الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، ط.2، الدار التونسية للنشر، 1977.
- غوردو عبد العزيز، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، الكويت، ط.2، 2011.
- فكري أحمد، مسجد القيروان، دار العالم العربي القاهرة، 2009.

- قوجة المنصف، تاريخ الإباضية الديني والسياسي من ق1- ق6 هجري الدار التونسية للكتاب، 2014 .
- كامب غابرييل، البربر ذاكرة وهوية، ترجمة عبد الرحيم حزل، أفريقيا الشرق، المغرب 2014.
- كوفي ج.، غراسة النخيل في سوف، ترجمة عبد القادر ميهي، مطبعة مزوار الوادي، 2013.
- لعرج عبد العزيز، الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر في العصر التركي، منشورات عويدات بيروت، 1990.
- لمعي مصطفى صالح، القباب في العمارة الإسلامية، دار النهضة العربية بيروت، (د.ت.)
- ليون موريه، الوجيز في الجيولوجيا، تر. يوسف خوري-عبد الرحمن حميدة، دار طلاس للترجمة والنشر دمشق، 1987.
- مرمول محمد الصالح، السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1983.
- مصطفى أعشي، أحاديث هيرودوت عن الليبيين الأمازيغ، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 2009.
- مفتاح عبد الباقي، أضواء على الشيخ أحمد التيجاني وأتباعه، الجزائر 1408 هـ .
- مؤنس حسين، المساجد، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1981.
- الملي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي بيروت ج.2، (د.ت.)
- نوبي محمد حسن، نظريات العمارة، مطبعة الأوفست الحديثة، مصر 2001.

- هويدي عبد الجليل، أساسيات الجيولوجيا التاريخية، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة 2003.

القواميس و الموسوعات:

- ابن منظور جمال الدين، ت.(711هـ/1311م) لسان العرب، دار المعارف القاهرة (د.ت.).
- الباشا حسن، موسوعة العمارة و الآثار والفنون الإسلامية، مج.1، أوراق شرقية للطباعة والنشر بيروت، ط.1-1999.
- بيار جورج، معجم المصطلحات الجغرافية، تر.حمد الطفيلي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر لبنان، ط.2، 2002.
- رزق عاصم محمد، معجم المصطلحات العمارة و الفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي، مصر، 2000 م.
- الفيروز- آبادي مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، ت.(817هـ/1415م) القاموس المحيط، تح.مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة بيروت، ط.8، 2005.
- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت ط.2 1980.
- وزيرى يحيى، موسوعة عناصر العمارة الإسلامية، مج.2، مكتبة مدبولي القاهرة، 1999.

الرسائل الجامعية:

- جودي محمد، المسكن الإسلامي في القصور الصحراوية بالجزائر - دراسة تحليلية مقارنة لقصور مزاب و ورقلة - أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم تخصص علم الآثار والمحيط ، جامعة تلمسان 2013/2014.

- قبائلية مبارك، تطور مواد وأساليب البناء في العمارة الصحراوية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الصحراوية، جامعة بسكرة 2010/2009.
- حسونه عبد العزيز، النسيج العمراني لمدينة قمار "دراسة أثرية ومعمارية" مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار الجزائر، 2010-2009.
- رزقي نبيلة، الزخرفة الجصية في عمائر المغرب الأوسط والأندلس (ق.7-8هـ/13-14م)، رسالة دكتوراه في علم الآثار والمحيط، جامعة تلمسان 2015-2014.

المقالات:

- إبراهيم مياشي، "من تاريخ وادي سوف مدينة الألف قبة" مجلة الثقافة، عدد 113، الجزائر 1996، ص. 194-201.
- ابن معمر محمد، "علاقة بني جلاب سلاطين تقرت بالسلطة العثمانية في الجزائر"، مجلة الحضارة الإسلامية " جامعة وهران، المجلد التاسع، العدد 12، 1998م ص. 15-33.
- بن عبد الله نور الدين، العمارة التقليدية بإقليم توات "القصر نموذجاً" دورية كان الإلكترونية، العدد 15، مارس 2012. ص. 122-128.
- التليلي محمد الطاهر، " فذلكة تاريخية عن منطقة سوف"، تقديم أبو القاسم سعد الله، مجلة العرب ج.11 و12، الرياض 2002 / ج.7 و8 الرياض 2004.
- الجبوري حسين علي، " أثر الخوف والقلق على طراز البناء في منطقة النجف وكربلاء"، "مجلة التراث الشعبي" وزارة الإعلام العراقية، ع 7، السنة السادسة، بغداد 1975، ص. 85-96.

- جعفري أحمد، العمارة الإسلامية في أقاليم توات، مجلة "ترات" الصادرة عن هيئة أبو ظبي للثقافة والإعلام، العدد 115. مارس 2009. ص. 73-79.
- حملاوي علي، آثار الدولة الرستمية بالجزائر مدينة سدراته الأثرية، مجلة العربي عدد 517 ديسمبر 2001. (موقع مجلة العربي، صفحة الكترونية)
- زينب قندوز، الذاكرة بين تشكيل العلامات وتعليم الأشكال " مساكن الواحة بالجنوب التونسي نموذجًا "مجلة الموروث الشعبي الالكترونية"، البحرين، العدد الثالث عشر، جوان 2016.

التقارير والدراسات:

- تقرير لوكالة الوطنية للموارد المائية (ANRH) 1993 فرع ورقلة.
- مديرية التعمير لبلدية الوادي :المخطط الرئيسي للتهيئة والتعمير 2006
- مديرية المصالح الفلاحية لولاية الوادي.
- كيو رقية / رضا الرقيق، دليل خصوصيات عمارة الجنوب التونسي، وزارة التجهيز والإسكان بتونس، 2003

- Cat É., A travers le Désert, Librairie Gédalge, Paris 1892
- Demage G., A travers le Sahara, Librairie Hachette, Paris 1894
- Eberhardt I. Barrucand V. Dans l'ombre chaude de l'Islam, Imprimerie A. Diary, Paris 1926.
- Eberhardt, I. Mes journaliers, Ed. D'Aujourd'hui, Paris 1985,
- Largeau V. Le Sahara Algérien les déserts de l'erg, librairie de Hachette Paris, 2 éditions 1881.
- Largeau V. Le Sahara, Premier voyage d'exploration, Sandos et Fischbagher 33, rue de Seine, Paris 1877
- Mayou L., Les secrets des pyramides de Memphis, Chamuel Editeur Paris, 1894.
- Poitou-Duplessy P., La mer des chotts, ou Mer intérieure d'Algérie, L'orient Imprimerie, Paris 1882.
- Rouvillois Brigol M., Le pays d'Ouargla (Sahara algérien), variation et organisation d'un espace rural en milieu désertique, univ.de Paris 1975
- Savornin M., Compte Rendu Général, Rapport : Les eaux souterraines du Sahara présenté par -48 imp. Imbert 5, rue Bruce Alger 1932.

- Terrasse H., Kasbas berbères de l'Atlas et des Oasis, les grandes architectures du sud marocain, Horizons de France, Paris 1938
- Marc-Ropert T., Sahara et communauté, presses universitaires de France, 1ed, Paris 1960
- Voisin A.R., Le Souf monographie, EL-Walid éditions, El-Oued, 2004.
- Lutaud CH., Exposé de la situation générale de territoire du sud .typographie Adolphe, Jordan 1908.
- Pélagaud, E., La Mer saharienne, H. georg, libraire-éditeur, Lyon 1881.

المقالات باللغة الأجنبية:

- Bataillon Cl., le Souf, Etude de géographie humaine, université d'Alger, Institut de recherches sahariennes, mémoire n° 2, Alger 1955
- Belluye, J., Sur Les Procédés de Construction employés dans les dunes d'El oued in ,Revue du génie militaire, Libraires-Editeurs, Paris, 6e Année 1892
- Brunhes, J., Les Oasis du Souf et du M'zab comme types d'établissements humains, in bulletin de la société de géographie (France), tome 5, Masson éditeurs, Paris 1902/01-1902/06, p.p. 5-20

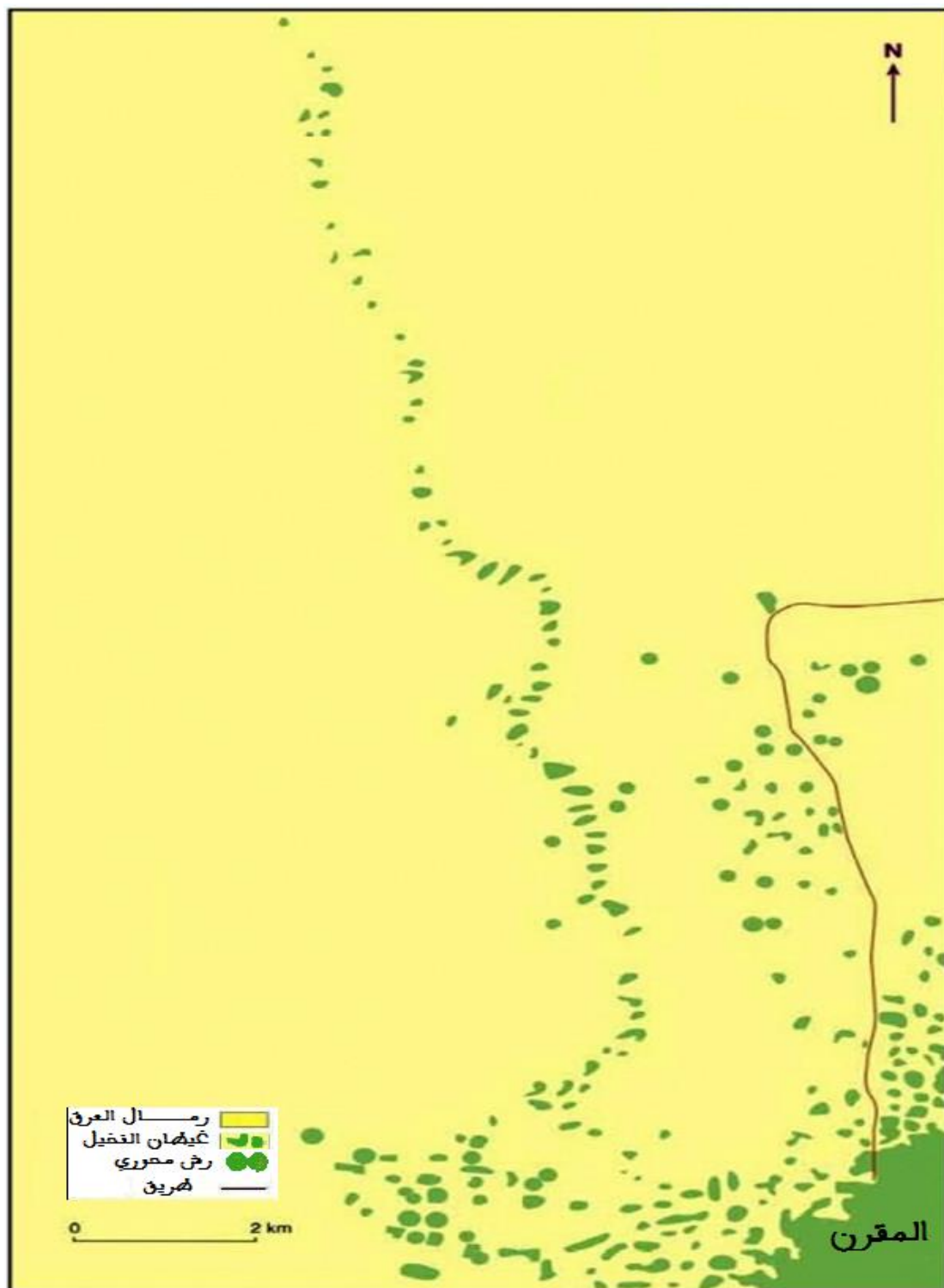
- Cauvet C., Notes sur le Souf et les Souafa, in Bulletin de Science Géographie Alger, 1934..
- Duveyrier H., Sahara Algérien et Tunisien, in Journal de route, Augustin Challamel Editeur, Paris 1905.p.p.23-25.
- Feraud, C., Les Ben Bjellab sultans de Tougourt, in revue africaine, Jourdan, libraire-éditeur, Alger volume 23, 1879 P.p.343-366
- Grenoble, J., Sculptures cruciformes sur une Mosquée saharienne, in Bulletin de la Société préhistorique de France, tome IX, Paris, janvier 1912, p.p.353-354
- JUS, H. « Les Oasis du Souf du Département de Constantine », in Bulletin de l'Académie d'Hippone, n° 22 -23, (1886 -88)
- Le Monde illustré, journal hebdomadaire, N° 797 16 em Année 1872/07/20.
- Lieutenant de L'harpe, Dans le sud algérien, à travers les montagnes de l'Aurès et dans les oasis du Souf, in Tour du monde (Paris. 1860) p.p.145-156
- Pelet P. La position géographique d'El Oued (Souf), in La géographie, bulletin de la société de géographie, Tome XII, Paris 1905, pages 5-38.
- PRAX, M. Sahara Algérien ; Le Souf ; in Revue de l'orient de l'Algérie et des Colonies, Tome Quatrième 1848 Rouvier, Libraire, PARIS.

- Van Berchem M. La découverte de Sédrata dans la Nouvelle Clio, 3^{me} année N. 9 - 10. Bruxelles 1951, pp. 389, 396.

الرسائل الجامعية باللغة الأجنبية :

- Chaouche-Bencherif Meriama, La Micro-urbanisation et la ville-oasis; une alternative à l'équilibre des zones arides pour une ville saharienne durable cas du Bas-Sahara, Mémoire de Doctorat en Sciences en Urbanisme, Université Mentouri. Constantine, Année Universitaire 2005-2006.

ملحق الصور



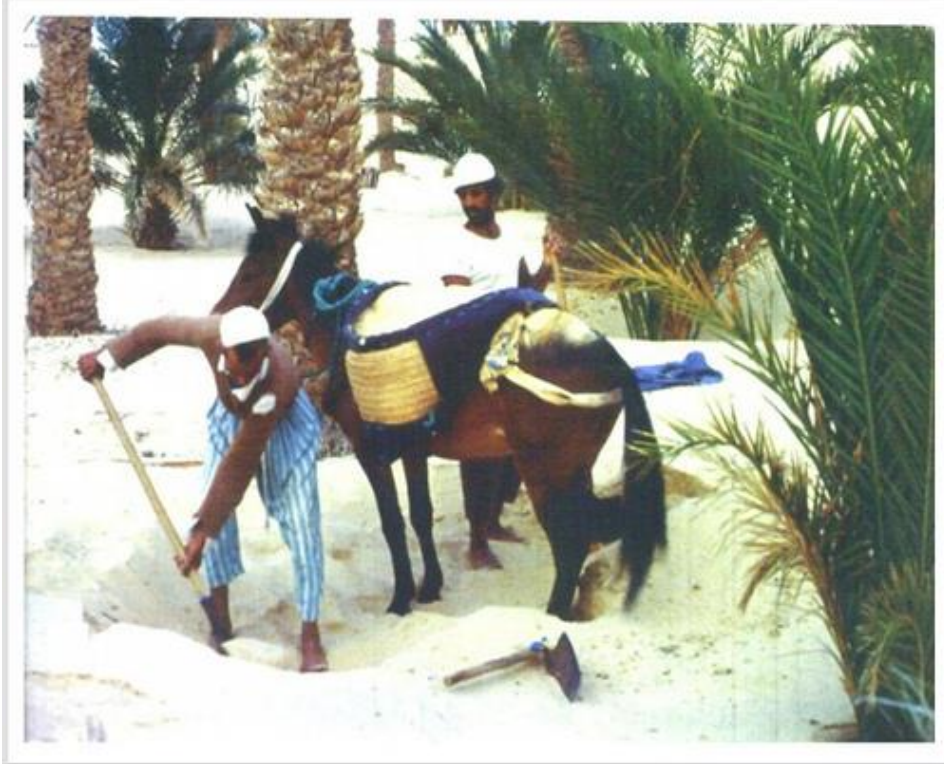
(الصورة رقم 01): صورة جوية تظهر الدّاية أي آثار المجرى القديم للوادي شمال

بلدية المقرن بوادي سوف .

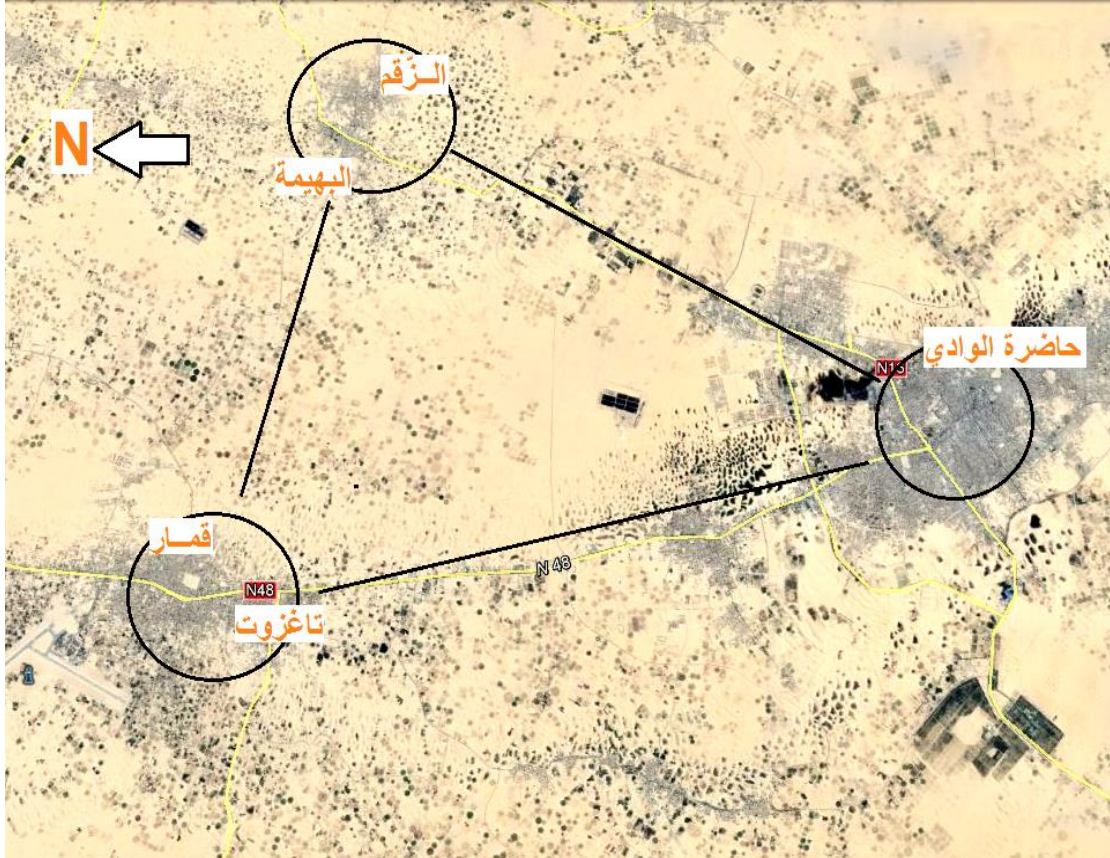
المصدر: قوئل إيرث 1998



(الصورة رقم 02): زريبة من جريد النخيل



(الصورة رقم 03) صورة لعملية إخراج الرمل من داخل الغوط



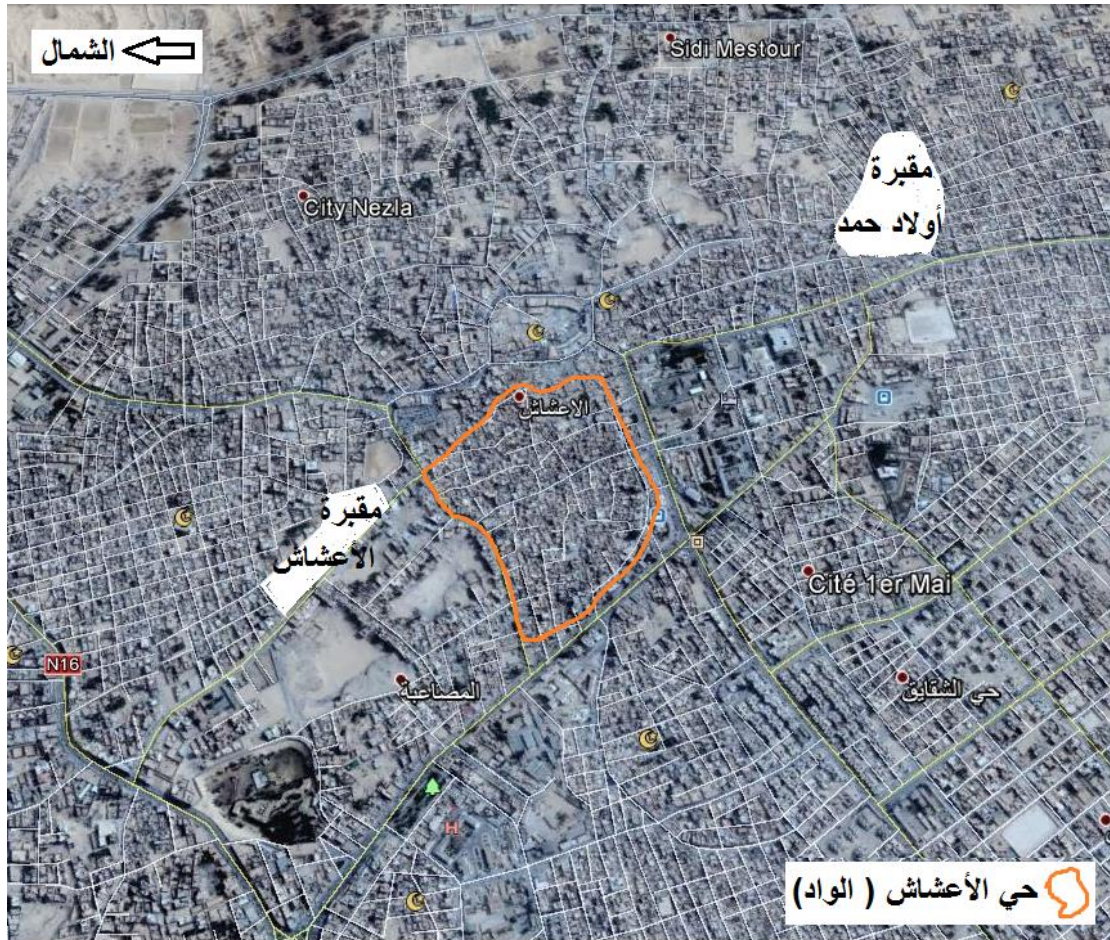
(الصورة رقم 04) صورة جوية للحواضر الأولى في منطقة سوف

عن: قوئل إيرث



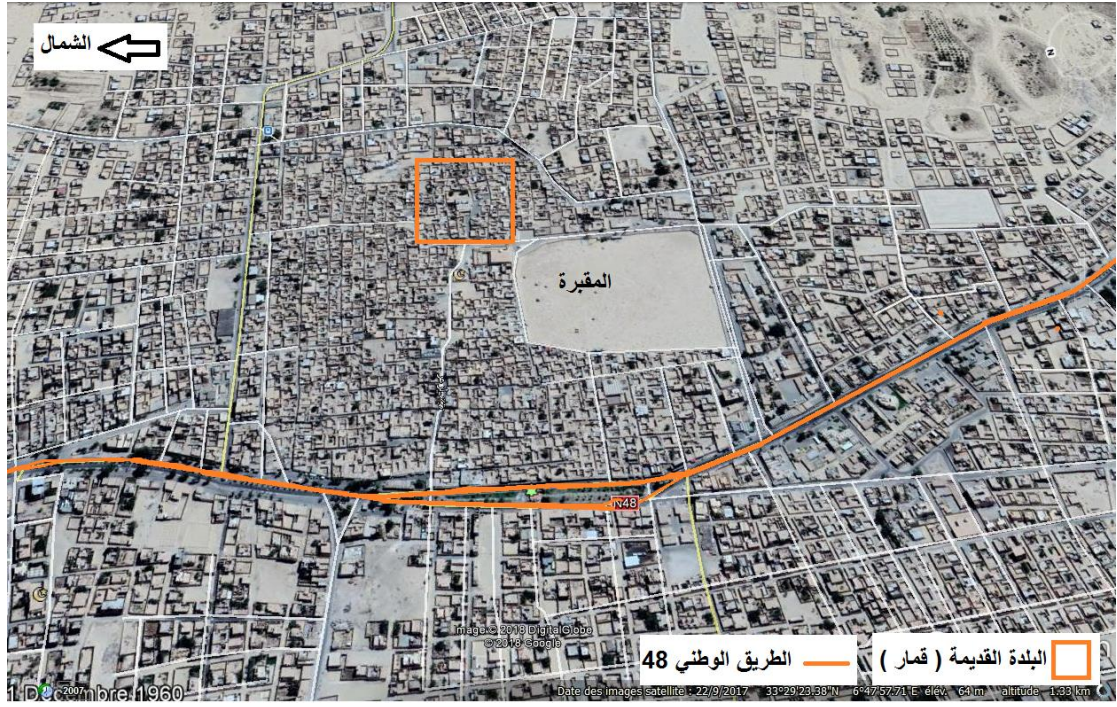
(الصورة رقم 05) صورة جوية لقرية الزّقم وموضع الحي القديم

عن قول إبرث بتصرف



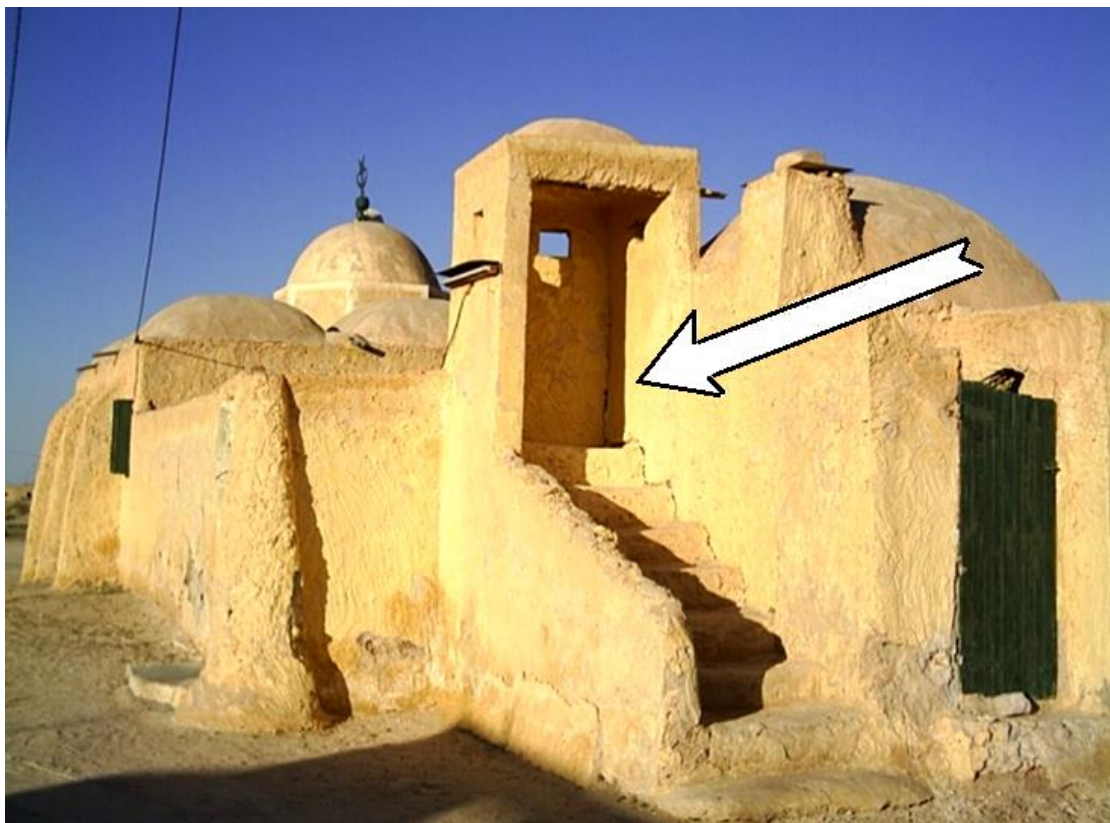
(الصورة رقم 06) صورة جوية لمدينة الوادي و موضع حي الأعشاش القديم

عن قول إيرث بتصرف

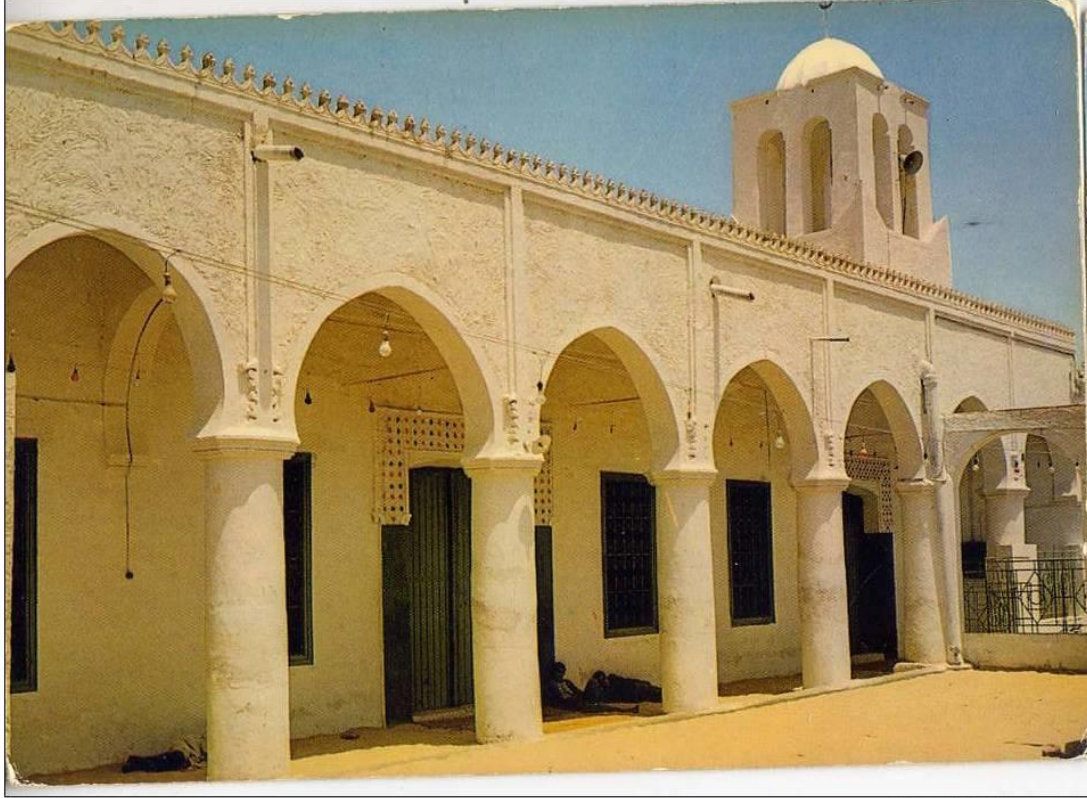


(الصورة رقم 07) صورة جوية لمدينة قمار

عن قوقل إيرث بتصرف



(الصورة رقم 08) نموذج للمئذنة التقليدية لمساجد سوف القديمة



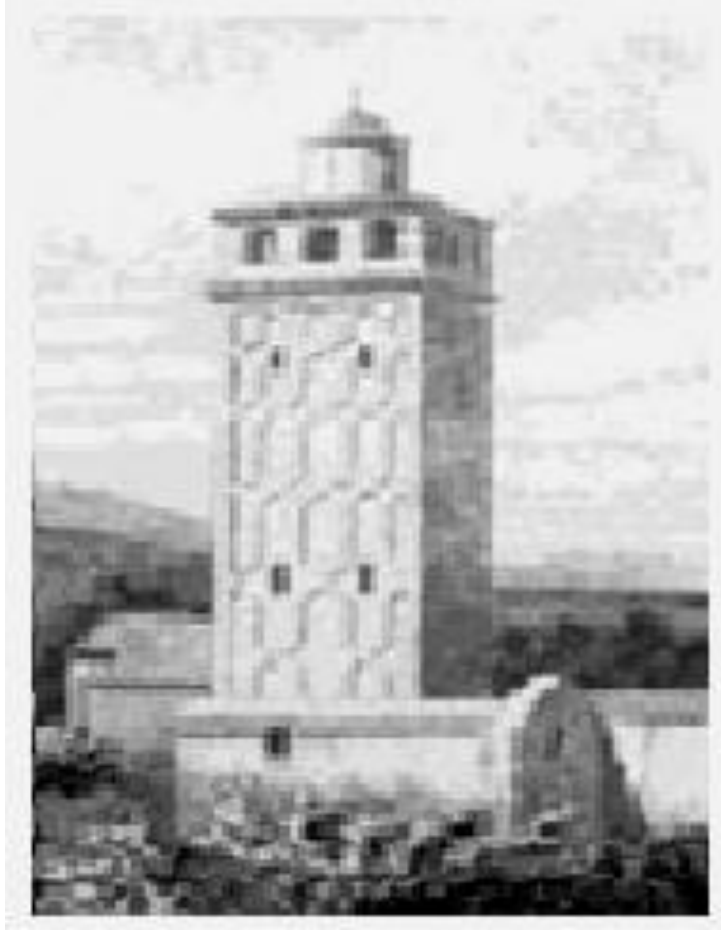
Mickey86

www.delcampe.net

(الصورة رقم 09) الواجهة الجنوبية للمسجد الجامع بالوادي

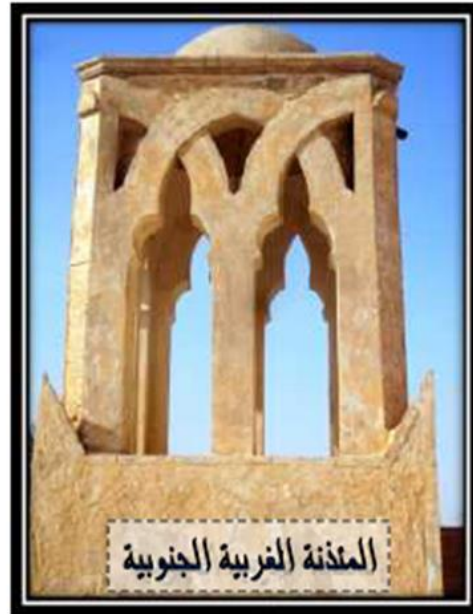
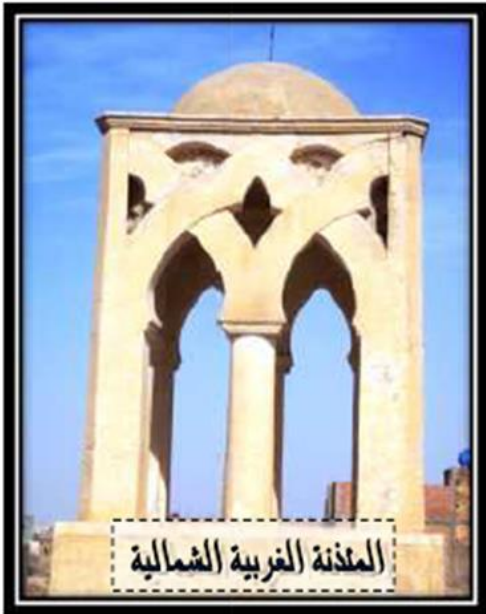
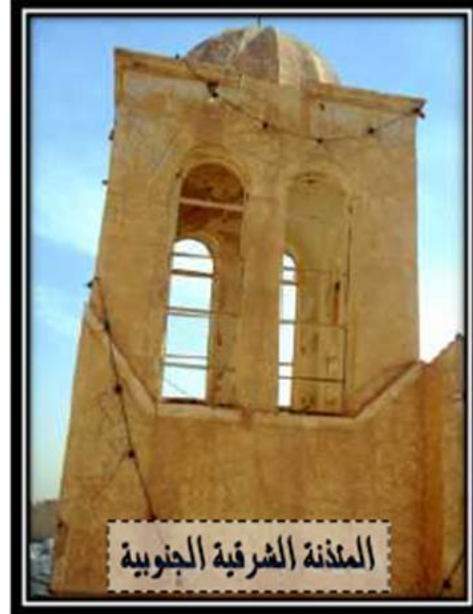
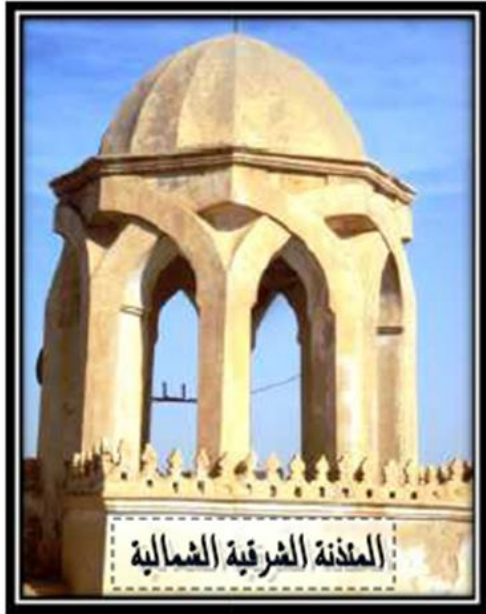


(الصورة رقم 10) إحدى نوافذ جامع السوق



(الصورة رقم 11) مئذنة مسجد سيد غانم (ميلة) التي هدمتها السلطات الاستعمارية

حوالي 1842م



(الصورة رقم 12) لوحة للمآذن الأربعة لجامع السوق.



(الصورة رقم 13) داخل بيت الصلاة لجامع سوق الوادي



(الصورة رقم 14) محراب جامع سوق الواد



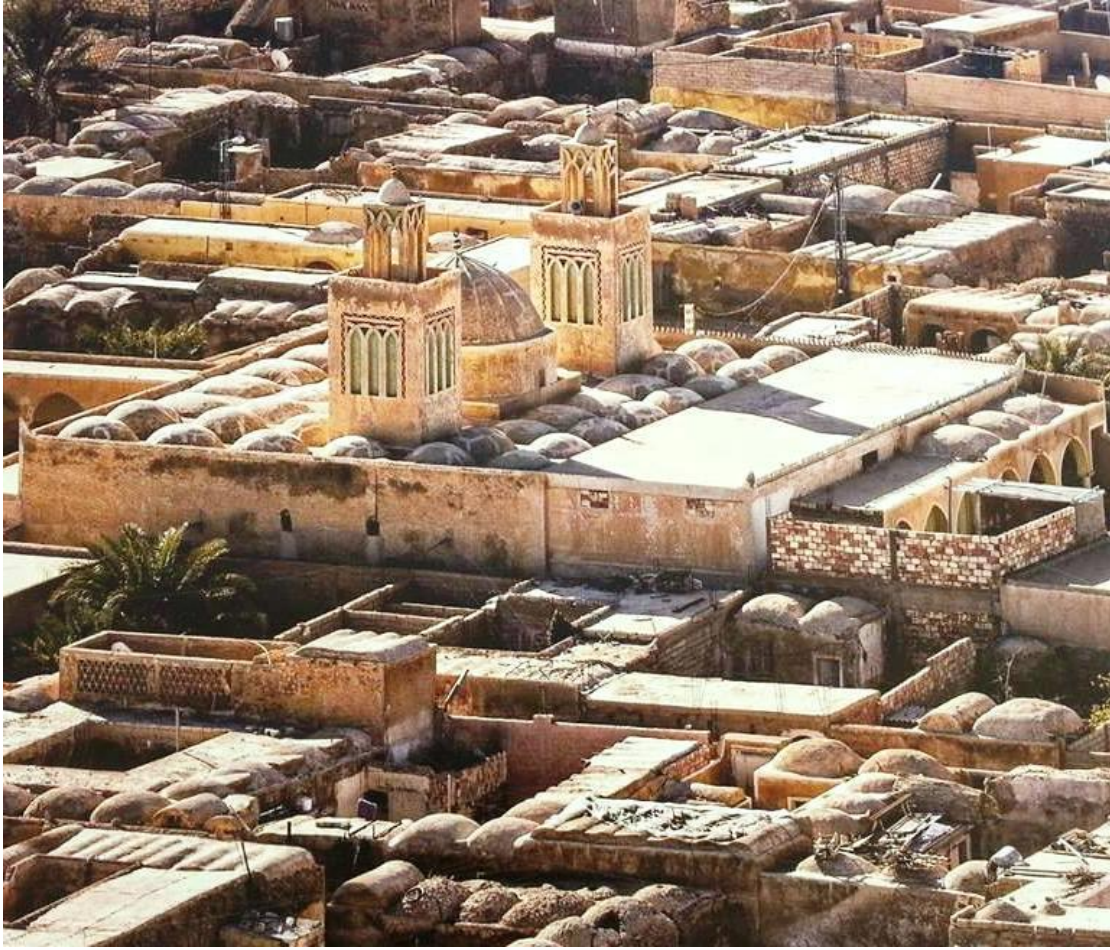
(الصورة رقم 15) منبر جامع سوق الواد منذ 1930



(الصورة رقم 16) قبة المحراب جامع السوق من الخارج



(الصورة رقم 17) صورة المئذنة القديمة لجامع العدواني بالزّقم



(الصورة رقم 18) الجامع الشرقي وسط البلدة القديمة بقمار



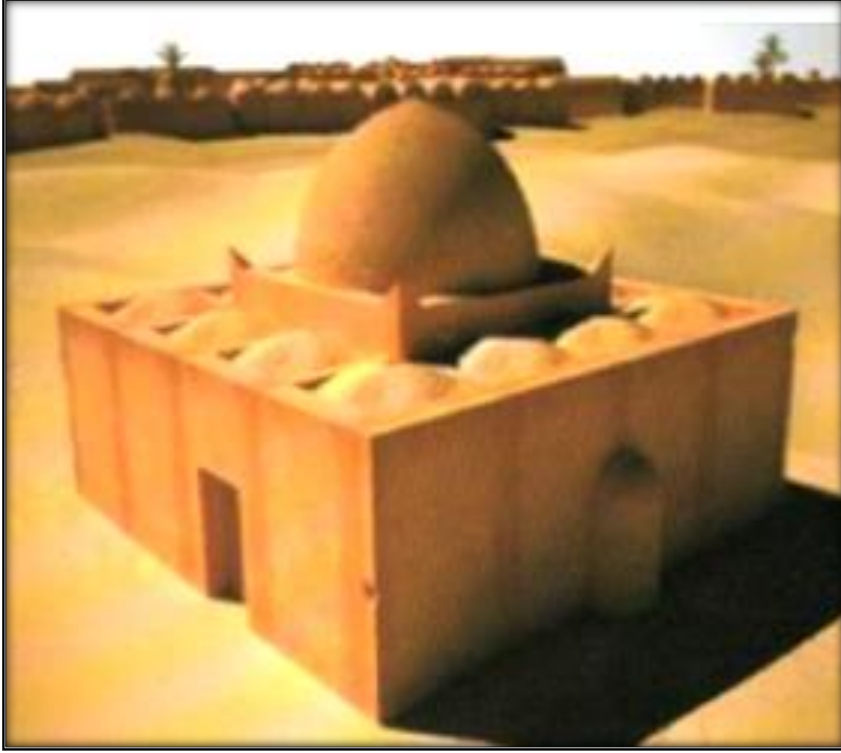
(الصورة رقم 19) قوس محراب الجامع الشرقي بقمار .



(الصورة رقم 20) قبة مسجد بيت الشريعة القديم



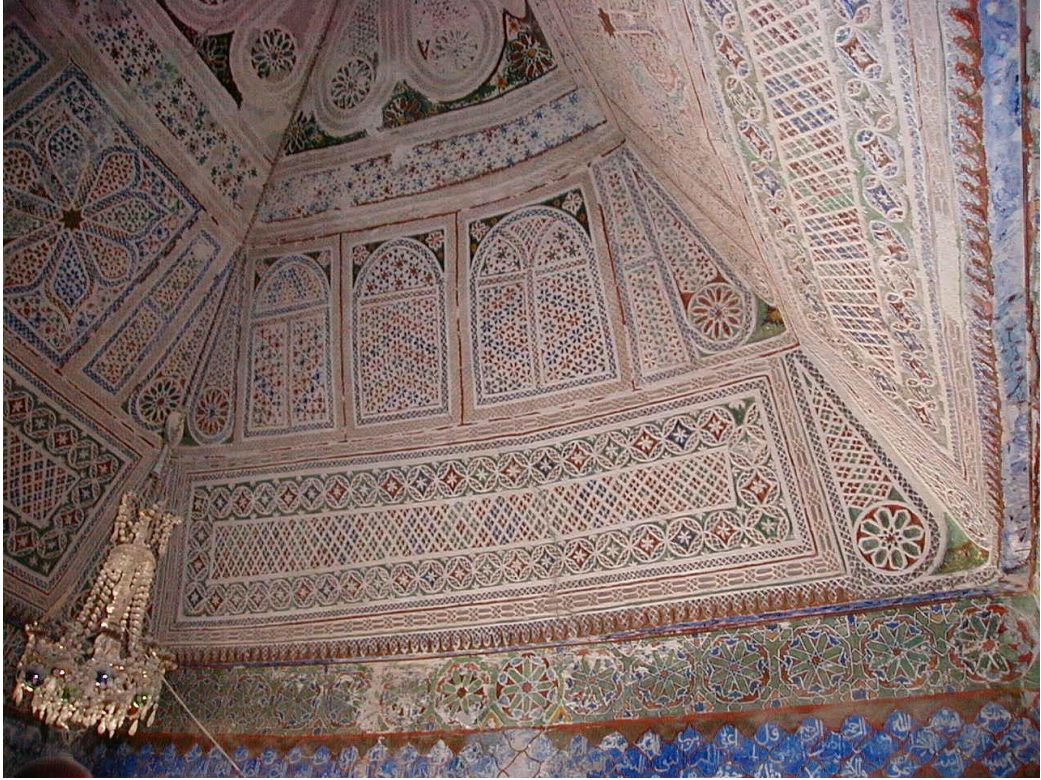
(الصورة رقم 21) مدخل بيت الصلاة لمسجد بيت الشريعة القديم



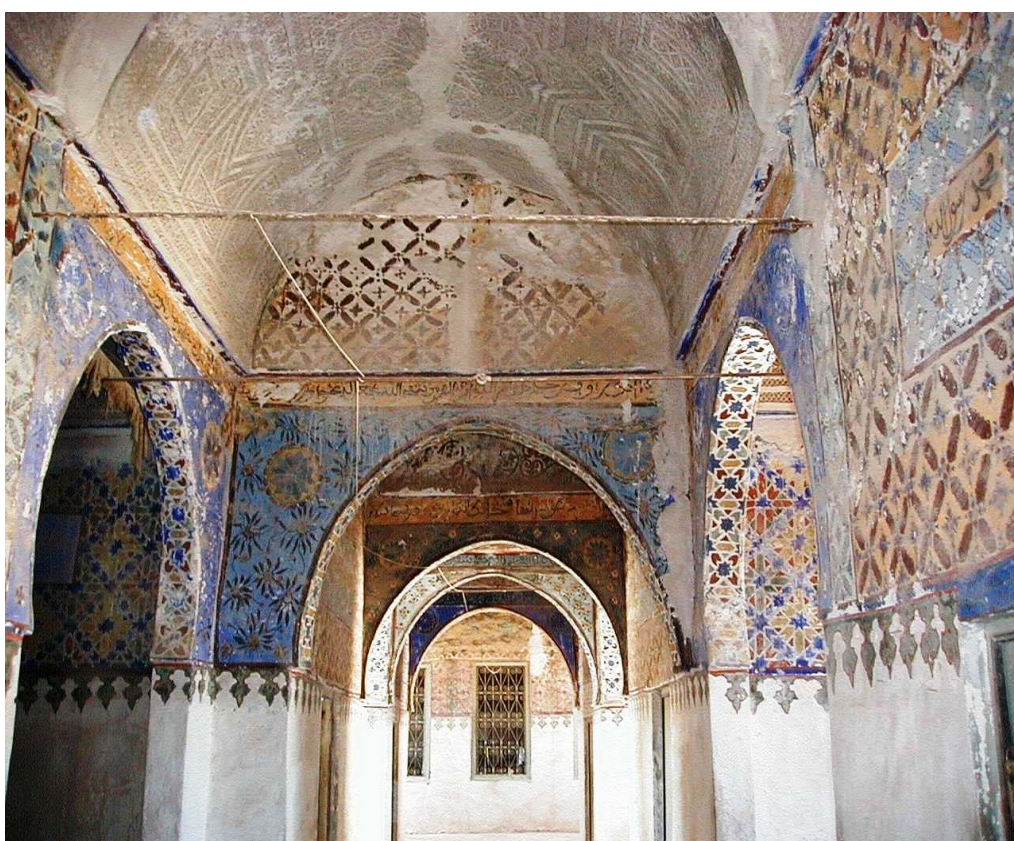
(الصورة رقم 22) تصور ثلاثي الأبعاد للزاوية التيجانية عند التأسيس سنة 1789م



(الصورة رقم 23) جانب من حائط القبلة وكوة المحراب مسجد أحمد عمّار
بالزاوية التيجانية بقمار



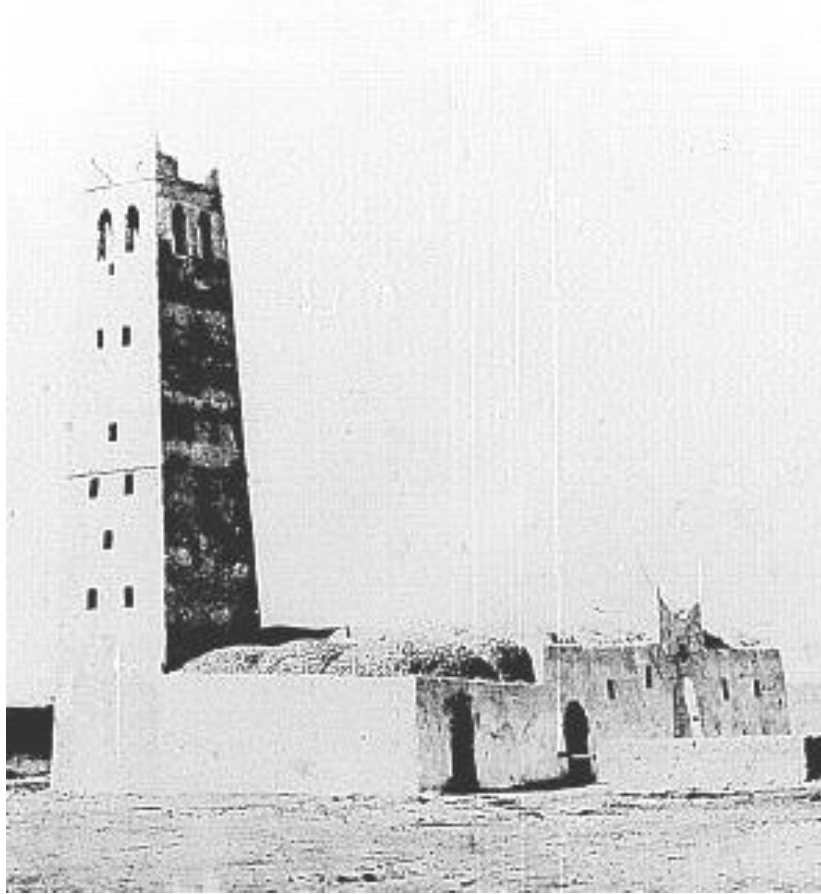
(الصورة رقم 24) السقف الهرمي للزاوية التيجانية من الداخل



(الصورة رقم 25) الرواق بين الغرف المؤدي للقاعة الهرمية

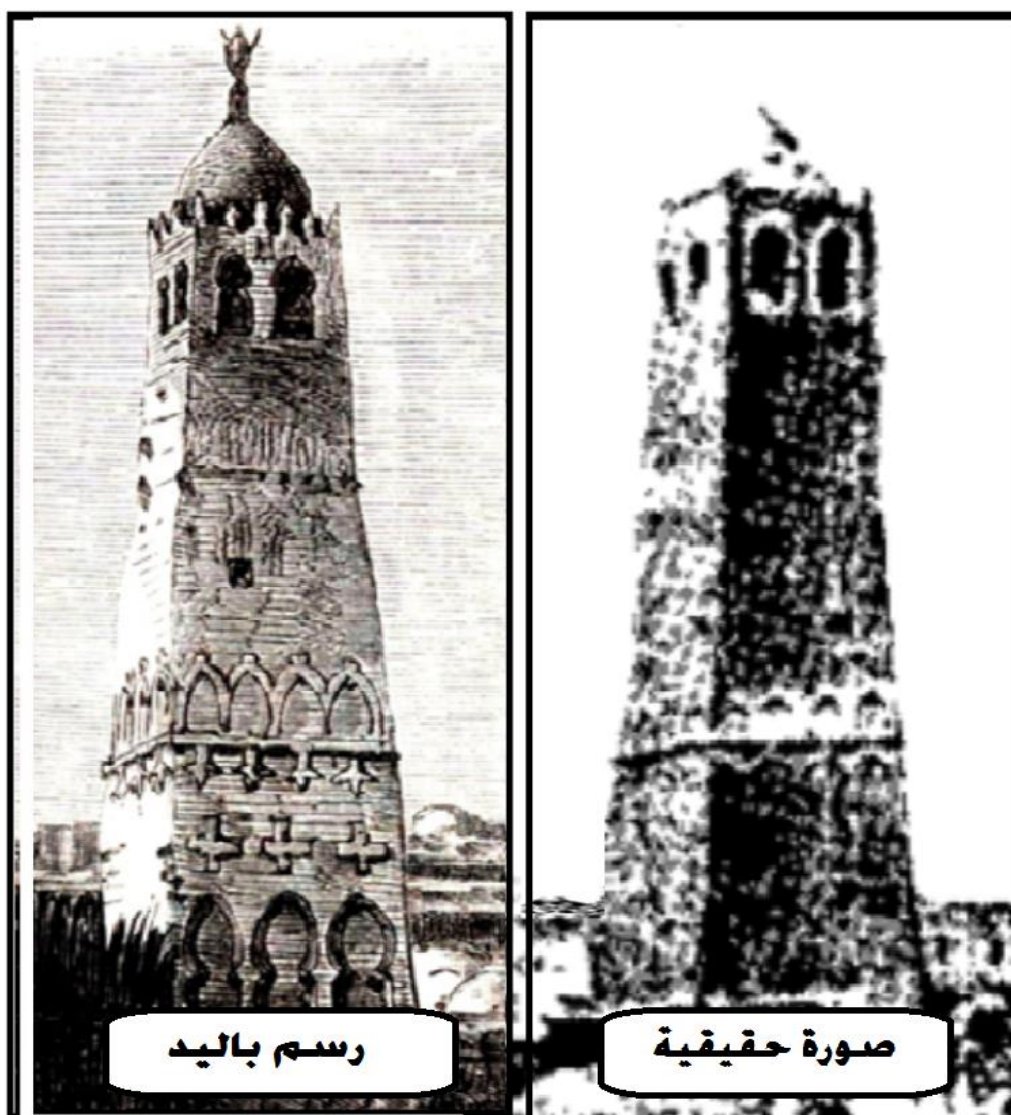


(الصورة رقم 26) أحد الأروقة المحيطة بالصحن في دار السادة



(الصورة رقم 27) مسجد أم الطيور بالمغير الذي أنشأ من طرف بني جلاب

عام 1856 ودمر في صيف 1884



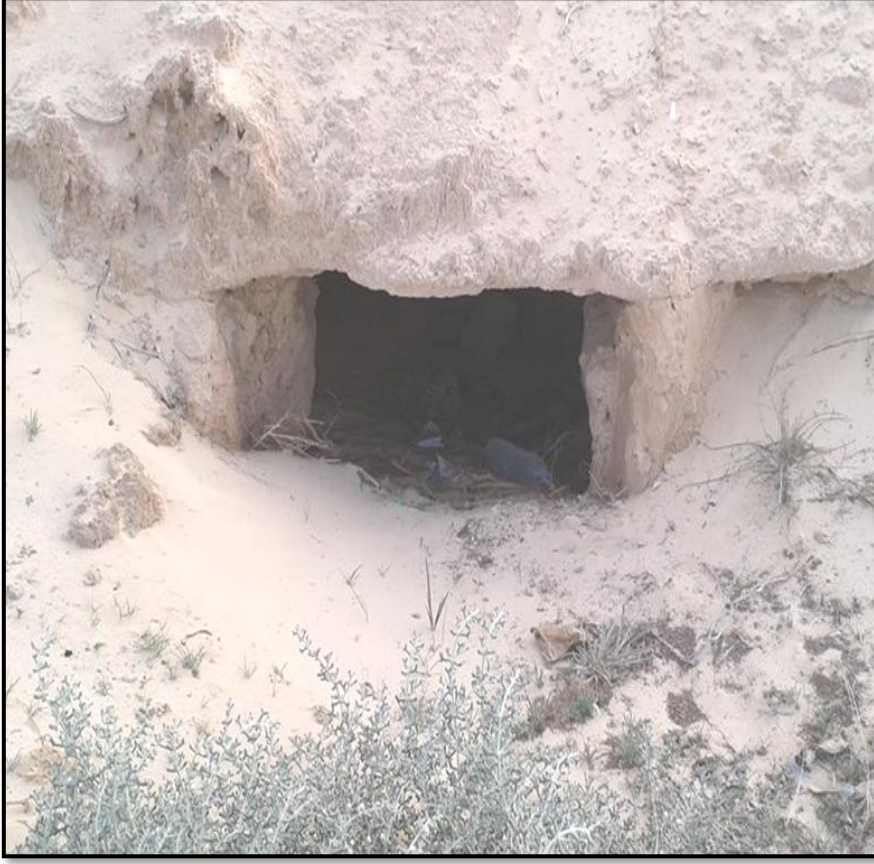
(الصورة رقم 28) لوحة مركبة من صورتين لمئذنة زاوية سيدي سالم الأولى



(الصورة رقم 29) المئذنة الحالية لزاوية سيدي سالم بالواد



(الصورة رقم 30) العريش أو المباليا الأمازيغية



(الصورة 31) صورة للكاف في أحد غيطان النخيل



(الصورة 32) صورة المنزل السوفي أو الحوش التقليدي



- 1- الساباط (يجب أن يفتح إلى الشمال)
 2- دار الخزين
 3- الكانون (المطبخ)

(الصورة رقم 33) صورة للسابط ملاصق لدار الخزين في الحوش



(الصورة رقم 34) الحِمَّارة و القِربة



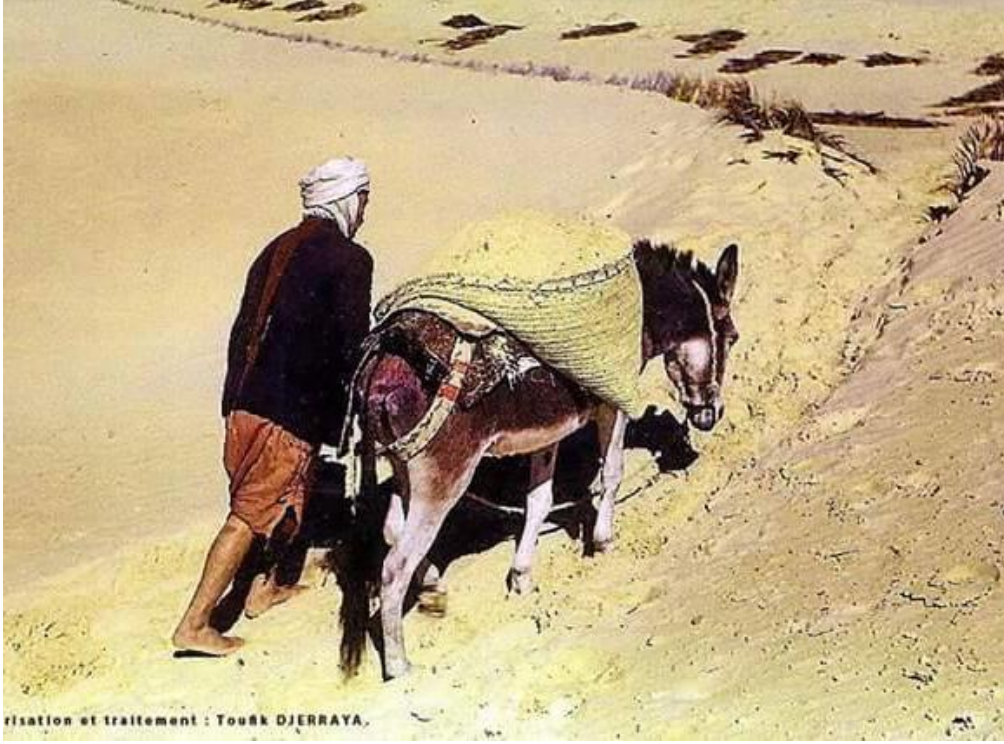
(الصورة رقم 35) الخابية والمخزن في دار الخزين



(الصورة رقم 36) السّدة أو السرير من جريد النخيل



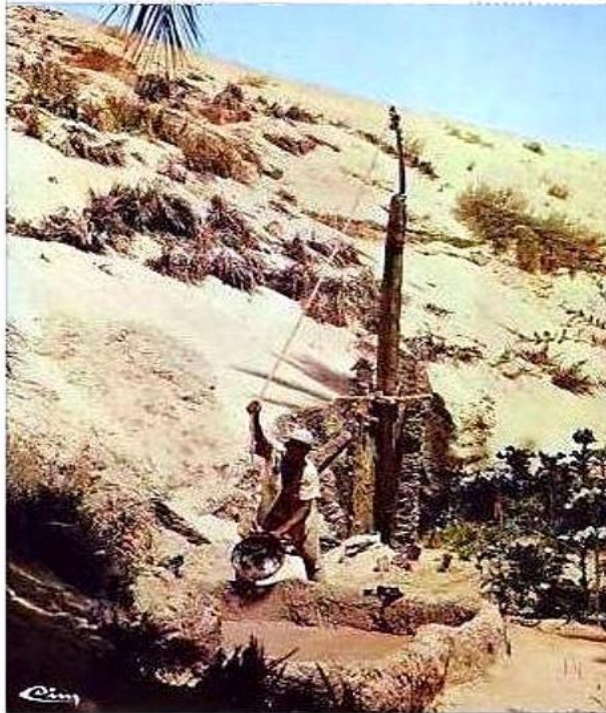
(الصورة رقم 37) حوش على طرف الغوط (الريف)



(الصورة رقم 38) استعمال الزنبيل (الشارية) لحمل الأتربة على ظهور الدواب



(الصورة رقم 39) طريقة السقي بالدواب



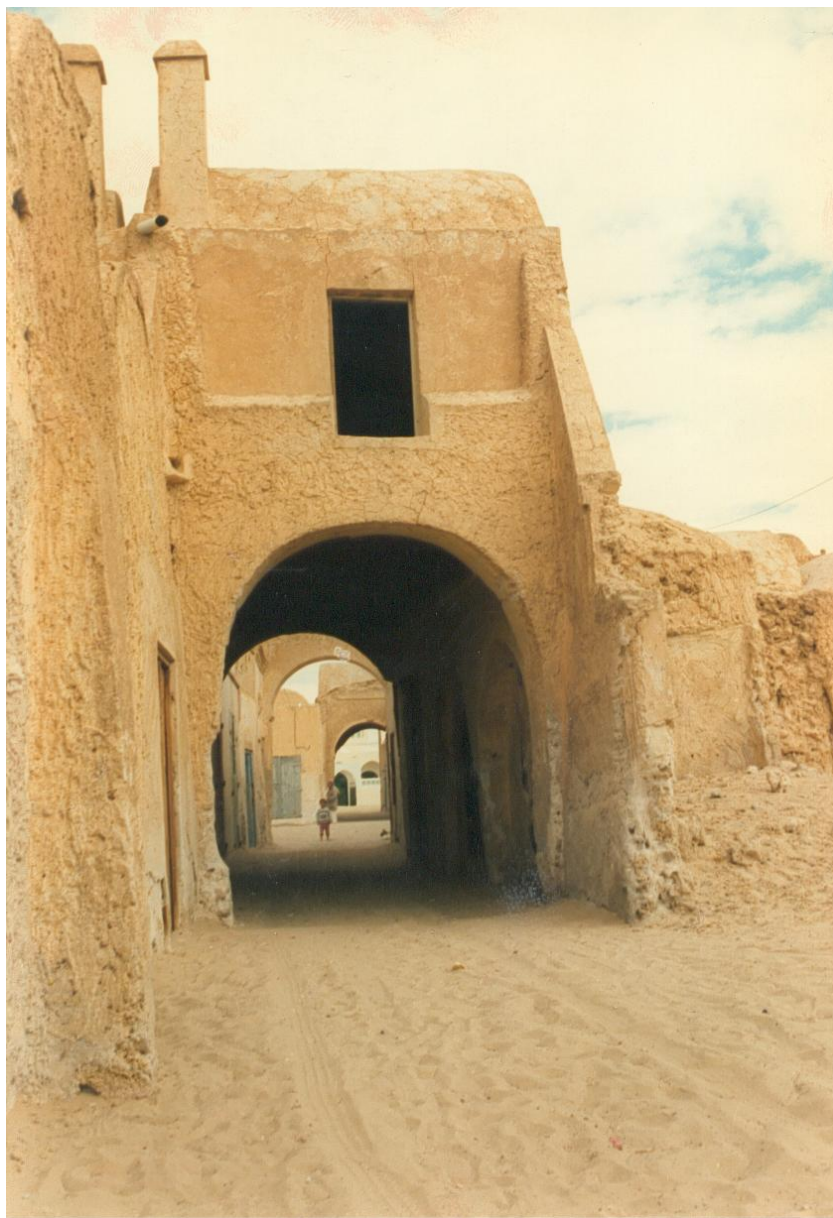
(الصورة رقم 40) طريقة السقي بالخُطَّارة



(الصورة رقم 41) غيطان النخيل في وادي سوف تشبه جلد الفهد من أعلى.



(الصورة رقم 42) المدّاح في سوق الوادي



(الصورة رقم 43) سوق القشاشيب القديم بسوق قمار



(الصورة رقم 44) صورة تُظهر بقايا السور في الجهة الجنوبية الغربية لمدينة الواد
ملتقطة حوالي منتصف القرن 19م



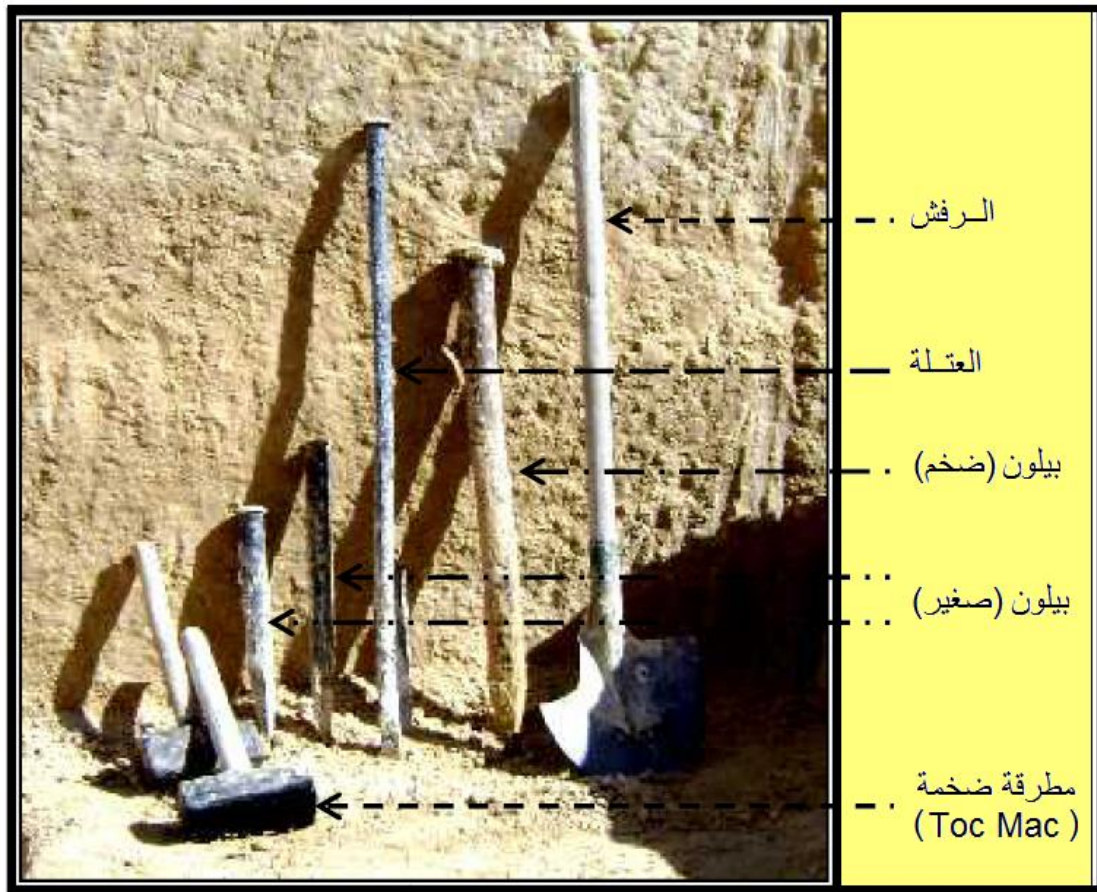
(الصورة رقم 45) حجر اللوس



(الصورة رقم 46) زهرة الرمال



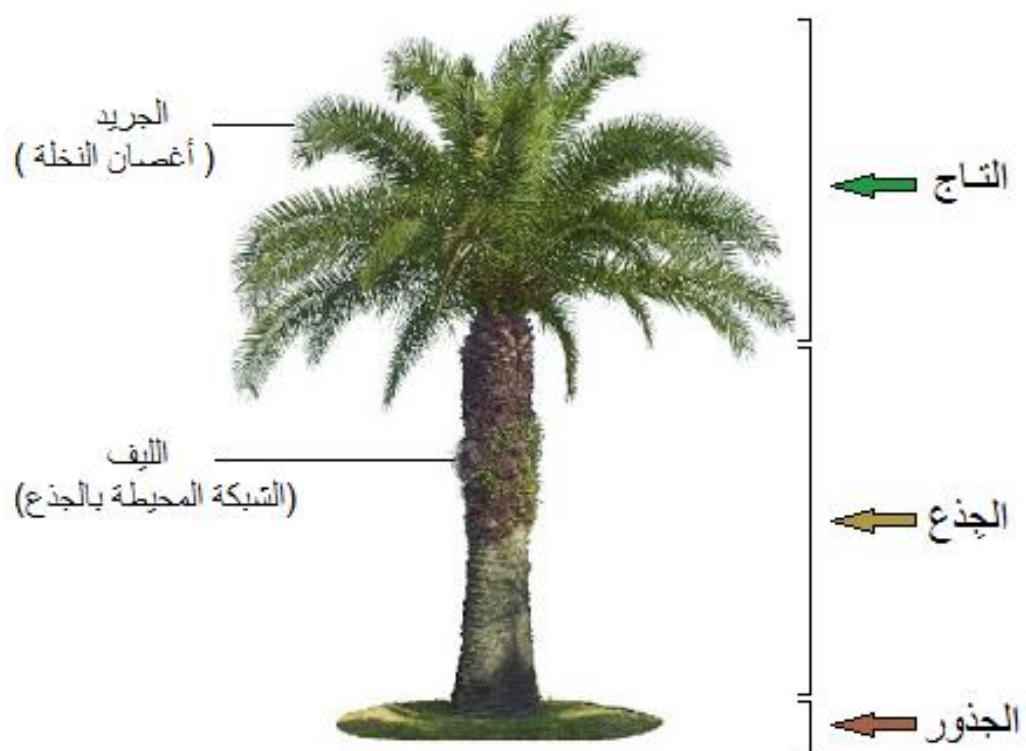
(الصورة رقم 47) طبقة حجارة اللوس وسط الرمل



(الصورة رقم 48) الأدوات المستعملة في قلع الحجارة بالطريقة التقليدية



(الصورة رقم 49) الكوشة أو الفرن التقليدي لحرق حجارة الجبس



أقسام النخلة

(الصورة رقم 50) أقسام النخلة ومكوناتها



(الصورة رقم 51) العَوَانَةُ أَثْنَاءَ عَمَلِيَةِ رَفْعِ الْجِدَارِ



(الصورة رقم 52) التصبيغ أو آثار الأصابع على الجدار



(الصورة رقم 53) قبة الصخرة بالمسجد الأقصى فلسطين

أقدم نموذج للقباب في التاريخ الإسلامي

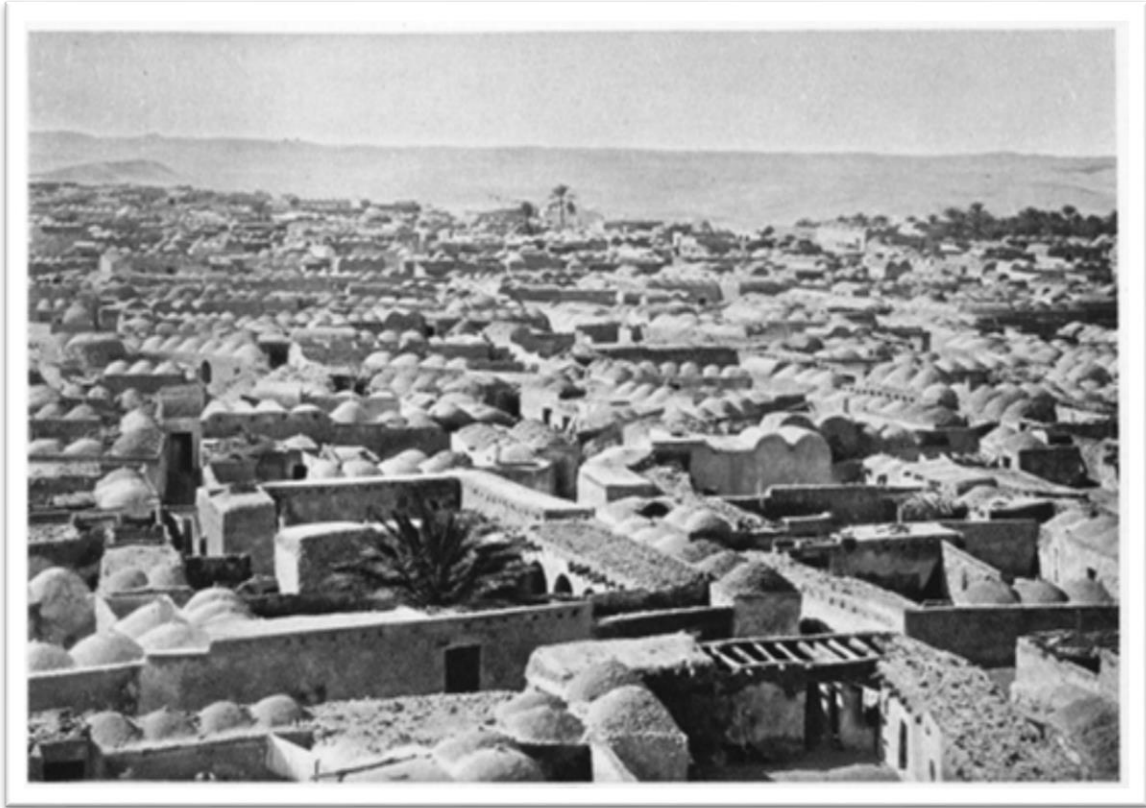


(الصورة رقم 54) قبة "جامع عقبة" بالقاهرة

أقدم نموذج للقباب بالمغرب الإسلامي



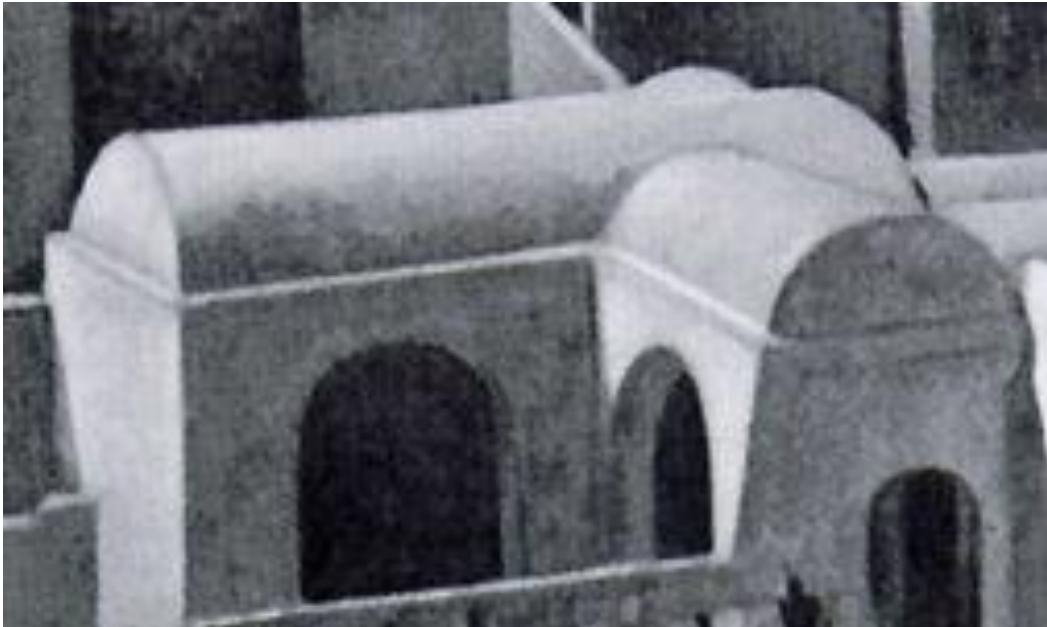
(صورة رقم 55) قبة يُعلوها منور بمدينة وادي تعود للفترة الاستعمارية



(الصورة رقم 57) مدينة الألف قبة حسب تعبير إيزابيل إبيرهارد سنة 1900



(الصورة رقم 57) نموذج للقباب من الفترة الاستعمارية



(الصورة رقم 58) قبو متقاطع في حي الأعشاش بالواد



(الصورة رقم 59) انتشار التسقيف بالأدماس في واد سوف



(الصورة رقم 60) التسقيف بسدّة الجريد وجذوع النخيل



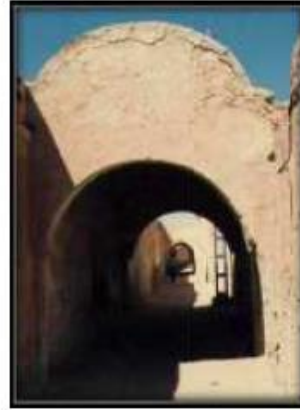
ب- أقواس الدعم في أزقة الوادي



أ- قوس الساباط في الحوش السوفي



د- أقواس مدخل الجنان في الزاوية



ج- أقواس براطيل قمار

(لوحة 61 من صور أ، ب، ج، د) نماذج من العقود في عمائر سوف



الصورة - ب -



الصورة - أ -



الصورة - د -



الصورة - ج -

أ - دعامة من جذع نخلة. - ب - دعامة مربعة من الحجارة.

ج - أعمدة أسطوانية تحمل بائكة العقود - د - دعامات جانبية سائدة للجدار

(لوحة رقم 62) وسائل الدعم في العمارة بمنطقة سوف



(الصورة 63) القفل التقليدي (السفاقصي)



- 3 -



- 2 -



- 1 -

- 1 - باب منزل بمصرعين . - 2 - باب محل تجاري بصفحة معدنية

- 3 - باب منزل بمصرع واحد تتوسطه دقة صغيرة

(لوحة رقم 64) نماذج لأبواب مختلفة من منطقة سوف



- 3 -



- 2 -



- 1 -

- 1 - نافذة للإنارة ذات زخرفة عمائرية. - 2 - نافذة بمصراعين ومدعمة
بتشبيكات معدنية. - 3 - نافذة مخرمة بزخرف جصية للتهوية

(لوحة رقم 65) نماذج من النوافذ في الزاوية التيجانية بقمار



(الصورة رقم 66) النقش باستعمال الورق المخرم والفحم المطحون.



(الصورة رقم 67): زخرفة بالألوان تكسو جدران القاعة الهرمية بالزاوية

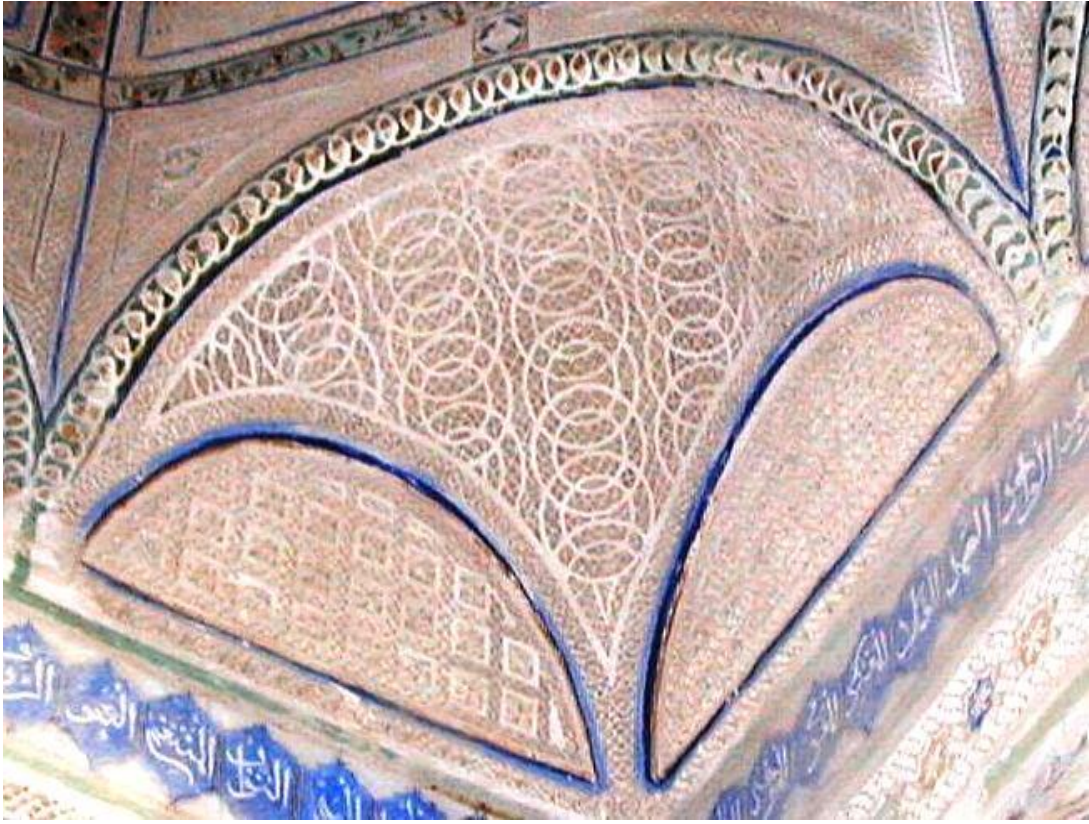
التيجانية بقمار.



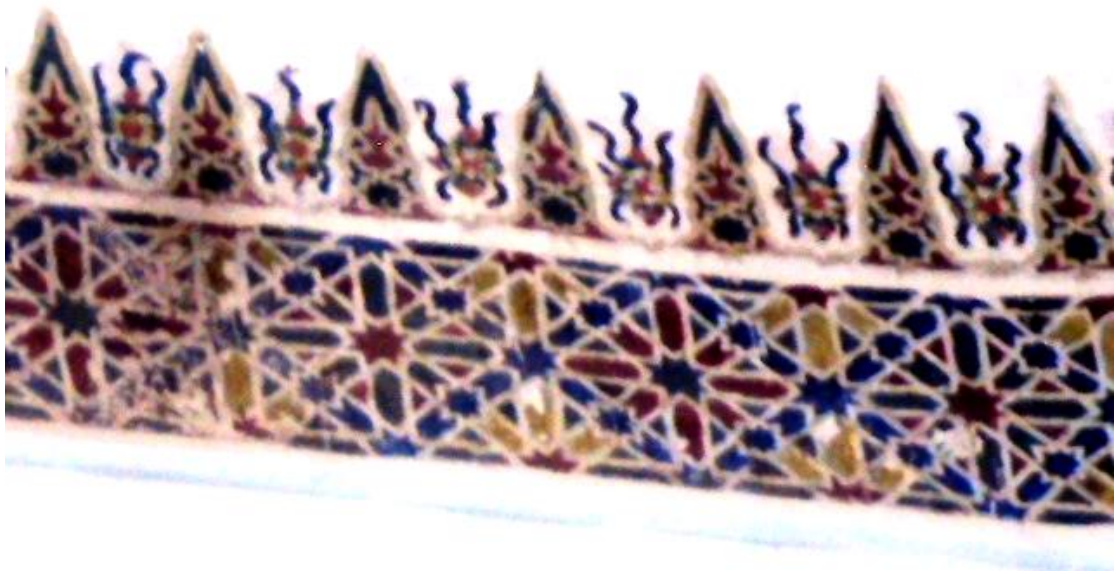
(الصورة رقم 68) نافذة مخرمة مشكلة بطريقة التجميع في الزاوية التيجانية بقمار



(الصورة رقم 69) البوابة الرئيسية للزاوية التيجانية بقمار



(الصورة رقم 70) الدوائر في زخرفة جصية أسفل قبة مسجد الزاوية



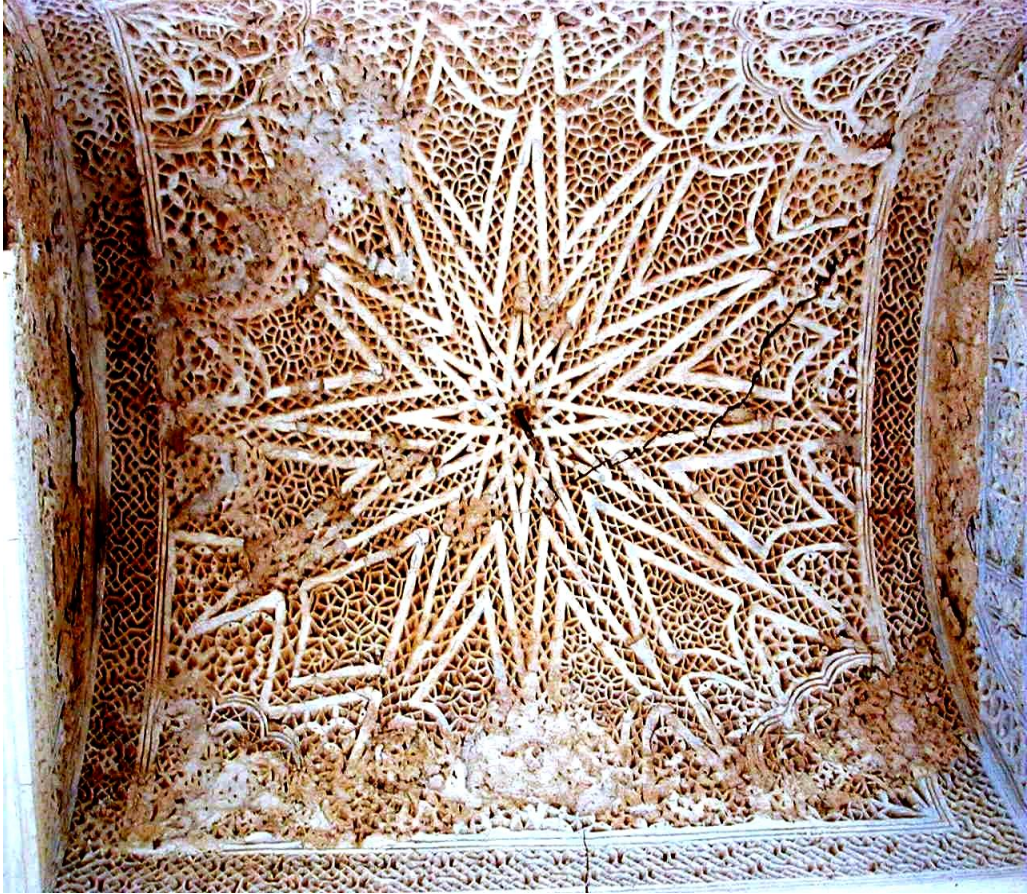
(الصورة رقم 71) إفريز من زخارف هندسية أسفل قبة جامع السوق.



(الصورة رقم 72) نجمة سداسية مشكلة بالزخرفة الكتابية



(الصورة 73) أول زخرفة خشبية لطبق نجمي تعود للقرن 6هـ



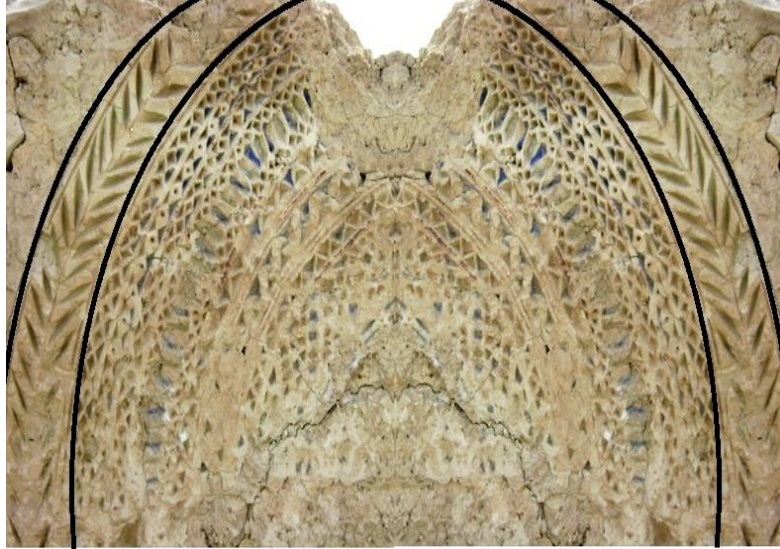
(الصورة رقم 74) زخرفة بالطبق النجمي في سقف مدخل الجنان بزاوية قمار



(الصورة رقم 75) زخارف نباتية بالألوان (الزاوية التيجانية)



(الصورة 76) زخرفة نباتية في شكل أرابسك (جامع السوق بالوادي)



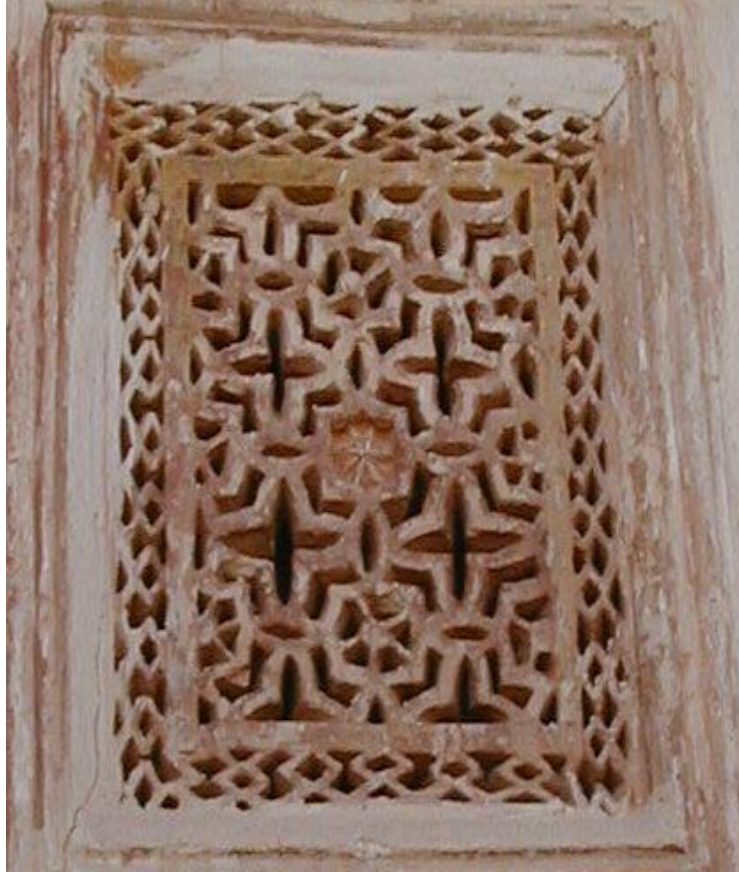
(الصورة رقم 77) زخرفة نباتية بأسلوب النقش توطر أخرى هندسية
(المعبد اليهودي بقمار) بتصرف



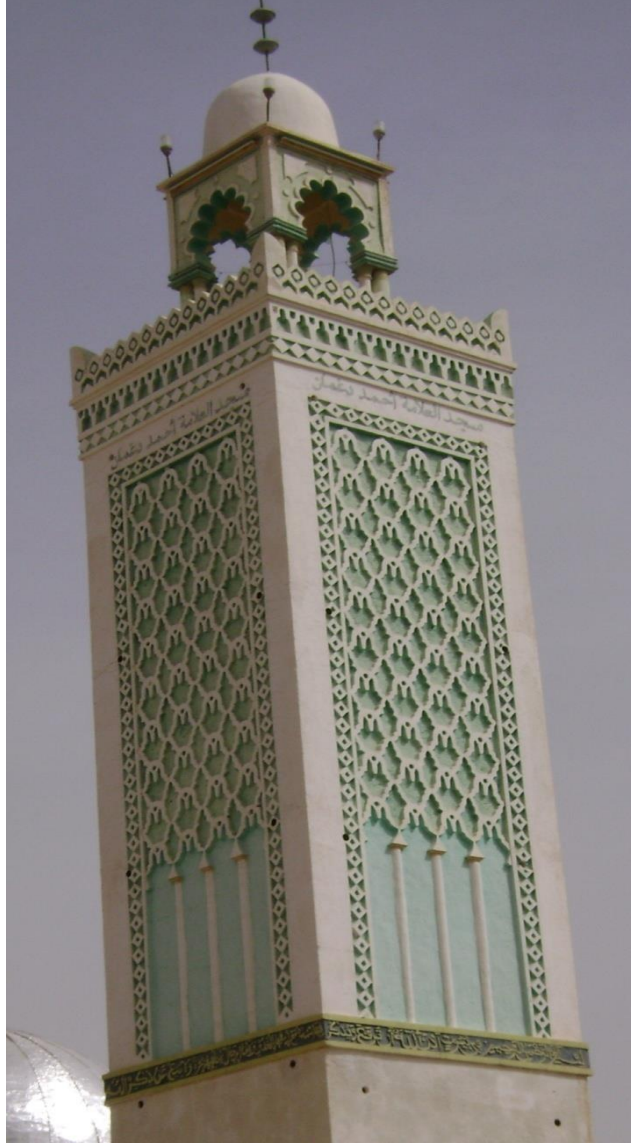
(الصورة رقم 78) زخرفة كتابية بالنقش البارز لآية قرآنية بالخط المغربي



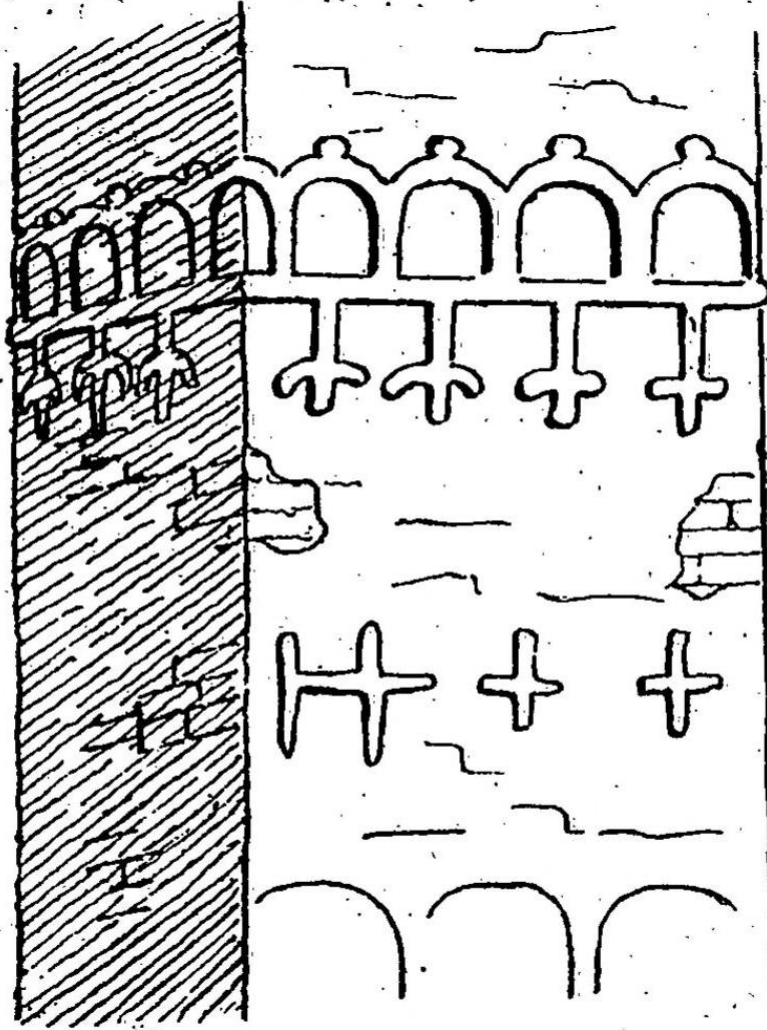
(الصورة رقم 79) زخرفة عمائرية للشرفة من مئذنة زاوية سيدي سالم بالواد



(الصورة رقم 80) نافذة مخرمة (شمسية) مسجد العروسي بقمار



(الصورة رقم 81) زخرفة عمائرية لمئذنة حديثة (مسجد دغمان بقمار)



(الصورة رقم 82) زخرفة صليبية (+) كانت تغطي مئذنة زاوية سيدي سالم القديمة
قبل 1880.

عن : JACQUOT (Grenoble)

Sculptures cruciformes sur une Mosquée saharienne



(الصورة رقم 83) زُربية وادي سُوف تحتوي علامة (+)

فهارس الجداول
و
المخططات والصور

1. الجداول:

الرقم	العنوان	الصفحة
01	التغيرات الشهرية لدرجات الحرارة ما بين 1995-2011	28
02	معدلات التساقط حسب الأشهر ما بين 1995 - 2011	29

2. المخططات:

الرقم	العنوان	الصفحة
1.	موقع ولاية الوادي (39) من الجمهورية الجزائرية	14
2.	مخطط لموقع وادي سوف وسط العرق الشرقي الكبير	16
3.	مخطط طبوغرافي لمستوى ارتفاع أرض سوف عن سطح البحر	20
4.	طبقات التربة والصخور في منطقة وادي سوف	22
5.	مخطط يوضح الطبقات الجيوهيدروغرافية لمنطقة وادي سوف	25
6.	رسم توضيحي لأهم الرياح واتجاهاتها التي تضرب منطقة سوف	31
7.	خريطة العالم لهيرودوت وتُظهر منابع نهر النيل في ليبيا	38
8.	مخطط يوضح مجرى وادي سوف القديم وروافده	41
9.	مقطع طبوغرافي يوضح درجات الإنحدار نحو منخفض ملغيغ	42
10.	مخطط لقصر من تطاوين بالجنوب التونسي .	65
11.	مخطط قصر غرداية	66
12.	مخطط يمثل منازل عدوان عند الشطوط قبل دخولهم أرض سوف	72
13.	مخطط تقريبي لمواقع قرى وادي سوف المندثرة والحالية	80

84	مخطط يوضح كيف تقاسمت طرود غدران وادي سوف القديم	14.
88	مخطط توضيحي لقرية الزُّم حوالي ق12هـ/18م	15.
90	مخطط لقرية الزقم نهاية القرن الـ13هـ/ 19م	16.
94	مخطط لأحياء مدينة الوادي عند التأسيس في القرن 9هـ/15م	17.
96	تأسيس حي الأعشاش في حاضرة الوادي	18.
98	تطور حاضرة الوادي مابين القرنين(12-13هـ 18-19م)	19.
100	حاضرة الواد القديمة(الأعشاش) في شكل قوقعة السلحفاة	20.
106	مخطط بلدة قمار ما بين القرنين11-12هـ/16-17م	21.
108	مخطط تطور بلدة قمار خلال القرنين(12-13هـ/18-19م)	22.
113	مخطط لمحور تطور حاضرة الوادي	23.
114	مخطط تطور حاضرة قمار	24.
115	مخطط تطور حاضرة الزُّم	25.
127	المخطط الحالي لجامع سوق الوادي	26.
133	المخطط الحالي للجامع الشرقي بقمار	27.
137	مخطط تقريبي لمسجد بيت الشريعة (القديم) ببلدة قمار	28.
143	مخطط تقريبي للزاوية التيجانية ومراحل توسعها	29.
147	مخطط مسجد أحمد عمار بالزاوية التيجانية بقمار	30.
149	مخطط القاعة الهرمية بالزاوية التيجانية بقمار	31.

153	مخطط لدار السادة وأقسامها بالزاوية التيجانية بقمار	32.
155	مخطط تقريبي لزاوية سيدي سالم في مطلع القرن الـ20م	33.
169	مخطط نموذجي للحوش في منطقة سوف	34.
171	مخطط نموذجي للحوش الريفي	35.
175	رسم توضيحي لمقطع عرضي لغوط النخيل	36.
179	مناطق تجارة بلاد سوف القديمة	37.
182	مخطط توضيحي لسوق الوادي القديم وأقسامه	38.
186	مخطط سوق بلدة قمار وأقسامه	39.
192	مخطط توضيحي لسور المدينة القديمة للوادي	40.
204	جذع النخل بعد قطعه طوليا إلى ألواح	41.
206	أقسام ومكونات جريدة النخل	42.
210	أشكال القباب في العمارة الإسلامية	43.
210	نماذج لقباب الأضرحة في المغرب الإسلامي	44.
212	طريقة تنفيذ استدارة القبة بالخيط	45.
213	مراحل تطور القُبَّة السُوفية	46.
215	التسقيف بالأدماس المحمولة على القضبان المعدنية (fer àT)	47.
217	التسقيف المسطح بالسِّدَّة وجذوع النخل	48.

219	49. تقنية إنجاز العقود بجريد النخل
230	50. زخرفة بالدوائر المتداخلة لباطن العقد
231	51. زخرفة جصية لزهرة وسط مربع
234	52. نماذج من المراوح النخيلية
236	53. كتابة تذكارية من مسجد الزاوية التيجانية بقمار
238	54. الزخرف الرمزية في واجهات المنازل القديمة بمنطقة سوف

3. الصور:

الترتيب	العنوان	النص
-1	صورة جوية تظهر الدّاية أي آثار المجرى القديم للوادي شمال بلدية المقرن بوادي سوف .	32
-2	زريبة من جريد النخيل	56
-3	عملية إخراج الرمل من داخل الغوط	66
-4	صورة جوية للحواضر الأولى في منطقة سوف	79
-5	صورة جوية لقرية الزقم وموضع الحي القديم	88
-6	صورة جوية لمدينة الوادي و موضع حي الأعشاش القديم	96
-7	صورة جوية لمدينة قمار	106
-8	نموذج للمئذنة التقليدية لمساجد سوف	116
-9	الواجهة الجنوبية للمسجد الجامع بالوادي	117
-10	إحدى نوافذ جامع السوق	117

118	مئذنة مسجد سيد غانم (ميلة) التي هدمتها السلطات الاستعمارية حوالي 1842م	-11
119	صورة للمآذن الأربع لجامع السوق	-12
120	داخل بيت الصلاة لجامع سوق الوادي	-13
121	محراب جامع سوق الواد	-14
121	منبر جامع سوق الواد منذ 1930	-15
122	قبة المحراب جامع السوق من الخارج	-16
125	المئذنة القديمة لجامع العدواني بالزّقم	-17
127	جامع سيدي المسعود وسط البلدة القديمة بقمار	-18
128	قوس محراب الجامع الشرقي بقمار	-19
131	قبة مسجد بيت الشريعة القديم	-20
132	مدخل بيت الصلاة لمسجد بيت الشريعة القديم	-21
137	تصور ثلاثي الأبعاد للزاوية التيجانية عند التأسيس سنة 1789م	-22
141	حائط القبلة وكوة المحراب مسجد أحمد عمّار بالزاوية التيجانية	-23
144	القاعة هرمية السقف من الداخل بالزاوية التيجانية	-24
144	الرواق بين الغرف المؤدي للقاعة الهرمية	-25
146	أحد الأروقة المحيطة بالصحن في دار السادة	-26

152	مسجد أم الطيور بالمغير الذي أنشأ من طرف بني جلاب	-27
152	لوحة مركبة من صورتين لمئذنة زاوية سيدي سالم الأولى	-28
153	المئذنة الحالية لزاوية سيدي سالم بالواد	-29
157	العريش أو المباليا الأمازيغية	-30
158	صورة للكاف في أحد غيطان النخيل	-31
159	صورة المنزل السوفي أو الحوش التقليدي	-32
162	صورة للسابط ملاصق لدار الخزين في الحوش	-33
162	الجَمَّارة و القِرْبَة	-34
163	الخابية والمخزن في دار الخزين	-35
167	السَدَّة أو السرير من جريد النخيل	-36
167	حوش على طرف الغوط (الريف)	-37
170	استعمال الزنبيل لحمل الأتربة على ظهور الدواب	-38
171	طريقة السقي بالدواب	-39
171	طريقة السقي بالخُطَّارة	-40
173	غيطان النخيل في وادي سوف (جلد الفهد)	-41

178	المَدّاح في سوق الوادي	-42
181	سوق القشاشيب بسوق قمار القديم	-43
190	صورة تُظهر بقايا السور في الجهة الجنوبية الغربية لمدينة الواد	-44
193	حجر اللوس	-45
193	زهرة الرمال	-46
193	طبقة حجارة اللوس وسط الرمل	-47
195	الأدوات المستعملة في قلع الحجارة بالطريقة التقليدية	-48
198	الكوشة أو الفرن تقليدي لحرق حجارة الجبس	-49
199	أقسام النخلة و مكوناتها	-50
205	العَوّانة أثناء عملية البناء	-51
205	أنواع من التكسية الخارجية للجدران (التلبيس)	-52
206	قبة الصخرة بالمسجد الأقصى فلسطين	-53
206	قبة "جامع عقبة" بالقيروان	-54
206	قبة سوق القمح تعود للفترة الاستعمارية يعلوها منور	-55
210	مدينة الألف قبة (وادي سوف)	-56

210	57-	نموذج للقباب في سوف من الفترة الاستعمارية
213	58-	قبو متقاطع في حي الأعشاش بالواد
213	59-	التسقيف بالأدماس والقباب في واد سوف
214	60-	التسقيف بسدة الجريد وجذوع النخيل
216	61-	نماذج من العقود في عمائر سوف
217	62-	نماذج من وسائل الدعم في العمارة السوفية
218	63-	القلل التقليدي (السفاقصي)
219	64-	نماذج لأبواب مختلفة من منطقة سوف
219	65-	نماذج من النوافذ في الزاوية التيجانية بقمار
224	66-	النقش باستعمال الورق المخرم والفحم المطحون.
225	67-	زخرفة بالألوان تكسو جدران القاعة الهرمية بالزاوية التيجانية
225	68-	نافذة مخرمة مشكلة بطريقة التجميع في زاوية قمار
225	69-	البوابة الرئيسية للزاوية التيجانية بقمار
227	70-	الدوائر في زخرفة جصية أسفل قبة مسجد الزاوية التيجانية
228	71-	إفريز من زخارف هندسية أسفل قبة جامع السوق

229	نجمة سداسية مشكلة بالزخرفة الكتابية	-72
229	أول زخرفة خشبية لطبق نجمي تعود للقرن 6هـ	-73
229	زخرفة بالطبق النجمي في سقف مدخل الجنان بزاوية قمار	-74
232	زخارف نباتية بالألوان (الزاوية التيجانية)	-75
232	زخرفة نباتية في شكل أرابسك (جامع السوق بالوادي)	-76
232	زخرفة نباتية توطر أخرى هندسية من المعبد اليهودي بقمار	-77
233	زخرفة كتابية بالنقش البارز لآية قرآنية بالخط المغربي	-78
234	زخرفة عمائرية للشرفة من مؤذنة زاوية سيدي سالم بالواد	-79
234	نافذة مخرمة (شمسية) مسجد العروسي بقمار	-80
234	زخرفة عمائرية لمؤذنة حديثة بقمار	-81
235	زخرفة صليبية (+) كانت تغطي مؤذنة زاوية سيدي سالم قبل 1880	-82
236	الزُربية السُوفية تحتوي علامة (+)	-83

فهرس الموضوعات

الإهداء .

كلمة شكر.

قائمة المختصرات.

المقدمة..... 4

61-12 الفصل الأول: المعطيات الجغرافية والتاريخية

أولاً: المعطيات الجغرافية..... 13

1. موقع وادي سوف..... 13

2. الخصائص الطبيعية..... 17

1.2 - التضاريس..... 17

2.2 - الجيولوجيا..... 21

3.2 - الهيدروغرافيا..... 23

4.2 - المناخ..... 26

أ - الحرارة..... 26

ب - التساقط..... 29

ج - الرياح..... 30

ثانياً: المعطيات التاريخية..... 33

1. أصل التسمية ودلالاتها 33

2. ظروف التعمير..... 43

1.2 - قبل الفتح الإسلامي..... 46

2.2 - بعد الفتح الإسلامي..... 48

80-62 الفصل الثاني: نشأة القرى القديمة في وادي سوف

أولاً: القصر و القرية في الجنوب الجزائري..... 63

ثانياً: عمارة القرى الأولى في وادي سوف..... 71

1. النازية..... 73

2. جلهمة..... 74

75	 3. الرُّقُوبَا
76	 4. القدائم
77	 5. تكسبت القديمة
115-81	الفصل الثالث: نشأة القرى الحالية في وادي سوف
82	 أولاً: نشأة وتطور القرى الحالية في وادي سوف
85	 1. قرية الزُقْم (اللُّجَّة)
85	 1.1- ظروف التأسيس و النشأة
86	 2.1- تطور عمران قرية الزقم
91	 3.1- الخصائص العمرانية لقرية الزقم
92	 2. حاضرة الواد
92	 1.2- ظروف التأسيس
93	 2.2- تطور عمران المدينة
99	 3.2- خصائص تطور عمارة الوادي
101	 3. بلدة قمار
101	 1.3- ظروف التأسيس
103	 2.3- تطور عمارة قِمار
109	 3.3- خصائص تطور عمارة قمار
111	 ثانيا: مقارنة بين تطور القرى الثلاث
157-116	الفصل الرابع: العمارة الدينية في منطقة سُوف
117	 أولاً: مدخل للعمارة الدينية
119	 ثانيا: العمارة الدينية في منطقة سوف
120	 1. الجوامع و المساجد
120	 1.1- جامع السوق في حاضرة الوادي
120	 أ- الموقع و التأسيس
121	 ب - وصف الجامع

128	2.1- جامع العدواني بقرية الزقّم.....
128	أ - الموقع و التأسيس.....
128	ب- وصف الجامع.....
129	3.1- الجامع الشرقي بقمار.....
129	أ - الموقع و التأسيس.....
130	ب- وصف الجامع.....
134	4.1- مسجد بيت الشريعة ببلدة قمار.....
138	2. الزوايا.....
	1.2- الزاوية التيجانية
141	بقمار.....
141	1.1.2- التأسيس والتطور.....
144	2.1.2- أهم عمائر الزاوية.....
144	أ- جامع أحمد عمار.....
144	ب- القاعة الهرمية وملحقاتها.....
150	ج- دار الأسياذ أو دار السادة التيجانيين.....
154	2.2- الزاوية الرحمانية سيدي سالم بالوادي.....
154	أ- التأسيس.....
156	ب- مئذنة الزاوية.....

193-158 الفصل الخامس: العمارة المدنية والدفاعية في منطقة سوف

159	أولاً: العمارة المدنية.....
159	1. عمارة المساكن.....
160	1.1- العريش.....
160	2.1- دار الكاف أو الكهف.....
161	3.1- الخيمة.....
161	4.1- الحوش.....
163	- تخطيط وأقسام المنزل في منطقة سوف.....
172	2. عمارة الغوط.....

172	1.2- كيفية إنجاز الغوط.....
174	2.2- أقسام الغوط و مكوناته.....
177	3. عمارة الأسواق في منطقة سوف.....
180	1.3- سوق مدينة الواد.....
183	2.3- سوق بلدة قمار.....
187	ثانيا: العمارة الدفاعية.....
188	1. سور مدينة الوادي.....
188	أ- ظروف الإنجاز.....
191	ب- مخطط مسار السور.....

239-194 **الفصل السادس: مواد وتقنيات البناء والزخرفة**

195	أولاً: مواد وتقنيات البناء.....
195	1. مواد البناء.....
196	1.1- الحجارة.....
196	أ- أنواعها.....
198	ب- عملية استخراجها.....
199	2.1- الجبس.....
199	أ- أنواعه.....
200	ب- صناعة الجبس التقليدي.....
202	3.1- العناصر النباتية.....
207	2. تقنيات البناء.....
207	1.2- تقنيات رفع الجدران.....
208	2.2- تقنيات التسقيف.....
208	أ- التسقيف بالقبة.....
214	ب- التسقيف بالدمس.....
216	ج- التسقيف بالسّدة (المسطح).....
218	3.2- تقنيات الدعم.....

218	أ- العقود.....
220	ب- الدعامات والأعمدة.....
221	4.2- التهوية والإنارة.....
221	أ- الأبواب.....
222	ب- النوافذ.....
223	ثانيا: فن الزخرفة و تقنياته.....
223	1. ظهور فن الزخرفة و انتشاره.....
225	2. مواد وتقنيات الزخرفة.....
225	1.2. الزخرفة بالجبس أو الجص.....
228	2.2. الزخرفة بالألوان.....
228	3.2. الزخرفة بالخشب.....
228	4.2. الزخرفة بالمعادن.....
229	3. المواضيع الزخرفية.....
229	1.3. الزخرفة الهندسية.....
233	2.3. الزخرفة النباتية.....
235	3.3. الزخرفة الكتابية.....
237	4.3. الزخرفة العمائرية.....
238	5.3. الزخرفة الرمزية.....
240	الخاتمة.....
246	قائمة المصادر والمراجع.....
262	ملحق الصور.....
340	فهرس الجداول والمخططات والصور.....
350	الفهرس العام.....

ملخص الدراسة

عُرِفَت منطقة وادي سوف بخصوصيتها عن باقي الأقاليم الصحراوية الأخرى من حيث ظروف عمران قراها أو من حيث نمط عمارتها، فموقعها المتوسط بين بلاد الجريد التونسي و بلاد ريغ، وجنوب الزيبان وسط العراق الشرقي الكبير جعلها تجمع بين خصائص هذه الأقاليم لتشكل منها مزيجا متجانسا متفردا في ملامحه عن غيره.

على الرغم من أن القرى في منطقة سوف أتمت بملامح العمارة الصحراوية المتكيفة مع البيئة المتجاوبة مع النمط الاجتماعي للسكان فإنها لا تصنف من القصور الصحراوية التي سادت في جنوب بلاد المغرب.

أتمت القرى في سوف بطابع المدينة الإسلامية لها جوامع ورحبات أزقتها ضيقة منكسرة أو متعرجة وأخذت عن المدن الصحراوية استعمال مواد بناء المحلية التقليدية التي تساعد على مقاومة قسوة الطبيعة وكانت النخلة العنصر المشترك بينها جميعا.

سكان بلاد سوف مع البيئة الصحراوية الرملية بطريقتهم فصنعوا الجبس بدلا عن الطين واستخرجوا تأقلم الحجارة من تحت الرمال وأنجزوا مساكن بسيطة في شكلها قليلة الارتفاع مقاومة للرياح والحرارة تلبي حاجتهم في الأمن والاستقرار وتوفر لهم الراحة النفسية والجسدية، وحفروا الغيطان طلبا للماء وغرسوا النخيل حتى تفوقوا عن جيرانهم في بلاد الجريد.

Summary :

The region of Oued Souf is known for its unique characteristics compared to other Saharan regions with regard to the urban conditions of its villages or its style of construction. Its intermediate location between the country of Tunisian Djérid and the country of Righ and the South of Ziban, in the middle of the great oriental Erg has made to combine the properties of these territories to form a homogeneous mixture varying in the unique characteristics of the others

Although the villages of the region of Souf are marked by the characteristics of Saharan architecture adapted to the environment, homogeneous with the social style of the population, they are not classified in in the South Maghreb ksours.

The villages have the nature of the Islamic city with mosques and narrow and broken alleys and alleys, and have taken from the Saharan cities the use of local traditional building materials that help to resist the harshness of nature. And the palm is the common element.

the people of the land of souf will adapt to the sandy desert environment in their own way and they made gypsum instead of clay and untrained the stones from under the sand and made simple low- altitude dwellings resistant to wind and heat meet their need for security and stability and bring them psychological and physical comfort, and dig the Ghitans seeking water for these palm trees until they surpass their neighbors in the Djerid country.